بول ريبو

مأساة مايرلنج

رواية

ترجمة

د. أمير بقطر

الكتاب: مأساة مايرلنج

الكاتب: بول ريبو

ترجمة: د. أمير بقطر

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

ريبو ، بول

مأساة مايرلنج/ بول ريبو، ترجمة: د. أمير بقطر

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٢٣ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى: ٧ – ٨١ – ٦٨١٨– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٧٢٦٩ / ٢٠٢٠

مأساة مايرلنج

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

تقديم

حينما روع العالم بإعلان الحرب سنة ١٩١٤، كان هناك ما يشبه الإجماع على أن دوي المدافع الذي هز أركان المعمورة حينذاك لم يكن إلا صدى للرصاصتين اللتين أطلقتا قبل ذلك بخمس عشرة سنة (٣٠ يناير سنة ١٨٨٩) بإحدى حجرات قصر مايرلنج في النمسا فأودتا بحياة ولي عهدها الشاب الأرشيدوق رودلف وحياة البارونة ماري فتسيرا خليلته الحسناء. وكان من رأي كثيرين من المعقبين العسكريين والسياسيين أن تلك الحرب العالمية ما كانت لتقوم لو أن الأرشيدوق كان على قيد الحياة لأنه كان شديد البغض لألمانيا فلا يمكن أن يسمح بمثل ذلك الاتفاق المشئوم الذي عقد بين بلاده وبينها، وبه وحده استطاع غليوم الثاني إمبراطور ألمانيا أن يتحدى العالم اجمع بإعلان تلك الحرب الضروس!

على أن مأساة مايرلنج، بقيت برغم تجدد الحديث عنها واستفاضته مثار اختلاف كثير بين المتحدثين عنها في مختلف أنحاء العالم. فمن قائل: أن موت الارشيدوق وعشيقته كان انتحاراً اتفقا عليه رغبة في إنهاء حياتهما وهما في أوج السعادة والصفاء قبل أن يشوب هذه الحياة ما يكدرها، وقائل: أن العاشقين قتل أحدهما الآخر ثم قتل نفسه خلال ثورة عاطفية هوجاء بعد أن شربا حتى ثملا. ومن قائل: بل هناك جريمة دبرت لاغتيالهما أما لأسباب سياسية أهمها أن الارشيدوق كان بسبيل القيام بثورة لقلب نظام الحكم في بلاده، وأما لأسباب عادية أخرى من بينها أن موظفاً من موظفي الغابة التي بها قصر الارشيدوق قتله انتقاما لنفسه منه لإغوائه زوجته ثم قتل البارونة معه حتى

لا تشي به أو قتلت هي نفسها متأثرة بموت الارشيدوق أو خيانته لها مع زوجة ذلك الموظف!

وليس من شك في أن كثيراً من هذه الآراء كانت بإيحاء من أعداء الأسرة المالكة في النمسا والمجر لتسوئ سمعتها وتسويد صحيفتها والطعن في كفاية أفرادها لتولي العرش والحكم، ولكن ليس من شك أيضاً في أن الإمبراطور فرنسوا جوزيف نفسه كان في مقدمة المروجين لهذه الإشاعات ولم يمنع نشرها كلها ما عدا إشاعة انتحار ولي عهده لأن الكنيسة الكاثوليكية التي يتبعها تحرم الصلاة على المنتحر!

وأخيراً قدر لهذه الروايات المختلفة أو المختلفة أن يلقي عليها الضوء الكافي لكشف زيفها وإبراز الحقيقة الخالصة التي بقيت خافية كل ذلك الوقت الطويل. وكان الفضل في ذلك لصديق لي من كبار السياسيين المتقاعدين هو المسيو "فرنسوا رولان". إذ جاءني بكراستين أثريتين ثمينتين: أحدهما تحوي مذكرات بخط البارون جان دي خلومكى المستشار الخاص للإمبراطور فرنسوا جوزيف، وقد ضمنها جميع الوثائق والتقارير والتحقيقات المختلفة عن "مأساة مايرلنج". وأوفى بعهده للإمبراطور فأبقاها سراً مصوناً حتى توفى. والكراسة الأخرى تحوي مذكرات مخطوطة أيضاً للبارون ليوبولد ابن البارون جان وقد سجل فيها ملاحظاته وتحقيقاته في شأن سياسة النمسا فيما بين سنتي ١٨٩٠ و١٩٠٠ وعن الحياة الخاصة للإمبراطور فرانسوا جوزيف وأسرته!

وعلمت من المسيو رولان أنه حصل على هاتين الكراستين من صديقه البارون ليوبولد قبيل سفر هذا إلى أميركا عقب توالي النذر باقتراب خطر نشوب الحرب العالمية الأولى. وقد حرص على ألا يذيع أي شيء مما

تضمنتاه من الحقائق والأسرار تنفيذاً لرغبة البارون صديقه، وبقي كذلك حتى علم أخيراً بوفاة البارون في مهجره المختار.

والواقع أن صديقي السياسي الكبير كان كذلك خير معين لي على تحقيق كثير من المسائل التاريخية والسياسية التي جاء ذكرها في الكراستين المذكورتين، فهو نفسه كان ملما بدقائق هذه المسائل، وعكف حينا على تحقيقها في كثير من المراجع الموثوق بها في دار الكتب الكبيرة بموناكو وغيرها.

وقد آثرت أن أقدم القصة الحقيقية لمأساة مايرلنج التي هي مأساة النمسا وأوربا بل مأساة العالم كله في صورة المذكرات التي كتبها البارون جان دي خلومكي، لأتيح للقارئ أن يقف على أصول الحوادث وعلى تسلسلها أحياناً وتقاطعها أحياناً، ولأتيح له أيضاً أن يرسم في ذهنه صورة للجو الذي جرت فيه الأحداث المتصلة بتلك المأساة الكبرى بمدينة "فيينا" عاصمة النمسا فيما بين سنتي ١٨٨٨ و١٨٨٩.

ولا يفوتني قبل أن أختم هذا التمهيد أن أشير إلى حادثين طريفين وقعا خلال طبع هذه القصة، أحدهما أن البارونة ليوبولد المقيمة الآن بمدينة "كان" دعتني فجأة إلى مقابلتها، وأعربت عن دهشتها من حصولي على الكراستين اللتين تحويان مذكرات زوجها وأبيه، وأصرت على أن تعاد الكراستان لها وأن تكون حقوق طبعهما محفوظة لها وأفراد أسرتها. وقد رأيت أن أطلع القارئ على هذا المشكل القضائي حتى يثق بأن كل ما جاء في كتابي يستند إلى دقائق موثوق بها.

أما الحادث الآخر، فذلك أن خزانة الإمبراطورة إليزابيث، إمبراطورة النمسا والمجر، فتحت لأول مرة قبيل الانتهاء من طبع هذه القصة، وكان بين

الأوراق التي وجدت بها وثيقة كتبها الارشيدوق رودلف ابنها قبيل موته، وقد جاء فيها ما يثبت صحة الوقائع التي سجلها البارون جان دي خلومكي في مذاكرته.

بول ريبو

موعد مع الحب

الخميس ٣٠ مايو سنة ١٨٨٨.

حفلة راقصة في القصر الإمبراطوري.

كان الشبان من الضباط والملحقين بالسفارات الأجنبية يتزاحمون جميعا في الحفلة حول الغادة الحسناء البارونة ماري فتسيرا. وهي من أصل يوناني، يكتب اسمها وينطق على الطريقة الفرنسية غير أن أصدقاءها يدعونها "ميري" على الطريقة الانجليزية تدليلا لها.

عمرها لا يجاوز السابعة عشرة إلا بشهرين، فقد ولدت في ١٩ مارس سنة ١٨٧١.

وقبل حضورها إلى هذه الحفلة الراقصة، كان شعرها الأسود اللامع المصقول مسدولاً على كتفيها وظهرها كالمعطف، وقد تدلى غزيراً متماوجاً حتى جاوز خصرها فأخفى جانباً كبيراً من ثوبها، بينما تهدلت خصلات منه على جبينها وخديها وفوق صدرها، فبدا وجهها وكأنه صورة بارزة من العاج في إطار من الأبنوس الموشي بالذهب ولكن هذه الفتنة كلها لم تكفها، فحرصت على أن تظهر في الحفلة في تسريحة مبتكرة تلاءم الثياب الجديدة الأنيقة التي اختارتها لذلك.. وهكذا استرعت جميع الأنظار بشبابها الناضر وأناقتها المكتملة وجمالها الرائع الفتان!

ومن ذا الذي يقع نظره عليها ولا يبهره جمالها الكلاسيكي الساحر الجذاب؟

هذه البشرة العاجية البيضاء المشوبة بالحمرة الوردية، وهاتان العينان الواسعتان تغمرهما خضرة عذبة ضاربة إلى الزرقة السماوية الصافية، وهذه الأهداب الطويلة التي تظلل خديها فتحجب بعض خمرتها كلما أسبلت جفنيها في خفر وحياء.. إلى أنف صغير دقيق بديع التكوين، وشفتين رقيقتين لطيفتين كلما انفرجتا عن ابتسامتها المرحة الحلوة بدت أسنانها كحبات اللؤلؤ المنظوم الناصع البياض!

نعم، لا غرابة إذا كانت ميري محط جميع الأنظار في هذه الحفلة الإمبراطورية الكبرى وموضعا لإعجاب الرجال والشبان، وغيره جميع الحاضرات!

ومما زادها فتنة وروعة، أنها كانت حين تكف عن الكلام، أو تخلو إلى نفسها، تبدو على ملامحها ألوان طريفة من الوجوم والتفكير الحزين، فيخيل لمن يراها أنها غريبة تحن إلى الوطن، أو أنها راهبة زهدت الحياة وملذاتها. بيد أنها سرعان ما تنفرج شفتاها ستعود الكلام فإذا ذلك الوجوم قد استحال تهللا، وإذا ذلك الحزن قد انقلب مرحاً وفرحاً، فتلألأ عيناها، ويتورد خداها بنضارة الصبا وخفر العذراء، وترتسم على فمها الصغير سمات الذكاء المتقد، والعاطفة الصاخبة، والإغراء الذي يغزو العيون والقلوب معا في هجوم خاطف لا سبيل إلى مقاومته!

كانت ماري، البارونة الصغيرة الحسناء، بمثابة محور يدور حوله كل ما اكتمل في الحفلة من بهاء ورواء. فهي تنقل هنا وهناك، تشارك في مختلف الأحاديث، وفي مختلف الرقصات، ناشرة حولها جواً شاعرياً يفيض بالأحلام والأوهام والخيالات، كما يفيض بما يشبه شذى الورود والزهور والرياحين في مستهل الربيع!

وكان الناظر إليها وهي ترقص، يخيل إليه لفرط رشاقتها الساحرة المتمثلة في رقة صرها ودقة ساقيها وخفة قدميها الصغيرتين، إنها ترقص في الهواء ولا تمس الأرض.. كما كانت مزاياها مجتمعة تضفي عليها وشاحا من الغموض والخيال يزيدها جمالا على جمال!

وهناك بين الأمهات اللاتي حضرن الحفلة لحراسة بناتهن، كانت تجلس البارونة هيلانة فتسيرا، أم البارونة الصغيرة ماري. وكانت ملامح وجه الأم تنم عن عز في طريقه إلى الزوال. وقد حرصت على أن تظهر في الحفلة كسيدة من أسرة عريقة شريفة، برغم أم ملابسها وحليها كانت لا تتفق والأزياء الحديثة المعروفة في فينا حينذاك. فقد كدست حول عنقها عقداً من اللؤلؤ والماس تدلت فروعه العديدة على صدرها في غير اتساق، وعطرت نفسها برائحة عنيفة خانقة تكاد تكون كالماء العكر عند رصيف الميناء!

وكانت إلى ذلك مكتنزة سمينة، مليئة بالشحم واللحم، تمعن في تزويق ثيابها وزركشتها، وتضع على رأسها شعراً مستعاراً لا يخدع أحداً!. فلا عجب أن أحدقت بها النظرات المتعجبة من رجال فيينا ذوي الشوارب المفتولة ومن نسائها الفاتنات ذوات البشرة الناصعة كأصداف اللؤلؤ، وبخاصة أن المجتمع النمساوي كان ينظر إليها بالعين التي ينظر بها إلى أجنبي عنه، فقد كانت أسرتها من أصل يوناني عثماني، وقد اشتهر إخوتها الأربعة بأنهم يقضون نصف أعمارهم في الاشتغال بسباق الخيل، ومن بينهم اثنان ربحا الجائزة الأولى في سباق "الدربي" الشهير!

أما القصر الذي كانت تسكنه فكان فيما مضي فخماً منيفاً، ثم تهدمت بعض جوانبه، وبيعت حديقته. فأصبح منظره بين الأبنية الحديثة التي تحيط به من ثلاث جهات كمنظر السن الطبيعية المعطوبة بين صف من الأسنان

الصناعية. وفي هذا القصر كانت البارونة هيلانة تستقبل ضيوفها كل يوم خميس، وكان الشبان منهم ينتظرون هذا اليوم كل أسبوع بفارغ الصبر، لكي يسارعوا إلى هناك يحدوهم الشوق إلى الاستمتاع بالسعادة التي يتيحها لهم ما درجت عليه من طرح الكلفة وعدم التزام قواعد "الاتيكيت". وحسبهم أن تتاح لهم فرصة للقاء ماري البارونة الابنة ذات الحسن والمرح والفتون!.. على أن ماري في حفلة الليلة بالقصر الإمبراطوري كانت تبدو مشغولة عن شباب الضباط والملحقين بالسفارات الذين تجمعوا من حولها يستجلون طلعتها البهية الناضرة وسرعان ما انصرفت عنهم. مستأذنة في احترام، وقد علقت عيناها بضابط شاب مديد القامة جميل الطلعة، يرتدي بدلة مارشال محلاة ببضعة نياشين. ولم يكن هذا الضابط السعيد إلا الارشيدوق رودلف ولي العهد ووريث عرش الإمبراطورية العتيد!

وخف إليها الارشيدوق مسلماً في غير تردد ولا كلفة، فقد كان خبيراً بالنساء، كما كان ملما بالعبارات والإشارات التي تجتذب إليه الجميلات الذكيات فلا يسعهن إلا الانصراف إليه والاسترسال في الاستماع لحديثه الخلاب.

وقال لها الارشيدوق الشاب بعد أن فتل شاربيه وداعب أصابعه الدقيقة الطويلة الدالة على ميوله الفنية وتربيته العالية:

– ألا تريدين الجلوس هنيهة ريثما تبدأ رقصة الفالس التالية؟. أنه ليعز على أن أراك واقفة على قدميك حتى ذلك الحين!

ثم أشار إليها أن تتقدم نحو متكأ وثير في ركن من أركان ردهة الرقص، تفصله عن الحلبة المخصصة له أصص بديعة تحوي زهوراً ووروداً ونباتاً مختلف الألوان.

وبينما كان الراقصون والراقصات في شغل بإحدى رقصات (الفالس) للموسيقى الشهير (ستراوس).. كان الارشيدوق رودلف يقص على البارونة الصغيرة بعض النكات المضحكة، متعمداً ذلك كيما يطيل النظر إلى ثغرها الجميل كلما ابتسمت فتلألأت أسنانها في ضوء الشموع الخافقات فيما انتشر في الردهة من ثريات وقناديل.

وكان ردولف نقاداً فنياً من الطبقة الأولى في كل ما يتعلق بجمال المرأة. وكانت عيناه لذلك لا تكفان عن المقارنة بين جمال ماري وجمال غيرها من النساء والفتيات الدائرات في حلقة الرقص على أنغام الموسيقى!.. وخرج من المقارنة وقد ازداد شعوره بالفرق العظيم بين: الحمرة الصناعية التي اصطبغت بها خدود الراقصات الجميلات، والحمرة الطبيعية الناضرة في خدي محدثته الصغيرة الحسناء!

كانت ماري تستغرق في الضحك من غير أي تصنع أو تكلف كلما راقتها نكتة أو عبارة في حديث الارشيدوق. وكان هو– أول الأمر– يتوقع ألا ترفع صوتها أمامه أسوة بجميع النساء اللاتي كن يخاطبن سموه. فأدهشه ضحكها وأعجبه ما فيها من عذوبة وبساطة، كما أعجبه لباقتها في الحديث واسترسالها فيه على سجيتها وكأنها تعرفه منذ زمن بعيد!

ثم زاد في دهشته أن قطعت حديثه فجأة لتقول له:

– أخيراً.. أخيراً التقينا!.. أن هذا هو اليوم الذي كنت أنتظر منذ عامين وأنا على أحر من الجمر!

فسألها مأخوذاً: "ماذا تقولين؟..! كنت تنتظرين هذا اليوم؟.. كيف كان ذلك؟"

فضحكت مرة أخرى وقالت: "نعم، كان ذلك منذ عامين.. أن تعارفنا في الواقع يرجع إلى زمن بعيد!"

وبقي الارشيدوق هنيهة ساكنا وعيناه تتأملانها، وقال لنفسه: "حقا إنها لساحرة مدهشة!.. ولعلها يسرها أن تظهر بمظهر المنتصر الذي يفاجئ محدثه بما لا يعلم!"

واستمرت هي في ضحكاتها الساحرة فقال لها:

– تقولين: أن تعارفنا يرجع إلى عهد بعيد، أن هذا عجيب حقا: أن من يراك مرة لن ينساك أبداً، ولست أذكر أنني رأيتك قبل اليوم!

فقالت له: "ألا تذكر أن سموك راسلتني؟"

فقال متعجبا: "أنا راسلتك؟!.. متى وكيف كان ذلك؟"

فقالت وهي تبتسم: "كان ذلك منذ عامين، ومن دواعي سروري إنني مازلت محتفظة برسالة سموك، لقد كانت رسالة بديعة!"

وهنا وضح اللغز، وتذكر الارشيدوق أنه تلقى يوما رسالة غرامية طريفة، بعثت بها إليه فتاة من فيينا جعلت عنوانها على مكتب البريد العام في المدينة، فلم يسعه إلا أن استجاب لرغباتها في الرد على رسالتها الجريئة، التي ضمنتها اعترافها الساذج بأنها وقعت في هواه عقب مشاهدتها إياه يتقدم جنوده في إحدى الحفلات العسكرية، ثم بقي حينا راضيا عن نفسه لمجاملته تلك الفتاة العاشقة المجهولة ورده على رسالتها التي كانت تقطر عذوبة وتشتعل غراما!

ونظر إليها كالمعاتب وقال لها متلطفا: "لماذا لم تكتبي رداً على رسالتي

يا آنسة؟"

فأجابت بقولها: "أن البارونة أمي وقفت على الأمر في حينه، فعدته عبثا مني، واشتطت في لومي وتأنيبي.. وهكذا ترى يا صاحب السمو إنك كنت أول من خيب آمالي في الحب!"

ولم يكن في نظراتها أو إشاراتها أو صوتها ما يدل على رغبتها في أن تنال حظوة في عينيه، ولهذا كانت سذاجتها هذه أشد إغراء وأعمق أثراً في نفس الارشيدوق من ذلك التصنع الذي تتخذه النساء عادة سلاحاً لغزو قلوب الرجال!

وكأنما فطنت ماري إلى أنها استأثرت بكثير من وقت الارشيدوق، مما جعل أنظار نساء الحاشية تتجه باستمرار إلى حيث كانا يجلسان، فقالت له:

– أخشى أن أكون سببا في غيرة نساء الحاشية الراغبات في الحظوة بقرب سموك، وأني لسعيدة إذ كان لي حظ التحدث إليك الليلة كل هذه الفترة!

ثم أشارت إلى سيدة كثيرة الشحم واللحم كانت تنظر إليهما شذراً واستطردت تقول: "انظر يا صاحب السمو!.. أترى تلك السيدة التي تكاد تفترسني بنظراتها؟.. إنني لخائفة حقا من عينيها الواسعتين هاتين!.. أنها ذئبة يخشى من أنيابها على كل الفتيات اللائي يراقصن صغار الضباط!"

وابتسم الارشيدوق وتركها تواصل حديثها الذي صادف هوى في نفسه، ولما سألته: "أتعرفها؟" أومأ برأسه نافياً وهو لا يزال يبتسم، فعادت هي تسأله: "ما رأيك فيها؟"

فقال: "أنها شقراء ثقيلة الظل، كفلاحة هولندية!"

فقالت ماري: "هولندية؟.. ما أظن أنها كذلك". ثم أخذت تدق كفا بكف في بساطة الأطفال وواصلت كلامها فقالت:

– آه.. انتظر قليلا فأنا أريد أن أكسب الرهان!.. أنها لوكسمبرجية، لا.. لا.. بل هي بلجيكية!

وهنا قال الارشيدوق وقد اتسعت ابتسامته: "الآن كسبت الرهان يا آنسة!.. فالواقع أنها بلجيكية كما ذكرت.. وهي الارشيدوقة ستيفاني زوجتي!"

وأحمر وجه ماري، وامتدت حمرته إلى عنقها فكتفيها فصدرها، فزادها ذلك روعة وفتنة في عيني الارشيدوق، ثم أخذت تتمتم متلعثمة قائلة:

– آه يا صاحب السمو!.. كيف كنت أستطيع أن أعرف ذلك؟.. أنني لم أر الارشيدوقة قبل اليوم، ولم أر يوما صورتها، فلم يكن لي سبيل إلى معرفتها!

فقال لي الارشيدوق وهو يبتسم مهونا الأمر عليها: "ثقي بأن هذا المأزق لن يتكرر!"

وقام الارشيدوق على أثر ذلك فقبل يدها اللدنة قائلا: "آمل أن نراك دائماً يا آنسة في حفلات الحاشية الإمبراطورية!"

فقالت وقد شاعت البهجة في وجهها: "أجل!.. دائماً!.. وسيكون لقاؤك من دواعي غبطتي وسروري!"

فنظر إليها الارشيدوق نظرة عميقة وقال لها قبل أن ينصرف: "كذلك أنا سأكون سعيداً بلقياك، سعيداً جداً يا آنسة!".

يوم الجمعة ٣١ من مايو.

لقاء في براتو مدينة الملاهي في فيينا.

البارونة هيلانة فتسيرا جالسة في قصرها تشرب القهوة بالقشدة، وقد بدا جسمها أضخم من المعتاد، حتى ليخيل إلى من يراها في قميصها ذي الخطوط الرمادية والزيتية، أنه يرى كتلة مستديرة من اللحم الكثيف على أنها مع ذلك كانت جمة النشاط، شديدة العناية بتنسيق القصر. وكان جميع الخدم فيه من النساء، ما عدا خادماً عجوزاً كان في خدمة الأسرة منذ كانت هي طفلة. والواقع أنها تركت استخدام الرجال لأن المرتب الشهري لكل منهم لم يكن يقل عن جنيه فرنسي من الذهب، وهي في أشد الحاجة إلى الاقتصاد والمحافظة على ما بقي لديها من مال. وقد وفقت إلى خادمات ممتازات حقا، من بينهن (أنا) الشجاعة التي مضي عليها أكثر من ٣٨ عاما في خدمتها.. و(أجنس) الفرنسية الذكية التي تعد نصف معلمة. و(ريتا) الهنغارية البدينة التي تنتمي إلى منطقة شهيرة بتوريد الخدم الممتازين إلى مختلف القصور!

على أن البارونة الأم كانت– في المناسبات التي تستقبل فيها ضيوفها– تستأجر بعض الخدم الرجال، وتلبسهم حللا ثمينة مزركشة، ولا يسمح لهم بأن يقدموا الشراب للضيوف إلا وأيديهم في القفازات التقليدية البيضاء!

أما البارونة الصغيرة ماري، فكانت قد نهضت مبكرة في صباح ذلك اليوم التالي للحفلة الساهرة الراقصة في القصر الإمبراطوري، برغم أنها لم تعد بعد انتهاء الحفلة في ساعة متأخرة من الليل!

وقد عكفت منذ استيقاظها على البحث والتنقيب في خزانة محفوظاتها

الخاصة، المليئة بمختلف الأشياء التي تعتز بها، من بطاقات زيارة وبطاقات دعوة إلى حفلات، ورسائل من صديقات رحلن عن فيينا، وقصائد شعرية، وصور شمسية تسجل ما اشتركت فيه من الرحلات!

والواقع أنها لم تكن تبحث إلا عما تحتفظ به من صور للارشيدوق رودلف ولي العهد تمثله في مختلف المناسبات.

ولبثت قليلاً تتأمل صورة تمثله في السادسة عشرة من عمره، وقد بدا فيها شعره الأشقر الذهبي مفروقا من الوسط، وارتدى بذلة مدنية ذات سترة قصيرة مزركشة بالقصب والزخارف، وفي عنقه رباط مشدود إلى ياقة مفتوحة مرتفعة الجوانب كأنها أطار حول وجهه، وفي يده اليمنى عصا صغيرة!

وتركت هذه الصورة لتتأمله في صورة أخرى بدا فيها مرخيا لحيته!.. ثم استقرت عيناها أخيراً على أحدث صورة له عندها. وكانت تمثله حليق الذقن، وقد زهر في وجهه طابع الحسن فزاده جمالا على جمال، وأبرقت عيناه الواسعتان في سذاجة تنم عما يشعر به فتى مثله لم يجاوز سن المراهقة. أما بشرته فكانت أميل إلى لون الذهب مما يدل على أنه كان يقضي معظم النهار في الهواء الطلق.

وطال تأمل البارونة الصغيرة هذه الصورة للارشيدوق، وأخذت تقول لنفسها:

– هكذا ينبغي أن يكون من سيجلس على عرش الإمبراطورية!.. وكان لابد لكي تكون الصورة كاملة هكذا من هذا الحذاء الطويل وهذه القلادة المتخذة من الفرو المبطن بجلد السمور!

وخيل إليها أن فكره حين التقطت له هذه الصورة كان شارداً في عالم

الأحلام، وأن ابتسامته فيها يشوبها حزن يحاول أن يكبته، فشرد فكرها هي الأخرى، وراحت تحلم والصورة في يدها، وعيناها مستقرتان على عيني الارشيدوق!

أنه الآن في الثامنة والعشرين من عمره، وقد توافرت فيه جميع الصفات التي تحبها المرأة في الرجل. وعلى الأخص القوة المرونة والرشاقة!. ثم هو مولع بالفروسية والصيد والسباحة والتجديف والانزلاق على الجليد. غير أن قوة عضلاته، وزيه، وحياته العسكرية، لا يبدو أنها حالت دون عنايته بالمطالعة والدرس والتأمل.

وأكثر من هذا، أنه عرف بين أفراد الحاشية الإمبراطورية بأنه شديد الميل إلى التحرر من قيود الرسميات، تلك القيود التي تضع الارستقراطية بها حدا لتصرفات أفرادها. كما أنه يحترم الشعب ويحب أن ينال الناس أكبر نصيب من الحرية. ولهذا يحظى بمحبة الشعب واحترامه معا!

وقالت ماري تحدث نفسها: "يا له من شاب خفيف الروح". ثم قامت فجأة، وسارعت إلى حيث كانت أمها جالسة، وانهالت عليها عناقاً وتقبيلاً، ثم أخذت تحاول حملها على أن تشاركها رقصة فالس قصيرة، وقالت لها أخيراً:

– أماه العزيزة!.. ألا تريدين أن نخرج معا قبل الغداء لاستنشاق الهواء في البراتر (مدينة الملاهي)..؟

وترددت البارونة الأم قبل أن تجيب عن سؤال ابنتها المرحة الطروب، وأخذت تتأمل فراء معطفها الذي تقادم عهده فاغبر لونه وتساقط وبره. وهمت بانتحال المعاذير لأرجاء تنزههما حتى المساء كما تعودت منذ سنين. على أن ماري لم تمهلها وتعلقت بها معاودة عناقها وتقبيلها، ولم تمض دقائق

حتى كانتا في طريقهما إلى مدينة الملاهي تحقيقاً لرغبة الابنة العزيزة الجميلة!

كانت ماري تضع على رأسها قبعة محدودبة، تزينها باقة من الورد، وكان المارة لا يكادون يلمحونها حتى تلصق بها أبصارهم وتتهلل وجوههم ثم يتهامسون فيما بينهم قائلين: "يا لهما من ابنة كالوردة، وأم كالشوك!"

ووصلتا أخيراً إلى مدينة الملاهي، وكانت عامرة بروادها الممتازين، بعضهم في عربات جميلة فخمة تجرها الخيول المطهمة، وبعضهم يمشون فرادي وأزواجاً وجماعات، يستمتعون بشمس الربيع الدافئة وهوائه الطلق العليل.

ولم يكن هناك أثر للأزياء النسوية الساذجة القديمة، التي تقوم على تضخيم الأرداف بحشية خاصة توضع لذلك داخل الثياب، فقد دالت دولة هذه الأزياء بعد أن انتشرت في أوربا زمناً غير قصير، واستبدلت بها الأزياء الباريسية المنسوبة إلى لويس الخامس عشر، وقد حرصت حسان العاصمة النمساوية على اقتباس أحدث هذه الأزياء المبتكرة، فظهرن في فساتين صنع نصفها الأدنى من أقمشة خاصة، يسمع لها حين يمشين بها حفيف لطيف يضفي على خطاهن الرشيقة سحراً يملك الأسماع والأبصار والقلوب، ووضعن على رؤوسهن قبعات كالمظلات، اتخذنها على هيئة أكاليل الزهور أو عناقيد الكروم، وأكثرها مصنوعة من حرير رقيق متعدد الألوان أو من المخمل (القطيفة) يبدو بعضها في لون الورد وبعضها في لون الأزهار أو خضرة المروج الفسيحة التي خرجن إليها متنزهات!

وبينما كانت الأم والابنة تسيران جنباً إلى جنب، وهما تتأملان هذه المناظر التي عرفت بها الطبقات الراقية في فيينا، مدينة الجمال والخيال والحب والموسيقى، إذ بشاب وسيم الطلعة يظهر فجأة أمامهما، ثم يقف

جانباً ويحني رأسه إلى أقصى حد ممكن تحية لهما واحتراماً، بينما ارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة محبوبة ملؤها الرقة والوداعة!

ووقفت ماري تتطلع إلى الشاب كالذاهلة وهي تعض على شفتيها، وتضع يدها على صدرها كأنها تشكو ضيق التنفس:

وسألتها أمها في عجب: "ماذا بك يا عزيزتي؟"

فأجابتها ماري كالحالمة وعيناها متعلقتان بذلك الشاب الوسيم الذي مضى في سبيله بعد أن حياهما تلك التحية الحارة:

– ألم تعرفيه يا أماه؟.. أنه هو نفسه!.. لقد طالما سمعت أنه يرتاض هنا في الصباح بين حين وآخر.. عجبا!.. ألم تتذكري بعد؟!.. أنه الارشيدوق رودلف ولي العهد ووارث عرش الإمبراطورية العظيم!

أول الغيث

يوم الاثنين ١٨ من يونيه.

في قصر الارشيدوق تشارلس لويس.

لبت البارونة الصغيرة ماري فتسيرا دعوة الارشيدوق تشارلس لويس إلى حفلة أقامها بقصره في العاصمة. وكان طبيعياً أن تكون في مقدمة المدعوات إلى الحفلة من الغيد الحسان ربات الفتنة والذكاء، ليبعثن فيها روح البهجة والسرور، ويملأن جوها بالسعادة والنور!

والواقع أن هذه الدعوة بث في نفس ماري نشوة هزت أعطافها غبطة وسعادة، فقد كانت –منذ سمح لها بالظهور في الحفلات والمجتمعات العامة– تلقى من كل من يراها إعجاباً ما بعده إعجاب!. وكانت بطاقات الدعوة إلى الحفلات والولائم –على اختلاف أنواعها– تنهال عليها يوماً بعد يوم، حتى احتلت كل مكان في حجرتها، وتكدست في كل موضع بالقصر.

ولم يبق في فيينا مجتمع راق لم تدع إليه، حتى الصالونات الارستقراطية المتطرفة التي لا يقبل فيها إلا طبقة معينة من أخص الخاصة كأعضاء الأسرة المالكة ومن إليهم.. وهذا عرفتها الصالونات في قصور: هرنجاسي، والمنوريتنبلاتز، ولوبكرنيز، وما إليها في مختلف المناسبات. وبفضل ذلك صارت صديقة حميمة للشاب الثري الوسيم فرنسوا فرديناند نجل الارشيدوق تشارلس لويس، كما صارت صديقة للأمير ميشيل دي براجنس، والأمير فيليب دي كوبورج، والارشيدوق جان دي توسكاني، والكونت أبوني، والبارون هرنبرج!

وقد اشتهر هذا الأخير في مجتمعات فيينا الراقية بأنه يغشى الحفلات في ملابس النساء وزينتهن ويصطنع مثل حركاتهن وإشاراتهن وأصواتهن، فكان الجميع يتلقونه بالحفاوة والترحيب، لما يدخله على نفوسهم من ألوان التسلية والترفيه. بل كان لا يظهر في قصر أو مجتمع أو وليمة أو حفلة راقصة، حتى يستقبله الحاضرون بالتصفيق الشديد والضحكات العالية إعجاباً بحركاته وإشاراته وزيه الشاذ الغريب!

كان البارون هرنبرج هذا أمرد، لا أثر للشعر في وجهه، فإذا دعى إلى حفلة ذهب إليها مرتدياً أحدث الأزياء النسوية متحلياً بالعقود والأساور والخواتم والأقراط وغيرها من الجواهر والحلي التي تتحلى بها النساء، ولم يكن يفوته أن يضع على رأسه شعراً نسوياً مستعاراً تتدلى خصلات منه على صدر الفستان المبتكر الأنيق الذي يرتديه. وكان يتفنن في إبراز صدره ناهداً كصدر فتاة في العشرين من عمرها، وفي تضخيم ردفيه بالوسائل الصناعية المختلفة، ثم يتعطر ويزين وجهه بالأصباغ والمساحيق. وهناك في الحفلة يرد تحيات استقباله الحارة بتوزيع الابتسامات والنظرات والغمزات، ثم يأخذ طريقه إلى مجلسه في دلال واختيال، فإذا استقر في مقعده أخذ يحرك المروحة التي في يده مقلداً حركات النساء من مختلف الأعمار، ووضع قفازه في الكأس الموضوعة أمامه على المائدة حتى لا يملؤها ساقي النبيذ، ويردف ذلك معتذراً بأن بشرته الناعمة شديدة الحساسية بحيث يضرها أن يتناول أي نوع من الشراب!

وكان هذا بعينه ما أتبعه حين لبى الدعوة إلى حفلة الارشيدوق تشارلس لويس.

أما البارونة الصغيرة الفاتنة، ماري فتسيرا، فكانت في حراسة الشاب

الوسيم ابن صاحب القصر، ومع أنه كان يتبعها كظلها، مدللاً متملقاً، ولا تكاد عيناه تفارقانها، استطاعت أن ترد بنظراتها وابتساماتها وإشاراتها تحيات جميع الحاضرين الذين تسابقوا كعادتهم إلى إظهار ما يكنونه لها من إعجاب شديد!

وانتهز الأمير دي براجنس كل فرصة سنحت له للتزلف إليها والاسترسال في مكاشفتها بما يعتمل في صدره من لواعج الهيام بها والرغبة الملحة في طلب يدها، فكانت تتجاهل وتتلطف في التخلص من إلحاحه، حتى لا تشجعه على أن يكون أكثر من صديق!

وهناك أيضاً كان ابن عمها الصغير "بلتانزي" الشرقي الأصل والملامح والعينين، وكان الحاضرون يتقبلونه على أنه شر لابد منه، ولأنها لا تستغني عنه إذ تستخدمه في قضاء ما يعن لها من حاجات!

يوم الثلاثاء ٢٦ من يونيه.

أحلام فتاة.

لم تعد البارونة الصغيرة فتاة غرة تجهل فن الإغراء والإغواء وصيد القلوب!

لقد مضى على وفاة أبيها عام واحد، ولكن هذا لم يحل دون ذهابها ووالدتها إلى بلدة الإسكندرية النمساوية للاستجمام وتبديل الهواء!. وفي خلال الفترة التي مضتاها هناك، اجتذبت ماري بفتنتها الآسرة الساحرة قلب ضابط إنجليزي في مقتبل الشباب، فوقع في غرامها وأولع بها إلى أقصى حدود الولع، وسرعان ما أعرب لها عن رغبته في الزواج منها، ولكن رغبته هذه سرعان ما خفت حدتها حينما علم أن والدها لم يترك لها ثروة تستحق الذكر!

وتكررت بعد ذلك في حياتها قصص الحب والرغبة في الزواج ثم العدول عنه، على أن البارونة الصغيرة الحسناء كانت في شغل عن هذا كله بالتفكير في الأمير الشاب ولي العهد. ولم يكن تفكيرها يتجه إلى غاية معينة، لكنها اندفعت فيه متأثرة بأحلام صباها القديمة، وبما ألهب قلبها وأعصابها من حمى الغرام! وهكذا صارت تفكر في رودلف حيثما حلت، وفي جميع الظروف والأحوال، في ذهابها وإيابها، وفي جلوسها إلى المائدة، وحين تطل من نافذة غرفتها، بل حتى وهي في سرير نومها!

ولم تخف حالها على أختها الكبرى "هاني". وكثيراً ما رأتها واقفة خلف نافذة غرفتها تتطلع إلى الفيوم من وراء الستار، فكانت تبتسم ساخرة منها، وأحياناً تأبى ألا أن تعكر عليها صفو تفكيرها وسعادتها فتخاطبها متهكمة قائلة:

– ثم ماذا بعد ذلك يا ماري؟.. ألا تزالين مشغولة بمناجاة القمر والنجوم، وتحلمين بذلك الشاب الوسيم؟.. أنك توشكين أن تفقدي النزر اليسير الذي بقى لديك من مثلك العليا!

وكان هذا التهكم يحز في نفس الفتاة الحالمة، لكنها كانت تكتفي بالتحديق في وجه أختها الكبرى مستنكرة مستهترة، وتلوذ بالصمت بتصرفاتها، فلا يسع هذه ألا أن تواصل سخريتها منها واستهزاءها بتصرفاتها قائلة لها:

– يا لك من عاشقة طموح!. ألم تجدي من يستحق حبك غير ولي العهد ووارث العرش؟!.. أنني أكاد أموت ضحكاً من هذه الكوميديا!. أم تظنين أن حالك هذه تخفي علي؟. أن شعورك المكبوت يخترق عيني الناظر إليك وكأنه حزمة من الشوك!. ومن العجب أنك لا تفهمين للسخرية معنى،

وإنما كل ما يهمك أن تعرفي كل شيء عنه!.. تريدين أن تعرفي كل ما يصنع: ماذا يأكل، وماذا يشرب، وعلى أي جنبيه ينام؟!.. أليس كذلك يا بنيتي الولهانة؟

وهنا تحتد ماري غاضبة وتخاطب أختها الكبرى قائلة لها في عنف: "كفى!". وإزاء هذا الغضب سرعان ما تنسحب هاني وتتركها لما هي فيه من أفكار وأحلام!

لم تكن هاني على شيء من الجمال، بل كانت لا تناسب ولا تناسق بين أعضائها، خشنة الطبع، حادة المزاج، سليطة اللسان. يحلو لها كلما سخرت من أختها ماري ومن تفكيرها في الحب أن تحمل حملة شعواء على جميع الرجال، لأن واحداً منهم لم يفتح لها قلبه!

على أن ماري –فيما عدا تنهداتها ونظراتها– لم تكن تفشى أي شيء من أسرار الحب الذي انطوى عليه قلبها، بل كانت تلزم السكوت، ولا تحدث أحداً بتلك الوساوس والأحلام التي لم تعد تفارقها منذ عرفت الغرام والهيام!

أما الارشيدوق رودلف، فكان في هذا الوقت نفسه ماضياً في البحث عن أصل ماري وفصلها!.. كان يريد أن يعرف كل شيء عن طفولتها وحياتها وآرائها. وقد لجأ في ذلك إلى الكونتيسة دي لاريش، ابنة عمه لويس الثاني البافاري، وابنة خالته في الوقت نفسه!

وكانت هذه الكونتيسة تتحمس لآرائها إلى حد الجنون!.. فتمعن في الخيال إلى أقصى حد، وتنغمس في الاستهتار والانحلال الخلقي إلى ما لا نهاية له. وقد وقفت على مغامرات رودلف الغرامية كلها بالتفصيل، ورأت أن

تضع حداً لتنقله كالفراشة من ذراعي فارسة روسية إلى ذراعي ممثلة فرنسية باريسية.. وهكذا. فمهدت له الطريق إلى مغامرة جديدة تنسيه كل ما مضى وكل ما هو آت من الغرام بالجميلات، وذلك بأن أخذت تحدثه عن العاشقة الصغيرة الحسناء ميري فتسيرا، واستخدمت في ذلك كل ما امتازت به من الثرثرة والإغراق في الخيال. ثم أخذت في الوقت نفسه تكثر من زيارة البارونة هيلانة فتسيرا فتتلقاها هذه مسرورة مرحبة، غير عالمة بالغرض الحقيقي لهذه الزيارات!

أما البارونة الصغيرة ماري فكانت لا تكاد ترى الكونتيسة قادمة لزيارة أمها حتى تسكرها نشوة السعادة فتنهض وتقفز هنا وهناك، وتدور في حجرتها وهي ترقص الفالس، ثم تعود للترحيب بالكونتيسة فتأخذها بين ذراعيها وتشبعها لثما ومعانقة!

وأخيراً تأخذ بيدها إلى الركن الذي به خزانة الأواني الفضية والبلورية الثمينة، أو تحتضنها في قوة كأنما تخشى أن تفلت منها، ثم تقبلها مرة أخرى وتقول لها:

– تكلمي يا عزيزتي.. تكلمي يا حبيبتي.. أين هو الآن؟ وماذا يفعل؟.. أنني أريد أن أعرف كل شيء عنه!

ثم تجلس بين يديها وكلها آذان صاغية لما تحدثها به عن (رودي) المحبوب!. بينما تمضي الكونتيسة في تزويدها بمختلف البيانات والمعلومات والتعليقات، ولا تحجم في أكثر الأحيان عن استغلال ما امتازت به من سعة الخيال وبراعة الاحتيال لإشباع رغبة العاشقة الصغيرة في استطلاع أنباء معشوقها العظيم!

وقالت لها ماري يوما: "قولي لي يا عزيزتي، حدثيني عن الارشيدوقة زوجته: هل تحبه، وهل يحبها؟"

فأجابتها الكونتيسة على الفور: "لا شيء من ذلك يا حبيبتي!.. أنها تضطهده على الدوام، ولا يمضي يوم دون أن تكدر صفوه بتمثيل دور الغيرة عليه ومحاسبته على حركاته وسكناته!".

وصاحت ماري غاضبة محنقة: "آه من تلك القاسية الخسيسة!". فواصلت الكونتيسة كلامها قائلة لها:

– هدئي من روعك يا عزيزتي!.. أن ابن عمي يكيل لها الصاع صاعين وزيادة!.. وقلما تعرضت زوجة لمثل ما تتعرض له من التحقير والاستهزاء!.. ومع ذلك، ما أراها إلا مستحقة ذلك وأكثر منه!.. هذا إلى أن الإمبراطورة خالتي تمقتها كل المقت وطالما عارضت زواج رودلف منها، ولولا إلحاح عمي الإمبراطور –لأسباب سياسية– ما تم ذلك الزواج!.. ولن أنسى ما سمعته بأذني يوماً حينما عاد رودلف وهي معه من سفر، فإذا بالإمبراطورة خالتي الطيبة القلب تقول في صوت مسموع: (ها قد عاد رودي مع ناقته!). فهل رأيت إلى أي حد تعيش زوجته منبوذة مكروهة من الجميع؟

ولم تكد ماري تسمع هذه العبارات حتى استغرقت في الضحك، وارتمت على عنق الكونتيسة، رسول السلام التي جاءتها بهذه الأنباء السارة العظيمة الجديدة.

وفيما هي سكري بنشوة هذه الفرحة الغامرة، وقعت عيناها على صورة العذراء في إطارها الأبيض الجميل فوق سريرها حيث كانت تقف مستمعة لحديث الضيفة العزيزة المحبوبة، فركعت وأخذت تناحي العذراء في خشوع قائلة:

– آه يا سيدتي مريم!.. أنني أقدم لك كل خضوعي وتقديسي وشكري!

وضحكت الكونتيسة دي لاريش ملء شدقيها، مغتبطة بالأثر الذي تركه حديثها في نفس الفتاة الحالمة، وقد سرها بجانب التسلية العظيمة التي وجدتها في ذلك أن الفتاة التي تعانقها وتقبلها جميلة ساحرة، تلتهب حيوية وحماسة، وتسمو خيالاً، وتذوب رقة!

ثم اقتربت ماري من الكونتيسة وقالت لها متوسلة بصوت كله حنان:

– أريد منك يا عزيزتي أن تؤدي لي خدمة عظيمة الشأن.

فسألتها الكونتيسة متظاهرة بالدهشة: "ما هذه الخدمة يا عزيزتي، أني ليسعدني حقا أن أراك سعيدة راضية ناعمة القلب والبال!".

فقالت ماري متشجعة: "أريد منك أن تبلغي الارشيدوق أن هناك فتاة لا يعرفها إلا قليلاً، لكنها لا تفكر إلا فيه!.. ولا تحجم عن أ تضحي بحياتها في سبيل سعادته، لأنها لا تهتف إلا باسمه ولا تحلم إلا به!".

وهنا سألتها الكونتيسة وهي تتظاهر بالسذاجة: "أتقصدين الارشيدوق تشارلس لويس؟".

فضربت ماري كفا بكف وقالت لها: "كلا!.. كلا!.. ماذا تقولين يا حبيبتي، أنك حقا لداهية منقطعة النظائر والأشباه!.. أنه ارشيدوق واحد لا غير!.. ولا يمكن أن يكون غيره هو المقصود.. وأنت تعرفين حق المعرفة أنه الارشيدوق رودلف ولي العهد الإمبراطوري المحبوب.. وستبلغين إليه هذه الرسالة الصغيرة.. أليس كذلك يا قرة عيني وحبة قلبي؟".

وانفرجت شفتا الكونتيسة عن ابتسامة تنم عن فرحتها بنجاح خطتها، ثم

قالت:

– أجل يا حبيبتي سأبلغه هذه الرسالة اللطيفة، لك على ذلك!

ولم تشأ الكونتيسة أن تخبر ماري أن الارشيدوق أبلغ رسالتها هذه قبل أن تفكر فيها، ولا أنه يبادل الفتاة حباً بحب وإعجاباً بإعجاب، وقد صار دائم التفكير فيها مثلما أنها دائمة التفكير فيه، لأنه فتن بسحر جمالها إلى حد الجنون، بعد أن وجد فيها كل ما كان ينشده من رشاقة القد ووسامة الوجه ونضارة الشباب وعذوبة الحديث وخفة الروح، وكل ما ينسيه سيئات حياته الزوجية ويبدلها حسنات!

وهكذا استطاعت الكونتيسة لاريش أن تشعل النار في موقدين في آن واحد، وذلك بكل لطف ورقة وكياسة ونعومة!.. على أنها مع هذا كله أبت إلا أن تظهر أمام ماري بمظهر أستاذ كبير من علماء الأخلاق والتربية فقالت لها:

– خبريني أولاً يا صديقتي العزيزة: ما هذا الكدر الذي ألمح أماراته في وجهك؟

وأجابت ماري قائلة في بساطتها المعهودة: "ذلك لأن مسلكي خليق باللؤم!". ثم طوقت الكونتيسة بذراعيها مدللة إياها وتمتمت قائلة:

– أقسمي لي يا عزيزتي أنك لن تفضي إلى أمي بأي شيء عن هذا الأمر!..

فأمسكت الكونتيسة بيديها ذراعي الفتاة متخلصة من عناقها الشديد، ثم نظرت إليها ملياً وقالت لها:

– ينبغي يا عزيزتي الصغيرة ألا تثقي قط بنوايا الرجال. أنهم جميعا بلا

استثناء ليسوا أكثر من ذئاب ضارية، يلذ لها دائماً أن تفترس الحملان الوادعة الصغيرة. وإذا أردت أن أنصح لك، فاعلمي أن رودلف ليس البطل الذي تتخيلين، أعني أنه ليس ذلك الفارس ذا الدروع والأسلحة الفضية كما تصوره لك الأحلام والأوهام، وإنما هو في الحقيقة شاب مدلل يستسلم لهوى النفس، شأن الكثيرين من أمثاله المدللين!.. ثم أنه...

ولم تدعها ماري تتم حديثها، بل اقتربت منها وألصقت خدها بخدها وقالت لها:

- كلا!.. كلا!.. لست أستطيع أن أصدق حرفاً واحداً من هذا يا عزيزتي الكونتيسة!

ثم أخرجت ماري من ثيابها رسالة مطوية صغيرة وردية اللون نشرتها تحت عيني الكونتيسة وقالت لها: "هذه رسالة إليه!.. ليس فيها ما يدل على شيء، فلم أكتب فيها إلا أنني أفكر فيه، وأن الفتاة التي تحظى بقربه لابد أن تكون أسعد الفتيات، ولهذا أرجو أن تتاح لي مشاهدته في غير حفلة عسكرية أو رسمية تقيدها قواعد البروتوكول!".

فسألتها الكونتيسة مبتسمة: "أهذا كل ما في الرسالة؟". وإذ أومأت ماري موافقة، مضت الكونتيسة في حديثها فقالت: "إذن.. ثقي يا صغيرتي العزيزة بأنني سأبلغ رسالتك في أقرب فرصة ملائمة!".

فطوقت ماري عنقها بذراعيها وقبلتها قائلة: "شكرا لك يا عزيزتي!.. شكراً كثيراً جداً!".

ونهضت الكونتيسة أخيراً، استعداداً للانصراف، وكأنما شبعت لهواً وتسلية، ثم قالت لها ملاطفة: "أنك يا ماري لتبالغين في تدليلك إياي!.. ولقد

كدت أختنق بهذا العناق العنيف!".

يوم الأربعاء ١١ من يوليه.

في حجرة البارونة الصغيرة.

القصر هادئ لا تسمع فيه حركة، فأخوها الصغير "فرانز" لم يعد من مدرسة الليسيه بعد، وأختها هاني خرجت لقضاء بعض المهام، والبارونة أمها تقوم ببعض الزيارات، فليس في القصر أي أحد غيرها على الإطلاق!

يا لهذا الحر الشديد!. أن شهر يوليه هذا تختنق فيه الأنفاس وتتلظى الأبدان. فلا عجب أن استرخت ماري طلباً للراحة وأطلقت شعرها الحريري الغزير فتدفق على كتفيها وعلى قميص النوم الخفيف الذي شف عن مفاتن جسمها البض الغض المليء بحيوية الشباب!

وبقيت حينا وهي تتطلع إلى المرآة القائمة قبالة سريرها، وقد انعكست على صفحتها المجلوة صورة جسمها الممدد، كأنها صورة في لوحة رسام فنان، عرف كيف يعبر عن الفتنة المكتملة في نهديها الناضجين الممتلئين، وفي شعرها المسترسل المنساب على صدرها وظهرها وكتفيها وساقيها الرشيقتين، وخصرها الواهن الواهي بحمله الثقيل!

ولم يغمض لها جفن، وأعياها التفكير المضطرب، فنهضت لتنفذ آخر ما اهتدت إليه.. لتكتب رسالة إلى رودي العزيز الحبيب!

ومضت ساعة وهي تكتب تارة، ثم تفكر وتعض على شفتيها تارة أخرى، باحثة عن العبارات الملائمة لما يدور في خاطرها. وكانت تحنى رأسها كلما استرسلت في الكتابة، ثم تعتدل حين تقرأ ما كتبت!.. وأخيراً مدت يدها إلى خزانة صغيرة للملابس بجانب سريرها وأخرجت منها علبة مزخرفة برسوم عربية

دقيقة الصنع، وفتحتها ثم أخذت منها مجموعة من الرسائل الثمينة الخاصة المحفوظة فيها، ومضت تتصفحها في إناه وإعجاب.

هذه هي رسالة الارشيدوق التي تلقتها رداً على رسالتها الوردية اللون التي حدثته أخيراً عنها!. أن سموه بارع كل البراعة في انتقاء العبارات السلسلة والأساليب الرشيقة العذبة التي تترجم عما يشعر به من دقة ما بعدها دقة، وتنطوي في الوقت نفسه على ما يشبه السحر القوي التأثير، حتى لتبدو عبارته النثرية الرقيقة المركزة وكأنها لمحات علوية لشاعر عبقري موهوب!

لقد نجحت "اجنس" الوفية الأمينة في التوسط بينها وبين الارشيدوق، واستطاعت –بمعانة الكونتيسة دي لاريش– الاتفاق مع وصيفة عجوز بالقصر الإمبراطوري على أن تمهد السبيل لتسليم رسائله إليه ورسائلها إليه!

وعادت ماري بعد قليل لمراجعة الرسالة التي كتبتها إليه، فأضافت إليها سطراً قالت فيه:

– والآن، سأكون أكثر شجاعة، وسأخاطر لأجيء بنفسي إلى القصر الإمبراطوري، في أول فرصة ملائمة!

يوم الأربعاء ١٨ من يوليه

مع الارشيدوق في القصر الإمبراطوري.

توجهت ماري إلى القصر الإمبراطوري لزيارة الارشيدوق والتسامر معه حسبما وعدته في رسالتها الأخيرة. وكانت قد حصلت على جواز يسمح لها بالمرور داخل القصر.

وفي طريقها إلى مقر الارشيدوق كانت أشبه بطفلة في طريقها إلى شراء

دمية طالما وعدتها أمها بها. وقد راعها منظر حرس القصر بملابسهم الرسمية الفخمة. وامتلأت زهواً وسروراً باستقبالهم العسكري لها طبقا لتعليمات الارشيدوق.

ومضت في ممرات القصر وردهاته الفسيحة الرائعة، يتقدمها أحد الأمناء، حتى إذا انتهيا إلى أدنى السلم المؤدي إلى جناح الارشيدوق الخاص، وقف الأمين القائم بمهمة الدليل وانحنى لها في إجلال، تاركاً إياها تصعد وحدها!

وتذكرت وهي تصعد درجات السلم المرمرية المكسوة بالمخمل المزركش بالذهب نصائح أمها لها، وتحذيرها إياها أن تفرط في أي شيء أو أن تمنح أحداً أي شيء!

وخيل إليها أنها ما زالت تسمع صوت أمها وهي تقول لها: "نعم يا بنيتي!. حذار ثم حذار أن تستسلمي إزاء أي وعد أو متأثرة بأي إغراء.. أن قبلة بريئة على الوجنة –من أخ أو ابن عم أو ابن خال أو صديق– قد يمكن التسامح فيها إلى حد ما، ولكن يجب أن تذكري دائماً أن الحماقة تكلف كثيراً من المتاعب، وأن الاستهتار يكلف ثمناً باهظاً. وليس في الإمكان أن تحتفظي بصداقة أي إنسان لا يكن لك في صدره كل احترام وإجلال!"

وقالت ماري لنفسها: "أن أمي لخبيرة حقا بالحياة وبالرجال!.. وأنها لحكمة عالية تلك التي طالما رددتها على مسامعي.. أن الرجل –أي رجل– لا يمكن أن يبقى محباً مخلصاً إلا للمرأة التي تتمتع وتأبى كل الإباء أن ينال منها ما يشاء!"

على أن علاقتها بالارشيدوق كانت قد بلغت قبل ذلك حداً أصبحت فيه

المغزلة بينهما شيئاً عادياً، وقد أرخى الارشيدوق لعواطفه العنان إزاء جمالها الساحر وشبابها الناضر الفائر وبساطتها المحببة الجذابة.. وبرغم هذا وذاك استطاعت العاشقة الصغيرة أن تحافظ على نفسها فلم تفرط في شيء مما حرصت على ألا تفرط فيه، ولم يبد منها في الوقت نفسه ما يشتم منه رائحة التحفظ أو الميل إلى الدفاع!

وأخيراً وصلت ماري إلى غرفة الارشيدوق، وجلست بجانبه تسامره وتصغى في سرور إلى ما يحدثها به عن أسفاره ومغامراته وهواياته. وكانت لديه مجموعة كبيرة من مختلف أنواع الطير، جلبها من جميع أركان الكرة الأرضية، فأخذ يحدثها عن خواص العصافير الغريبة التي عنده مثل: الفلموت "الطائر الاكتع" والقمرية والعقاب وغيرها من الصوادح والبواغم وعصافير الزينة المختلفة الأحجام والألوان والأنواع!

أن الارشيدوق محدث لبق ظريف ما في ذلك شك، وأنها لخليقة أن تشتد غبطتها لأنه –وهو ولي العهد ووارث العرش ونائب أمير البحر والقائد الذي يدين له بالطاعة والخضوع ألوف الضباط وإمبراطور المستقبل لأربعين مليون نسمة– صار يختصها بعطف وإعجاب لا مزيد عليهما، ويضحي جانباً غير قليل من وقته الثمين ليسامرها ويحاول أن يرضيها هي الفتاة البسيطة!

وإذا كانت ماري قد ترددت طويلاً قبل إقدامها على زيارة الارشيدوق ولي العهد في القصر الإمبراطوري، فلاشك في أنها بعد أن بلغت غايتها المنشودة ووجدت نفسها معه هناك صارت تشعر بشيء غير قليل من الخوف والحياء، وزايلها كثير من ثبات جأشها وطلاقة لسانها فلم تعد تدري ماذا تقول:

وحانت منها نظرة إلى لوحة فنية كبيرة محفورة على أحد جدران الغرفة،

وكانت تمثل بناية مربعة يتوسطها فناء كبير تبدو فيه بعض الجياد الأصيلة وبجانبها بعض السياس، فأشارت بيدها إلى هذه اللوحة وقالت للارشيدوق:

– ما أجمل هذه الجياد!

وتملكها الفرح بأن حلت عقدة لسانها أخيراً فنطقت بهذه العبارة القصيرة، راجية أن تكون فاتحة لحديث تستطيع المشاركة فيه!

وابتسم لها الارشيدوق رودلف وسألها في تلطف بالغ: "أأنت تحبين الجياد يا آنسة؟"

فقالت: "أجل! أحب الجياد كثيراً وقد علمني أعمامي كيف أحسن ركوبها إلى حد ما، وهم يعيرونني بعضها لهذا الغرض أحياناً!"

فقال لها: "أنا أيضاً يسرني كثيراً أن أقدم لك ما أستطيع من معاونة للتدريب على الفروسية.. هذا إذا سرك أن أكون مدرباً لك!. وأن اصطبلات القصر هنا بها ٣٨٣ جواداً، كلها من الجياد المنتقاة، ولاشك في أن بينها ما يستحق الإعجاب، فإذا شئت فهي كلها –ومعها المدرب– رهن إشارتك منذ الآن!"

وعضت ماري على شفتها السفلى، وراعها أن يتنازل الارشيدوق إلى هذا الحد في سبيل إرضائها، ثم تمتمت: "جياد القصر الإمبراطوري كلها، والارشيدوق نفسه هو المدرب؟!.. هذا شيء كثير حقا!.. هذا شرف كبير أغبط نفسي عليه!"

وأراد الارشيدوق الخبير بالنساء أن يمضي في مداعبة كبريائها الساذجة، فواصل حديثه قائلاً:

– وسيكون رهن أمرك أيضاً ١٤٤ فارساً، و٧٠ سائساً، و٥٨ وصيفاً، و٥٧ خادماً، و١٥ مروضاً. أعني جميع موظفي اصطبلات القصر!

وما كادت تسمع ذلك حتى ضربت كفا بكف، وقالت لي وقد سرت في بدنها هزة من الفرح الصبياني الساذج: "هذا مدهش!.. ترى أين هي الاصطبلات؟.. هل زيارتها في الأمكان؟"

فاقترب منه الارشيدوق وقال لها: "أنها هنا أمام القصر في الجانب الآخر من الميدان، وما زالت فيها عربة الإمبراطورة "ماريا تريزا". وتستطيع ركوبها والجلوس فيها كما كانت تجلس تماماً!"

وكادت ماري تنفجر من فرط فرحتها، ولمعت عيناها وأشتد لمعانهما، كما أشتد احمرار وجهها وعنقها، وسما منظرها هذا بالارشيدوق العاشق إلى أوج المرح والابتهاج، فاسترسل في حديثه قائلاً:

– هناك أيضاً سترين السروج المذهبة المكسوة بالمخمل الأحمر، وسترين اللجم البديعة التي يزينها النسر النمساوي، والعربات المصنوعة من أغلى المعادن، والأدوات والمعدات الدقيقة التي تكلل رؤوس الجياد.. وهذا عدا الحلل المزركشة المعدة للسياس من المخمل الأسود الموشى بأسلاك الذهب الخالص.. وسترين كذلك.. لكنني لا أريد أن أطيل عليك الحديث فإني أخشى أن..

فقالت له: "بل زدني حديثاً!". فابتسم مغتبطاً وقال: "إذن.. لا بأس!.. هناك أيضاً العربات التي تجرها ثمانية جياد بيضاء وهي المخصصة لركوب الإمبراطور. وعلى مقربة منها العربات التي تجرها ستة جياد وهي المخصصة لولي العهد. وعلى مقربة من هذه وتلك سترين..".

ثم سكت متطلعاً إليها في تردد، فقالت له: "ماذا؟.. ما الذي سأراه هناك أيضاً؟.. أرجو أن تستمر في الحديث!".

فأمسك يديها، وأخذ يدللها مغازلاً متلطفاً وقد أطمأن إلى إصغائها إليه، ثم قال لها:

– هناك أيضاً المركبات الجنائزية المختلفة!.. وإحداها مصنوعة من الأبنوس المذهب والمفضض، ومخصصة للإمبراطور والإمبراطورة. وهي تحفة فنية فريدة في بابها وقلما تجود بمثلها أيدي الفنانين والصناع.. أنها جوهرة هائلة تجرها جياد سوداء!

وكان يبتسم وهو يقول لها ذلك فتلمع أسنانه البيضاء تحت شاربه الذهبي كما يلمع في عينيه الزرقاوين النفاذتين بريق يسترعى الأنظار. ثم واصل كلامه فقال:

– أما أنا –أعني ولي العهد السيئ الحظ– فلا حق لي إلا في عربة من نوع خاص من الخشب الكابلي!. وصحيح أن لونها ليس اللون الأسود لأن التقاليد تقضي بأن يكون لونها أحمر. وعلى أية حال ليس لي إلا أن استسلم لهذه التقاليد!

فأخذت ماري تداعب أصابع يديه القويتين بأصابع يديها الدقيقة الرشيقة، بينما جسمها ملتصق بجسمه، ثم قالت له وعيناها تفضيان رقة وعذوبة:

– لا تتكلم هكذا!.. فلنغير مجرى الحديث!

وقال هو لنفسه: "ما أجملها!. هذه البارونة الصغيرة ماري فتسيرا!"

وهكذا كان يحلو للارشيدوق وردلف مثل هذا السمر الممتع مع فتاته المرحة الحسناء. وكان يسره أن يمثل هذا الدور أمامها كلما ضمتهما خلوة كهذه، ليستريح بعض الوقت من عناء الأعباء الثقيلة الملقاة على عاتقه.

وأخيراً لم يسعه ألا أن يهنئ ماري على ما في صوتها من عذوبة وحلاوة وقال لها:

– لكم أحب أن أسمعك تغنين يا ماري؟

فترددت قليلا، ثم ابتسمت وانطلقت تنشده بعض الألحان. واستمع هو لإنشادها منصتاً وهو يهتز طرباً وحبوراً، حتى إذا فرغت من أداء اللحن قال لها:

– ما أعظم مواهبك!.. يا لك من موسيقية!. ويا له من صوت محكم الأوتار، صافي النغمات، عذب رخيم!

ثم أطرق مفكراً إذ خطرت بباله زوجته الارشيدوقة استيفاني، وأخذ يقارن بينها وبين هذه الفتاة ذات المواهب النادرة الباهرة.

أن الارشيدوقة استيفاني، تلك الأميرة البلجيكية، كانت حين تزوجها أخف قليلا مما هي الآن!.. وكانت تحسن العزف على البيانو إلى حد ما، كما كانت تهوى الرسم بالألوان المائية. وقد صحبته في رحلاته إلى الشرق. وكانت تدون في مفكرتها اليومية مذكرات لكتاب اعتزمت تأليفه.. لكنها شد ما تغيرت بعد ذلك، فأخذت روحها تتكتل وتسمن كما تكتل جسمها وسمن!.. أما هذه الفتاة الرائعة، البارونة الصغيرة ماري فتسيرا، فتزداد كل يوم روعة وفتنة وجاذبية!

وكثر تردد البارونة الصغيرة على القصر الإمبراطوري، وكان هناك بجانب

غرفة مكتب الارشيدوق رودلف، مكتب صغير خاص به غراب أليف لطيف يدعى (بروبوس). فألفها هذا الغراب وصار يتجه إليها مسرعاً كلما لمحها مقبلة كأنما افتتن هو الآخر برشاقتها وفتنتها!

وكانت أمها البارونة هيلانة تصحبها إلى القصر في أكثر الأحيان، فلا يجد أفراد الحاشية الإمبراطورية بدا من الحفاوة والترحيب بها إكراما لابنتها المحبوبة المدللة. على أن علاقة الارشيدوق بماري لم يخف أمرها طويلاً على زوجته الارشيدوقة استيفاني، وقد حسبت أول الأمر أن تلك العلاقة لا تزيد على العطف والإعجاب، فكانت تعض على شفتيها كلما سمعت بنبأ عطف جديد من زوجها على ماري، أو "تلك الصغيرة" كما كانت تدعوها ترفعا. واستخفافاً بشأنها!

وتاقت ماري بعد حين إلى مشاهدة قصر مايرلنج بعد أن سمعت عنه الكثير من رودلف وأصدقائه. وكان هذا القصر مشيداً في قلب الغابة، على مسافة كيلو مترين من حدودها. وقد علمت أن زيارة هذا القصر يتطلب تمضية ليلة فيه، فأوقعها ذلك في حيرة، إذ كيف يتسنى لشابة مثلها أن تخلو هناك ليلة مع ولي العهد الشاب وإمبراطور المستقبل؟

وخطر ببالها أن تعمل على أن تصحبها أمها إلى هناك، لكنها عدلت عن ذلك لأنها تحب أن تفرض أمها على رودلف، ولأن هذا لا يرضي الكونتيسة دي لاريش!

يوم الاثنين ٢٣ من يوليه.

حفلة ساهرة عند الارشيدوقة.

كان لابد للكونتيسة دي لاريش من أن تنفر من الارشيدوقة استيفاني

زوجة ولي العهد، فقد كانت الارشيدوقة ذات شخصية جافة خشنة، كما كانت أنانية، كثيراً ما تدعى ما ليس فيها. ومن ذلك أنها كانت تكتب قصائد تافهة عن حياة الطير العاطفية في أعشاشها، ثم تنتهز أول فرصة لكي تلقي هذه القصائد على من يسوقهم إلى مجلسها سوء الحظ!

وقد أقامت الارشيدوقة حفلة ساهرة في الجناح المخصص لزوجها بالقصر الإمبراطوري، فكان طبيعياً أن تنتهز هذه الفرصة لعرض بضاعتها الفئة التافهة من شعر ونثر على أسماع الحاضرين والحاضرات. وكان الشعر الذي أعدته لهذا الغرض ممتازاً بثقل الظل وانعدام التناسق، فبدت أبياته أشبه بثيران مختلفة الألوان والأحجام مربوطة بحبل واحد!

وأخذ السامعون والسامعات في التهامس بآرائهم في هذا الشعر المفكك العقيم الذي يجري على وتيرة واحدة ولا يثير أي عاطفة، ولا يسمو بخيال. وهنا وصلت الكونتيسة دي لاريش إلى الحفلة متأخرة بعض الوقت. ولما كانت تجهل اسم الشاعر الذي تتلى قصائده، ولم تسمع الأبيات السابقة الخاصة بغرام الطير وتزاوجها فقد تساءلت عقب جلوسها: "ما اسم ذلك البائس صاحب هذه المراثي؟!"

وخيم على المكان سكون رهيب!.. وألقت عليها الارشيدوقة نظرة حادة كأنها طعنة خنجر مسنون!. وقالت لها في غلظة وجفاء:

– إذا كان ناظم هذه الأبيات بائساً، فلا شك أن السامع الذي لا يستسيغها أشد بؤسا، بل يفتقر إلى الذكاء والفهم!

وكان لابد أن تنتشر قصة هذه الفضيحة في كل مكان!.. ولم تنس الكونتيسة دي لاريش ذلك الحادث أبدا!.. وقد أشارت إليه في مذكراتها التي

نشرتها بعد ذلك في سنة ١٩١٣ بعنوان "مرافعتي".

بيد أنها عرفت كيف تنتقم لنفسها من الارشيدوقة في تلك الحفلة نفسها، فأخذت تطري جمال البارونة الصغيرة ماري فتسيرا، وتشير إلى افتنان الارشيدوق رودلف بها معللة هذا بأنه يجد في شخصية الفتاة الجذابة اللطيفة ترفيها عما يعانيه في حياته الخاصة!

ولم تكتف الكونتيسة بذلك، بل مهدت لماري سبيل تحقيق أمنيتها، فضربت لها موعداً تلتقي فيه مع الارشيدوق في قصر مايرلنج، وصحبتها إلى هناك. وكان النساء يقضين الليل عادة في الجناح المخصص للضيوف بالقصر، بعد قضاء اليوم في الغابة بين الغناء والعزف على البيانو ومختلف ألوان السمر والاستمتاع بمباهج الحياة إلى أقصى حد ممكن!

يوم الأحد ١٠ من أغسطس.

انسجام بين قلبين.

كانت ماري فتسيرا ورودولف لا تفوتهما حفلة من الحفلات الساهرة التي يقيمها أفراد الطبقة الراقية الارستقراطية في القصور القريبة من فيينا، حيث يقيمون خلال أشهر الصيف وأوائل الخريف.

وكان رودلف يصارح أصدقاءه في تلك الحفلات بما يكنه من الحب لماري، فلا يسمع هؤلاء ألا أن يذكروا ذلك لأمهاتهم وأخواتهم ورفاقهم! وهكذا صارت ماري وأمها في مقدمة من يدعون إلى تلك الحفلات، بعد أن كانتا خاملتي الذكر بمعزل عن هذه الطبقة الغنية المترفة. وبعد أن كانت الأم على الأخص تحرص على ألا تفشي غير المجتمعات المتواضعة التي أكل الدهر عليها وشرب!

كان الارشيدوق يحب في ماري أنها جمعت في شخصيتها كل ما كان يحزنه عدم وجوده في زوجته من الحماسة والدعابة وسرعة الخاطر والمرح والنشاط. أما ماري فكانت تعجب بصفات الارشيدوق كل الإعجاب، وبخاصة مثاليته وسعة أفقه وسخاءه وكرم خلقه وحبه للتجديد!

كذلك كان يعجبها فيه أنه معارض للسياسة الدكتاتورية الغاشمة التي يتبعها الإمبراطور والده في حكم رعيته المؤلفة من شعوب متباينة وعناصر متناقضة. وأنه كان تواقا إلى تغيير هذه السياسة، وإلى أن يسود العدل والتسامح والإخاء ليتحقق الإتحاد المنشود بين الشعوب المختلفة التي تؤلف الإمبراطورية الشاسعة الإطراف!

وكثيراً ما غبطت ماري نفسها على أن الارشيدوق يوليها ثقته إلى أقصى حد، ويصرح لها بآرائه المبتكرة في السياسة الخارجية والداخلية، وبنقده الشديد لطريقة الحكم في روسيا حيث تقبض على أزمة الحكم أيد حديدية ظالمة مما ينذر بثورة شعبية مستطيرة تعصف بأولئك الحكام.

وكان الارشيدوق رودلف يرى أن الإمبراطور غليوم الثاني– إمبراطور ألمانيا– في وسعه أن يقلب أوربا رأسا على عقب، لأنه يملك جميع الوسائل التي تمكنه من بلوغ هذا الهدف، ومن بينها أنه صلب الرأس عنيد مكابر قدير على أثاره الخواطر. فضلا عن أنه يعتقد اعتقاداً لاشك فيه أنه عبقري المستقبل الذي كتب له القدر أن يتزعم البشرية بأسرها!

ثم يعقب الارشيدوق رودلف على ذلك فيقول في تهكم وسخرية: "هكذا لن تمضي سنوات قلائل حتى يلقي بألمانيا وبآل هوهنزلورن جميعا في المرتبة الجديرة بهم، بفضل عبقرية ذلك الإمبراطور!"

وكثيراً ما تأوه رودلف أمامها شاكياً ضيق صدره وتبرمه بقيود البروتوكول الذي يرجع تاريخه إلى عهد تشارلس الخامس، ثم قال لها: "ليتنا نخلع هذه النوافذ المغلقة حتى نفسح المجال للنور والهواء النقي!"

غير أن هذه الآراء السياسية التي كان رودلف يعتنقها، لم يكن أدعى إلى إعجاب ماري به من عاطفته الوطنية القوية الوثابة، وحبه الشديد لمواطنيه، ورغبته في إنقاذهم من الظلم والاستغلال وقيود الروتين الحكومي البطيء!

وكانت ماري تشاطره ضجره وشكواه من صلابة والده ورجعية آرائه وقسوة قلبه في كثير من الأحوال. كما كانت تتفق معه في غضبه من أن مستشار الدولة أكثر نفوذاً منه، ومن أن المظاهر التي خلعوها عليه بوصفه ولي العهد ووارث عرش الإمبراطور ليست أكثر من مظاهر براقة جوافة لا طائل تحتها، فالواقع أن كل سلطاته بل كل حقوقه قد انتزعت من يده!

وهكذا كانت تلك الانفعالات الثائرة التي عاناها الارشيدوق الشاب أكبر حافز له إلى البحث عن سند أدبي يركن إليه، وعن رفيق وفي يواسيه ويرفه عن نفسه.. أو– كما يقول الناس الآن– كان يطلب نفسا شقيقة في وسعها أن تفهمه!

لقد فارقه حسن الطالع منذ زواجه!.. وتلك المغامرات العديدة التي تعب في القيام بها، لم يجن من ورائها شيئاً يستحق الذكر من السعادة المنشودة!. غير أنه كان يحس في نفسه أنه قادم على مغامرة كبيرة الأهمية في حياته، كما كان في الوقت نفسه يخشى كثيرا ذلك العنصر الدساس من النساء الساعيات وراء الحياة الصاخبة المثيرة للعواطف والمغامرات الغرامية!

وكثيراً ما قادة التفكير في هذا كله إلى الرغبة في التخلص من حياته

المثقلة بالثروة وألقاب الشرف والشعور بالوحدة والحزن والانقباض!

أما ماري فتسيرا فكانت ترتاب كثيراً في أن يكون هناك من يستطيع بث الألغام والعقبات في سبيل حب الارشيدوق لها، أو زحزحتها عن مكانتها في قلبه!. وكانت تعتقد أن في استطاعتها أن تقوم بدور كبير في حياته، ولاسيما بعد أن أولاها كل ثقته!

لم تكن ماري مدفوعة نحو رودلف بالطموح، بل كانت طيبة قلبها في الواقع هي التي تدفعها نحوه وتوحي إليها بمضاعفة العطف عليه والإخلاص له. وشد ما كان يؤلمها أن تشعر بما في حياته من اضطراب، ولكن قوة خفية كانت تجذبها برغمها نحوه، وسرعان ما تجد راحة قلبها في النظر إلى عينيه الزرقاوين الصافيتين، وفي الاستماع لحديثه الذي يذوب رقة وحلاوة ويفيض بالعطف والتدليل!

يوم الخميس ٢٣ من أغسطس.

الهدية الأولى.

كان الارشيدوق رودلف يحب أن يغمر بهداياه صديقته الجميلة المفضلة البارونة ماري فتسيرا. ولكنه في الوقت نفسه كان يشفق من الأقدام على ذلك، لعلمه أن أمها البارونة هيلانة لا تنظر بعين الرضا أني أي تطور يبلغ مثل هذا الحد في علاقة ابنتها بأي إنسان!. هذا إلى أنه كان حريصاً على أن تبقى صديقته الصغيرة الحلوة بمنأى عن كل ما يثير الشكوك والأقاويل!

وبقدر ما طال تردده في تقديم هديته الأولى إليها، كان الأمر على عكس ذلك بعد قليل حينما توطدت الصداقة بينهما، فتوالت هداياه إليها من مختلف أنواع الجواهر والحلي الثمينة، حتى غدا الماس على صدرها وحول

عنقها ويديها يكاد سنا بريقه يخطف الأبصار!

وبدأت نهاية تردده ذاك حينما كان يتمشى يوما في حي (كوهلماركت) أو سوق الكرنب الذي ما زال من أشهر أحياء العاصمة النمساوية حتى الآن. ففي ذلك اليوم كان يرتدي ملابس مدنية بسيطة بدا فيها كأحد أفراد الشعب، وفيما هو يتلهى بتفقد المعروضات في واجهة متجر للجواهر هناك، أعجبه بينها حجر كريم أخضر منقوش، فدخل المتجر وسأل أول بائع لقيه فيه:

– ما نوع هذا الحجر الأخضر المعروض في واجهة المتجر؟

فأجابه البائع من غير أن يعرف شخصيته: "أنه من الزمرد يا مسيو!"

وكان لكلمة (مسيو) هذه وقع حسن في نفس الارشيدوق الشاب جعله يبتسم، بينما واصل البائع كلامه فقال: "زمرد منقوش يرجع إلى عصر ذهبي!. بل هو يرجع من غير شك إلى عصر أوغسطوس، ومن هنا كان نقشه غاية في الإبداع والروعة. وقد حفرت فيه من الداخل صورة نادرة تمثل (منيرفا) آلهة الحكمة الفتية الجميلة".

ثم أخرج البائع ذلك الحجر من موضعه في الواجهة وقربه من عيني الارشيدوق قائلا:

– انظر يا سيدي.. انظر!.. أترى إلى أي حد تبدو منيرفا رائعة مغرية جذابة؟!

ولم يسمع رودلف ألا أن يعيد النظر إلى الصورة المحفورة في حجر الزمرد، ثم لمعت على شفتيه ابتسامة لطيفة، إذ لحظ تشابها غير قليل بين هذه الصورة وبين ماري في جمالها وروعتها وحكمتها وقوة جاذبيتها وإغرائها. وسرعان ما اشترى ذلك الحجر الكريم بالخاتم الذي ركب عليه، ثم بعث به

إلى ماري، ومعه رسالة ذكر فيها مداعباً إياها أنه يرجو ألا ترى في إهدائه إليها صورة (منيرفا) ما يشعر بأنه يرى هذه الآلهة الصغيرة أكثر حكمة منها!

ولم يسمع ماري عند وصول هذه الهدية الثمينة ألا أن قبلت ذلك الخاتم الجميل، الذي صادف هوى في نفس رودلف فتخيره لإهدائه إليها!.

وبعد أيام قابلها الملازم الكونت (جوندا كاى فيرمبرانت) أحد الشبان العديدين المعجبين بها في الحاشية الإمبراطورية، فقال لها مازحا وهو يشير إلى الخاتم في يدها:

– آه يا آنسة!. لكم أود لو سجلت اسمي في وصيتك، لكي تهبي لي هذا الخاتم الجميل!

ولم توجه إليه ماري أي لوم أو عتاب على هذه الفكاهة المحزنة، بل قالت له وهي تطلق ضحكة لطيفة مليئة بمرح الشباب:

– حسنا!.. أعدك يا عزيزي بأن أفكر في هذا الأمر!

يوم الاثنين ٢٧ من أغسطس.

في غابة مايرلنج.

كانت حفلة رائعة ممتازة، أقيمت بقصر الارشيدوق في غابة مايرلنج، وكانت ماري خير ممثلة للجنس اللطيف في هذه الحفلة. وقد خصص لنزولها في القصر جناح يتألف من حجرتين، امتاز أثاثهما بأنه أكثر أناقة وأشد إمعانا في الترف والجمال!

وكان مقرراً أن تكون الكونتيسة دي لاريش في صحبة ماري، لكنها اعتذرت في آخر لحظة من تخلفها عن الحفلة باضطرارها إلى البقاء في فيينا

لتأدية مهام عاجلة عائلية لا سبيل إلى تأجيلها!. وأردفت اعتذارها إلى الارشيدوق بإبداء أشد الأسف على حرمانها من الرحلة الممتعة، وألحت في توصيته بالعناية الخاصة المضاعفة بماري لتوفير كل وسائل الراحة لها، وتجنبيها التعرض للتيارات الهوائية، ولكل ما من شأنه أن يثير الأراجيف والأقاويل، مع الحرص كل الحرص على أن تعود للعاصمة في صحبة أحد المدعوين قبل أن يسود الظلام!

وها نحن الآن في قصر مايرلنج الخلوي البديع، وقد أعد كل شيء حسبما يليق بجلال العظمة الإمبراطورية. ولكن البساطة في الوقت نفسه كانت تتجلى في أجمل معانيها هناك، تنفيذا لرغبة الارشيدوق ولي العهد الذي كان يمثل البساطة خير تمثيل!

ليس في القصر أحد من الخدم، فقد حرص الارشيدوق على أن تهيأ سلفا كل المعدات للحفلة، ليتيح لنفسه ولضيوفه الممتازين تذوق حلاوة الحرية التامة والانطلاق إلى أقصى حد في سبيل الاستمتاع بالراحة وأسباب اللهو والتسلية والترفيه!

وبدت ماري أشد الحاضرين غبطة وابتهاجا، وأخذت تلك المعاني تجول في ذهنها وهي تنظر معجبة إلى الشخص الوحيد الذي كان يشرف على خدمة المدعوين، ورجحت –من شاربه الأشقر الذهبي اللامع وقبعته المتخذة من المخمل ووبر الجمال على طريقة سكان التبرول– أنه حارس صيد الارشيدوق أو تابعه الخاص. وأنه على أية حال من المحاربين القدماء. ثم لبست حينا وهي تتابع نشاطه في الخدمة على المائدة وصيانة الآنية الذهبية والفضية والصينية الثمينة.

وكأنما فطن الارشيدوق إلى ما يجول في ذهنها فاقترب منها وقال لها:

– أنه (لوشيك) أمين خزائن القصر!

فابتسمت للارشيدوق وهتفت قائلة: "بل الأب لوشيك.. فهو حقا بالغ حد الكمال!"

وكان بين الحاضرين: الارشيدوق تشارلس لويس وابنه فرنسوا وعدد كبير من الأخصائيين الذين يدعون عادة إلى حفلات مايرلنج. وقد ساد الحفلة جو بديع من المتعة والمرح والانبساط، وأفرط الجميع في احتساء نبيذ (بسبورتر) الشهير، ونبيذ (وايدلنجن) المعروف في النمسا، فضلا عن جعة (بلسن) الخفيفة. ولم يبخل لوشيك بشيء من ألوان الشراب الأخرى التي تحفل بها أقبية القصر، وفي مقدمتها أجود النبيذ المعتق و(اللكير).

وحضر البارون هربرج هذه المرة في ملابس نبيل، بدلا من الملابس النسوية التي تعود غشيان الحفلات بها. على أنه لم يكف عن دعاباته المعتادة، فكان يقلد أصوات الدجاج، بينما أخذ (برجانس) يمزح معه ممثلا دور العاشق فيغازله تارة ويقبله تارة أخرى ثم يبصق عقب ذلك، بين الضحكات المرتفعة هنا وهناك!

أما الكونت (هويوس) فكان بطبعه لا يميل إلى هذا النوع من المزاح، وكل ما كان يصنعه إذا خطر بباله شيء، أن يفتل شاربيه المرتخيين ثم يحاول أن يجد شيئاً يقوله ولكن قريحته لا تسعفه بشيء فيكتفي بأن يتمتم بكلمة عن الخيل والصيد، وهي كل ما يحفل به رأسه الصغير الجاثم على جسمه الضخم كجسم الفيل!

وعلى نقيض ذلك كان الأمير (دي كوبورج) يفيض نشاطاً وحيوية. وهو شاب أحمر الوجه يكاد الدم يطفر من وجنتيه، وقد رزق –على صغر سنه–

بطناً كبيراً يهتز بشدة كلما ضحك. أو انطلق يقص على الحاضرين ما أشتهر به من الحكايات والفضائح في حماسة تنبئ بولوعه الشديد بهذا الضرب من خدش شرف الآخرين، وتلويث سمعتهم بالحق وبالباطل!

وكان يحرص على أن يدعم أقواله بأدلة تخيل إلى السامع إنها حقيقة لا تقبل الشك. ومثل هذا الضيف عظيم الفائدة في كثير من الأحيان، وبخاصة في الحفلات التي يسودها شيء من الركود والفتور!

وفي ركن آخر، وقف الارشيدوق تشارلس لويس، وأخذ يحدث جلبة وضوضاء وصخبا استرعت جميع الأسماع، طالبا نوعا من الشراب الثقيل يولع الجنود باحتسائه ويسمونه (ماء التفاح). وما كاد يشرب كأسا منه حتى ترنح وغلبته سورة الشراب فسقط على الأرض فاقد الشعور!

كانت مائدة الطعام قد أعدت في الهواء الطلق بحديقة القصر، وأعدت بجانبها مائدة للعب الورق، ثم مائدة ثالثة صفت عليها زجاجات الشمبانيا. وعلى بعد خمس عشرة خطوة أخذ بعض المدعوين يتبارون في رمي هذه الزجاجات بالرصاص يطلقونه عليها من مسدس خاص!

وقد افتتحت ماري هذه المباراة، فأمسكت المسدس وأحكمت التصويب، ولكنها أدارت رأسها حتى لا ترى الرصاصة المنطلقة، وهكذا أخطأت المرمى!

وأعقبها الارشيدوق رودلف، وكان مثل أبيه الإمبراطور فرنسوا جوزيف ثابت الجأش واليد والعين فأصاب الهدف من أول طلقة، وثم نجح في إصابة جميع الزجاجات الموضوعة على ارتفاع واحد، فتدفق من أفواهها زبد الشمبانيا على وتيرة واحدة. بينما أخذ الحاضرون يصيحون بهتافات الإعجاب

ويمنعون في اللهو والمجون وعربدة السكر فتردد الغابة أصداء ضجتهم وضحكاتهم العالية!

على أن رودلف لم يكن ثملا كالآخرين من أخصائه المدعوين، فقد حرص على ألا يفرط في الشراب، ووجه كل همه إلى العناية بماري ثم اقترح عليها أن يقوما بجولة في الغابة المحدقة بالقصر لكي يهضما ما تناولانه من طعام، فوافقته على الفور قائلة:

– هذه فكرة حسنة جداً!.. لقد مهدتم لنا سبيل المتعة إلى أقصى حد، فمن الحكمة أن نستنشق الهواء ونتمشى قليلاً!

ثم ابتعدا معاً متوغلين في جوف الغابة، وكان الحر شديداً فبدت الغابة كأنما أخذها النعاس، ولم يكن يسمع فيها ألا زقزقة بعض العصافير، وحفيف أوراق الأشجار كلما حركتها النسمات. وبدت الأغصان، العالية المتشابكة في جو الغابة كأنها أقواس في معبد كبير!

وكانت الحشائش والأعشاب غزيرة نامية تغوص فيها أقدام العاشقين المتفاهمين السعيدين، ثم تحرك الهواء بعد قليل فتمايلت الأغصان، وتمايل العاشقان بفعل الهواء والشراب، فطوق رودلف خصر ماري بذراعه في رفق ليسندها خلال المشي، وتعلقت هي بذراعه في غبطة وابتهاج، زاد فيهما ما يحيط بهما من مناظر كلها روعة وجمال، وما تحسسه في أعماقها من سعادة وانتشاء!

وفي خلال هذه النزهة البديعة، كان رودلف يضمها إلى صدره من حين إلى حين، وكانت قوة الضم تزداد كلما أوغلا في المشي والحديث، كأنما يخشى أن تفلت منه فرصة السعادة التي غمرته بهذه الخلوة الممتعة التي

طالما تمناها. أما هي فكانت تلقي رأسها على صدره في استسلام لا تكلف فيه، فيزداد نشوة بشذى العطر المنبعث من شعرها الطويل الجميل، ويشتد خفقان قلبه إذ تحدق في عينيه وتقول له:

– حذار يا رودي!.. لا تضمني بقوة هكذا!.. أن سترتك السميكة تؤلم صدري وتزيد في حرارة جسمي!

ثم تضحك وتردف ذلك بقولها: "لماذا تثقل على نفسك بارتداء هذه السترة الثقيلة؟.. أن الناس هنا في الغابة لا يرتدون سترات وهذا أقرب إلى الطبيعة ولاشك!"

وسرعان ما استجاب رودلف لرغبة فتاته الحبيبة، ففك أزرار سترته، ثم لم يلبث قليلا حتى فك أزرار قميصه أيضاً، وبذلك صار خدها داخل القميص المفتوح. ثم أخذت وهي في هذا الوضع تداعبه وتدلله، وقد نسيت تماما أنه ولي العهد وإمبراطور المستقبل ولم تعد تذكر إلا أنه الشاب الوسيم الذي عرف قلبها الحب منذ عرفته، فازدادت التصاقاً به، وازداد التصاقاً بها. وفي أقل من لمح البصر انحنى رودلف على وجهها والتقت شفتاهما وأبتا أن تتفرقا.

حظ حسن

يوم الجمعة ٢١ سبتمبر سنة ١٨٨٨.

درس باللغة الفرنسية.

نحن في قصر فتسيرا، حيث الردهات والممرات والحجرات فيه مزدحمة كلها بأنواع مختلفة من التحف والآنية الزخرفية حتى كاد ألا يبقى فيه موضع للسكان!

والواقع أن ازدحام القصور بأمثال هذه الأشياء كان العرف السائد قبل حرب سنة ١٨٧٠، وكان أكثر هذه الأشياء مما ليس له قيمة فنية وتوضع كيفما اتفق من غير تنسيق، فترى مثلا تماثيل من خزف لكلاب ذات أطواق من الذهب، وبجانبها كراسي صغيرة مزخرفة برسوم ونقوش دقيقة من الفضة، وصور شمسية مختلفة في إطارات تحملها تماثيل لجياد مطهمة. وهنا وهناك تماثيل من الخزف السكسوني البراق بعضها يمثل جماعات من الرعاة وبعضها يمثل أفراداً من الجنسين، كفارس يمارس الصيد، وغادة لعوب كتب على قاعدة تمثالها اسم موقع في جبال الألب!.. وهذا كله عدا خزائن من مختلف الأحجام والأشكال والألوان: أحداها على هيئة بيت في سويسرا وتستعمل لحفظ الثياب، وأخرى لحفظ الآلات الموسيقية!.. وعدا المراوح الملصقة بالجدران، والرفوف العديدة المكتظة بتحف وأشياء دقيقة لا تكاد تبين!

أما جدران القصر نفسها فكانت مغطاة بالمخمل ذي اللون العنابي، كما غطيت النوافذ والأبواب كلها بستائر كثيفة مزركشة من الديباج تتدلى من

أطرافها كرات من الحرير الملون.. وهكذا كان قصر فتسيرا حتى العصر الذي آل فيه إلى البارونة هيلانة وابنتها ماري، ما عدا قاعات الطابق الأعلى المخصصة للاستقبال فكان أثاثها وتنسيقها على أحدث طراز.

وفي هذا القصر كانت ماري تتلقى درسا في اللغة الفرنسية على يدي خادمتها أجنس. وكانت هذه من الحب والوفاء لسيدتها الصغيرة الحسناء إلى حد أنها كثيراً ما أعارتها كتبا فرنسية في الأناقة والحب والإغراء!

والآن ها هي ذي ماري تجلس للدرس في غرفتها الخاصة وفي يدها أحد تلك الكتب تطالع فيه. وقد تملكها الإعجاب بأبيات من الشعر الغرامي فأخذت تعيد تلاوتها في تعمق وابتهاج:

"هنا في هذه المروج والأحراش، التي طالما ضللت السبيل فيها.

"امتلأت يدي بالزهور العطرة العزيزة التي أهديتها إلى فتاي الحبيب.

"فتقبلها بكل ما فيه من لطف ورقة وعذوبة!".

وفجأة، كفت ماري عن المطالعة، واعتدلت في جلستها ثم صاحت بلهجة غاضبة: "ما هذا؟.. كفاك ضجة يا فرانز والتزم السكوت!"

وكان شقيقها فرانز الذي يصغرها بسنتين قد خلا إلى نفسه في الحجرة المجاورة، وأخذ يهوي بمطرقته على قطعة من المعدن ليتم صنع لعبة أوحت إليه بصنعها زجاجة كبيرة قديمة. وسرعان ما كف عن الضرب بمطرقته حين سمع ماري واكتفى بأن غمغم عبارات السخط والاستياء!

وتنهدت ماري أسفا وحسرة على اضطرارها إلى ترك مطالعة القصيدة الغرامية، ثم التفتت إلى أجنس وقالت لها: "أن فرانز– على سخافته– قد

يطاق إلى حد ما، ولكن الطامة الكبرى أن (هاني) –شقيقتها الكبرى– قد جلست إلى البيانو تعزف لحن البولونيز لشوبان!. أسامعه أنت؟.. أنها تهوي بأصابعها في عنف كأنما تدفع بيدها عربة ثقيلة محملة بالحجارة!"

وابتسمت أجنس إعجاباً بهذا التشبيه، بينما واصلت ماري كلامها فقالت: "أن هذه الضجة تدفعني إلى التفكير في الانتحار!"

فنظرت إليها أجنس مليا، ثم قالت: "انتحار؟.. كلا يا سيدتي!.. أن هذا يكون خسارة بالغة!"

فقالت ماري: "ليس هناك خسارة أبلغ من الحياة على هذا النحو!"

فبان العجب في وجه الخادمة الفرنسية الوفية وقالت لها: "في مثل سنك الصغيرة يا سيدتي، ومع ما أنت عليه من جمال، لا ينبغي أن يكون في ذهنك مجال لمثل هذا التفكير الرهيب الكئيب!"

فقالت ماري: "ولم؟.. إذا كانت الحياة هكذا.. طريقها مرصوف بالعقبات وتتراكم فيه المصاعب!. فلاشك أن الموت خير ألف مرة. على أنه ينبغي ألا يكون الطريق إليه شاقاً ولا طويلاً مملاً!. وقد تكفي لذلك لدغة من أفعى سامة، أو السقوط من مكان مرتفع، أو الغوص في أعماق النهر!. حقا أن مثل هذه الوسائل لا بأس بها ولاسيما أنها لا تسبب أي تشويه في الجسم!"

وهنا أخذت أجنس في الضحك حتى اكتفت، ثم قالت لسيدتها مداعبة: "أن سيدتي الآنسة تمزح ولاشك. ولكني أرجو ألا تنساني إذا قررت تنفيذ هذا الذي تفكر فيه!"

ثم عادت أجنس لضحكها، ولكن ماري لم تشاركها فيه والتزمت

الصمت، فتناولت أجنس الكتاب الذي كان مع سيدتها وبحثت عن الصفحة التي كانت تقرؤها حتى وجدتها ثم قالت لها:

– هيا إلى استكمال الدرس ولنقرأ معا يا سيدتي!

"آه!.. كم أحببته!. وكم وجدته جميلاً.. ذلك الفتى القوي الجذاب!

"آه يا قلبي!.. كم تخفق، وكم تتأوه وتتألم!

"أتراك قد نسيت أنك لم تعد تستطيع أن تحب؟!"

يوم الاثنين أول أكتوبر.

في حجرة رودلف بقصر مايرلنج.

كان أشد ما يؤلم رودلف ويثبط عزيمته أن الآخرين لا يفهمونه على حقيقته، برغم وضوح هذه الحقيقة كالشمس!

كان مثقفاً مهذباً، لكنه يعيش في بيئة جاهلة، وقد طاف خلال رحلاته العديدة بإنجلترا واسكتلندا وأيرلندا والدانمرك والسويد والصرب ورومانيا وإسبانيا، كما طاف بتركيا واليونان ومصر وفلسطين. وكتب مذكرات مسهبة عن رحلاته هذه كلها، أودعها الكثير من البيانات والمعلومات المختلفة من تاريخية وجغرافية وسياسية واجتماعية، كما أودعها الكثير من نتائج تأملاته الروحية. على أنه وجد نفسه في نهاية مطافه مضطراً إلى أن يعاشر رجال الحاشية الذين لم يتخطوا حدود القصر الإمبراطوري، وتجاهلوا عمداً بقية أرجاء العالم الواسع، رافضين أن يتقبلوا آراء أي بلد أجنبي، أو أن يعتنقوا أية فكرة خارجة عن نطاق النمسا، لاستمساكهم بأهداب تعاليم بالية ضيقة الأفق ظاهرة النقص والفساد!

على أنه منذ عرف ماري وجد في شخصيتها الجذابة شيئاً آخر يختلف كل الاختلاف عما وجده في الشخصيات الكبيرة التي عرفها من قبل!

وكانت ماري تشجعه على آرائه الجديدة وتشاركه التحليق في أجواء أفقه الواسع والمغامرات التي شغف بها. وتبدي إعجابها بكل مظاهر نشاطه: بمجموعاته الفنية وتحفه النادرة.. وبآرائه في السياسة والاقتصاد والاجتماع والفن. بل كانت تسبقه أحياناً إلى أمانيه وآماله فيما يتعلق بكثير من المسائل التي يعني ببحثها ودراستها!

صحيح أن ماري كانت لها متاعبها الخاصة التي تحد من استمتاعه بمعاشرتها، ولكن هذه المتاعب كانت محصورة في شقيقها الصغير الذي يتمثل فيه نكران الجميل، وشقيقتها الكبرى الحقود الخاملة الذكر التي لا أهمية لها في المجتمع، وأمها العجوز التي قد تستحق العطف والشفقة ولكنها لا تستحق الحب والاحترام!

كانت ماري تحلم بأسفار عظيمة ورحلات بعيدة ومشروعات واسعة النطاق. وكانت إلى ذلك مرحة طروبا شديدة الولع بالموسيقى والشعر، وتحب الحفلات الفاخرة والمجتمعات البهيجة في المواسم والأعياد!

وقد أعجبه فيها خاصة عزوفها بفطرتها عن المظاهر الكاذبة التي يتفاخر بها الأشراف والنبلاء في النمسا، فيما عدا سكناها الاضطرارية بذلك القصر العتيق المظلم بستائره التي علاها الغبار وأبسطته التي آكل عليها الدهر وشرب.

وأنها لمصادفة حسنة حقا تلك التي جمعت بين رودلف وماري، فهما متجانسان إلى حد بعيد: يشكوان آلاماً واحدة، ويحلمان بأمان وآمال واحدة.

فلا عجب إذا تذوق كل منهما في الآخر لذة الحب والإعجاب، ورغب كل منهما في أن يسعدا بالقرب الدائم والعيش معا بعد أن اتحدا فكراً وقلباً ولم يبق إلا أن يتحدا جسماً لتكمل نهما السعادة في الحياة من جميع الوجوه!

ولم يضطر رودلف إلى ما يلجأ إليه العشاق عادة من التنهدات والتوسلات التي تغتر بها الساذجات من النساء، أو المرهفات الإحساس. وكذلك لم يكن هناك ما يدعو إلى اصطناع الحيل أو التزلف الكاذب والضرب على الأوتار الحساسة في نفس ماري، بل هو لم يحاول حتى أن يعدها ويمنيها بأي شيء، إذ الواقع أنها لم تلجأ إلى ما تصطنعه العذارى في مثل سنها من الحياء الكاذب والرياء الذي لا يخفي على أحد، ولكنها وثقت بعاشقها فمنحته من طيب خاطر كل ما استطاعت أن تمنحه إياه.. وهكذا توطدت علاقات حبهما المتبادل، وصار كل منهما لا يطيق فراق الآخر منذ لقائهما في ذلك المساء!

يوم الأربعاء ٣ من أكتوبر.

عند البارونة الأم.

طال بقاء ماري في قصر مايرلنج!.. ولم تتمكن أمها – لظروف خاصة– من اللحاق بها كما كان مقرراً، على أن البارونة الأم لم تر هناك ما يدعو إلى القلق، وبخاصة أن ماري لم تكن وحدها المدعوة إلى القصر، بل معها كثيرات من الفتيات اللائي وجهت إليهن الدعوة إلى تلك الرحلة، هذا إلى أن الكونتيسة دي لاريش بنت أخت الإمبراطورة، وهي صديقة حميمة كريمة للأسرة، قد أبدت في مناسبات عديدة من العناية بماري، وبالبارونة الأم نفسها، ما جعل هذه تطمئن إلى وجودها مع ابنتها في القصر الريفي

للارشيدوق.. كل الاطمئنان.

يوم الجمعة ٥ من أكتوبر.

قلبان متحدان.

كان رودلف أول رجل أحبته ماري، فلا عجب أن تمكن حبه من قلبها وبلغ حد الوله والجنون، إذ استولى على كل جوارحها وتفكيرها، فاستيقنت أنها لا تستطيع –في المستقبل القريب أو البعيد– أن تهب قلبها لسواه!

أما رودلف فبلغ من تعلقه بها أن صارت في ذمة التاريخ كل علاقة غرامية له بغيرها من أفراد الجنس اللطيف، بل صار لا يسمح لنفسه حتى بالتفكير في حب غيرها!.. ومن عجب أن تملكت ماري مشاعره على هذا النحو، لا بالدهاء والحيلة والكيد النسائي المعهود ولكن بالبساطة المطلقة التي عاملته بها، وبحماسة العذراء التي تقدم لفتاها الأول كل ما عندها بلا قيد ولا شرط ولا إحجام!

وطالما تمنى رودلف فيما بينه وبين نفسه أن يبقى بجانب ماري طول حياته لا يفارقها لحظة واحدة. ولكن أعماله وواجباته العديدة التي لابد من أدائها لم تكن تترك له من الفراغ والحرية إلا النزر اليسير. وزاد في أسفه أن موقف البارونة هيلانة –أم ماري– من علاقتهما كان موقفا يكتنفه الغموض والإبهام، فكان على ماري كلما أرادت زيارته أن تتذرع بحيلة جديدة تجوز على أمها، فتوافق على هذه الزيارة ولا تلح في طلب المزيد من الإيضاح.

على أن ماري كانت تحس بغضاضة ومهانة إذ ترى أمها توافق مسرعة على إحدى هذه الزيارات، ولا يبدو أنها تميل إلى التفكير فيما عسى أن يكون الغرض الحقيقي من الزيارة، ولا فيما تطورت إليه العلاقات بينها وبين

الارشيدوق ولي العهد!

يوم الأربعاء ٢٣ من أكتوبر.

في مكتب الإمبراطور فرنسوا جوزيف.

الإمبراطور فرنسوا جوزيف عاكف على العمل في حجرة مكتبه الصغيرة ذات الجدران الحمراء الداكنة بالقصر، وقد ارتدى ملابس فيلد مارشال التي تتألف من سروال أحمر ذي شريط ذهبي، وسترة بيضاء، وقبعة ذات ريشة خضراء. وكانت أمامه لفافة من التبغ يتناولها ليأخذ منها نفساً ثم يعيدها إلى المنفضة وهو ينفث الدخان منها بقوة في الهواء، متظاهراً كما هي عادته بأنه في شاغل يملك كل تفكيره!

والواقع أن الإمبراطور كان في هذا الوقت يفحص سجلاً من السجلات لا قيمة له في نظره.. هو سجل موظف حاول إطفاء حريق في عربة البريد فأصيب بحروق جسيمة بترت ساقاه بسببها، واقترح الوزير المختص تقرير معاش له ومنحه وساماً تقديراً لتضحيته في سبيل أداء الواجب.

وأصلح الإمبراطور وضع نظارته على عينيه، ثم خط بقلمه علامة استفهام على هامش الورقة التي بها اقتراح الوزير، وحدث نفسه قائلاً:

– وسام؟. لأي شيء هذا الوسام؟!.. أن بتر الساقين في مثل هذه الحالة ليس سوى أمر عادي لا ينطوي على عنصر من عناصر التضحية والشجاعة:

وفي هذه اللحظة دخل رودلف مكتب الإمبراطور والده، وكان على علم بموضوع ذلك الموظف، لأن الصحف بالغت في الإشادة ببطولته، وقد زاره في المستشفى متأثراً بذلك. فقال لأبيه:

– أن هذا الموظف المسكين قد أصبح مقعداً عاجزاً عن العمل، وقد تحققت أنه كان موظفاً مثالياً مؤدياً أعماله أحسن الأداء. فهل يمكن منحه وساماً تقديراً لجهوده الصادقة في خدمة البلاد؟

وأجاب الإمبراطور في لهجة جافة قاسية: "كلا!.. أن الأوسمة لا تمنح للأفراد بمثابة إحسان أو عمل خيري!. وحسبه أن يعطي معاشاً كغيره ممن يصابون بعاهة أثناء تأدية الوظيفة.. هذا فيه الكفاية!.. لقد ملأت الدولة جيوبه وليس عليها أن تحلى سترته بوسام أيضاً!".

فقال رودلف: "ولم لا يا أبي؟.. لقد شهدته بنفسي في المستشفى، وأن منحه وساماً سيشعره بسعادة عظيمة ويملأ صدره انشراحاً لأنه.."

ولم يدعه الإمبراطور يتم حديثه، بل ضرب بيده المكتب في قوة وقال محتداً للارشيدوق ولي عهده:

– كفى!.. حسبه أن يعطي ما أشرت به من المعاش!

ثم طوي السجل ونادي الموظف المختص الذي كان قد جاء لعرضه على جلالته، وأشار إليه بأن يأخذه وينصرف. ثم وجه بعد ذلك كلامه إلى رودلف قائلاً:

– قل لي يا رودلف.. لقد تمى إلى أنك الآن مشغول بفتاة اسمها فترا أو فستيرا، أو ما يقرب من ذلك!

فصعد الدم إلى وجه الارشيدوق الشاب، وشعر بالانقباض والامتعاض إزاء لهجة أبيه الساخرة، التي يفهم منها أنه مشغول بفتاة عادية سرعان ما يتركها إلى سواها، ثم قال لأبيه:

– أنها يا أبي فتاة أصيلة ذات أخلاق سامية لا نظير لها، وأنها لجديرة قطعا بعكس ما وصمتها به!

وأخذ ولي العهد يحدق في وجه أبيه الإمبراطور والغيظ يملأ وجهه وخيل إليه أن وجه والده قد ازددت غضوته وتجاعيده حتى صار كالتفاحة الذابلة تحت جمجمته التي تشبه البيضة. والواقع أنه كان منذ سنين لا ينظر إلى والده بعين الرضا والارتياح، ويضيق إلى حد بعيد بما يلاحظ عليه من إمعانه في الخطة الرجعية التي يسير عليها متنقلاً بين قصور الإمبراطورية حيث يوجه الجانب الأكبر من عنايته إلى أدوات الصيد وأسلحته، وإلى صور النسور المعلقة هنا وهناك في تلك القصور ناشرة أجنحتها، وما إلى هذه وتلك من الدروع والأسلحة الأثرية التي كانت تستعمل في الحروب القديمة، مما جعله في نظره رجعياً يعيش في عصر غير ذلك العصر، ويستسلم للأنانية بحيث لا يدرك أي شيء عن عاطفة الحب!

وأشتد حنق الإمبراطور إزاء هذه النظرات الساخطة الشزراء من ولي عهده، فصاح به في لهجة أشد غلظة وخشونة:

– أجل!. لابد أنك مشتعل غيرة عليها.. وهذا ما يجعلني أتحدث إليك هكذا!.. يجب أن تفكر قبل كل شيء في أنك رجل متزوج ورب أسرة.. أنك ترتكب الإثم الذي يجلب العار والفضيحة نهاراً جهاراً في غير خجل ولا حياء.. وهذا ما لا يمكن أن أسمح به أبداً مهما تكن الظروف والأحوال!

وكان رودلف قد اتخذ أهبته لمثل هذا الموقف من قبل، إذ توقع مثل هذا التأنيب الشديد من أبيه، فاعتزم ألا يستكين لهذا الوضع وألا يقبل محاسبته على تصرفاته الخاصة بمثل تلك اللهجة المستهجنة. غير أنه رأى من الحكمة أن يلوذ بالصمت حتى يتم والده كلامه. فاستأنف الإمبراطور

الحديث بعد فترة ساد خلالها الصمت الرهيب:

– اسمع يا رودلف!.. أنني لست واهماً!.. أن المرأة هي المرأة دائماً.. وكل ما يطلب منها أن تكون قادرة على أن تطبخ أوزة أو ترضع طفلاً!. على أنه يجب من جهة أخرى أن تكون المرأة التي يرتبط بها رجل في مرتبة كبار الأشراف مختارة من أعلى الطبقات!.. وأنا لا أعرف كثيراً عن تلك الفتاة التي أنت مشغول بها، لكني أعرف أن (فيينا) الآن مليئة بجيش من البارونات والكونتيسات اللائي لا يصلحن إلا للكرنفال!. ولست أطيق أن يقترن اسمك باسم واحدة من هؤلاء، ولا أن تغدو سمعتك مضغة في الأفواه وموضوعا للقيل والقال!.. نعم يجب أن تكون على يقين من أنني لا يمكن أن أسمح بأن يلوث اسمك ومركزك بسبب علاقتك بفتاة وضيعة مجهولة الأصل!

وارتسمت على محيا رودلف علامات السخرية والاستهزاء، ثم قال للإمبراطور:

– لنفرض أن الآنسة فتسيرا تنتمي إلى أسرة عريقة يرجع أصلها الكريم إلى أجيال عديدة مضت.. أترى ذلك كان يجعلك تتنازل وتبدي شيئاً من التسامح؟. وهل كنت حينئذ تقبل أن أسعد بشرف الانتساب إلى تلك الدوحة؟!.. أليس من مبادئك أن تطعن في كل شخص لا تعرفه وفي كل من وهبه الله شيئاً من الجمال والرشاقة والظرف والتهذيب أو خفة الروح؟!.. أو..

وقطع الإمبراطور كلام رودلف ليقول في حدة وتهكم:

– مرحى! مرحى!.. يا له من درس بديع!.. أصغ لما أقول لك وافهمه حق الفهم.. أنني آمرك أن تكف عن هذه المهزلة، وأن تضع حداً لتلك المعاشرة المعيبة. أنني لا يمكن أبداً أن أسمح لك بتلك التصرفات الشائنة

مع راقصات الأوبرا ومغنيات الحانات!. نعم.. ولن أسكت بعد اليوم على تصرفك الطائش واحتقارك للكرامات وخروجك على الآداب العامة!.. هذه جرائم لا يمكن السكوت عليها، كما لا يمكن السكوت على علاقتك بتلك الفتاة نصف اليونانية المجهولة الأصل والنسب!.. أسامع أنت؟.. وهل فهمت؟!

وما كان جواب رودلف إلا أن أدى التحية العسكرية، ثم غادر المكتب الإمبراطوري من غير أن ينبس ببنت شفة!

يوم الخميس ٨ من نوفمبر.

موعد في مايرلنج.

اعتادت ماري أن تتردد إلى قصر مايرلنج وحدها في غير صحبة أحد. وكانت تغادر قصر أسرتها مع الكونتيسة دي لاريش على أنهما ستتمشيان قليلاً في شارعي: هرنجاس، وجراين، لمشاهدة معروضات المتاجر فيهما، أو على أنهما ذاهبتان لحضور حفلة أقامتها صديقة لهما. ثم تستقل ماري وحدها القطار من محطة الجنوب حتى نهاية الخط، ومن هناك تستقل عربة أجرة تقطع بها وادي (شفيخات) المشهور بجودة هوائه، ولا تكاد تبلغ (ستلباخ) بعد عشرة كيلو مترات حتى تجد في انتظارها عربة وردلف السريعة منزوية بين مجموعة من شجر الصنوبر لتحملها إلى حيث ينتظرها في جناحه الخاص بقصر مايرلنج، ليقضيا معا أسعد أوقاتهما في مأمن تام من الرقباء والعذال، إذ كان لوشيك رئيس الخدم الأمين هو وحده الذي يسمح له بدخول هذا الجناح!

كانت ماري تقضي النهار هناك مع أميرها المحبوب في ركوب الخيل

والصيد والجري في الغابة، وفي الانزلاق على الجليد المتجمد في البحيرة المجاورة، فإذا تعبا من ممارسة هذه الأنواع من الرياضة، جلسا يتناشدان مختارات من الأشعار الغرامية، أو يعزفان ويغنيان..! بعض الألحان. وهكذا يعيش كل منهما مع الآخر وكأنهما في جنة الفردوس التي وعد بها المتقون!

أما في المساء حين يرخي الليل سدوله على الغابة والقصر، فكانا يجلسان جنبا إلى جنب أمام المدفأة حيث يتجاذبان أطراف الأحاديث المختلفة عن المستقبل، وعن الحالة العامة في البلاد، والتصرفات الرجعية للإمبراطور. وكان رودلف يثق بماري ثقة لا حد لها، فيفضي إليها بأسراره كلها، ويصرح لها بآرائه الجمهورية المتطرفة برغم أنه إمبراطور المستقبل القريب!

وفي أثناء ذلك كانت هي تجلس وقد وضعت ساقا على ساق واعتمدت ساقها العليا بيديها متشابكتين، مصغية بكل جوارحها وعلى شفتيها ابتسامتها المشرقة المشجعة، لما يبثها إياه من آمال وآلام!

وقال لها يوماً وهما ينعمان بإحدى هذه الجلسات: "أن الطريقة التي يحكم بها الإمبراطور، لا يمكن لأحد أن يقرها أو يهضمها!.. ولست أدري كيف لا يؤدي حسابا عما يقاسيه شعبه من ألوان الضيم والعسف؟.. وكيف يأبى بكل عناد وصلابة ومكابرة، أن يفحص شكاوى المواطنين المغلوبين على أمرهم، بدعوى أن التاج الذي على رأسه يجعل له الحق في أن يفعل ما يشاء؟!.. أن هناك اثنتي عشرة أمة قيدت مصالح كل منها بمصالح الأخرى، لا لشيء إلا أنها كلها تؤلف إمبراطورية النمسا والمجر. وعلى ذلك لم يبق لأمة منها سبيل إلى إصلاح حالها، لتعذر موافقة الإحدى عشرة أمة الباقية على هذا الإصلاح!. فهل في ذلك شيء من العدل؟!.. أن الناس في هذه

الشعوب ليسوا سواء، وإنما مثلهم كمثل جماعة من المسافرين المختلفين وقعوا في أسر بعض قطاع الطريق فقيدهم وربطوا بعضهم إلى بعض ثم أرغموهم على تناول الطعام جميعا من إناء واحد!"

وسكت رودلف قليلاً ثم واصل كلامه فقال متسائلاً: "أليس الإمبراطور فريسة تأثير خارجي؟. أن هذا ما يتبادر إلى الذهن، وإلا فكيف يهمل إلى هذا الحد شئون هذه النفوس البشرية التي يتحكم فيها بلا حكمة ولا هدف معلوم؟!"

وبقيت ماري ساكتة تحدق في عيني الارشيدوق الثائر في إعجاب شديد، فأجاب هو نفسه قائلاً:

– نعم، أن الآباء اليسوعيين (الجزويت) هم الذين اضطروا الإمبراطور إلى السير أمامهم هكذا كما يسير الكلب المهدد بالسياط!. وهناك أيضاً تأثير رجال الحاشية الذين أشربوا في قلوبهم حب السيطرة والظلم والتعسف وتعقيد الأمور. وهم جميعا من قدماء الطبقة الارستقراطية العريقة في الرجعية والجمود، ولذلك يقاومون كل نهضة حديثة وكل تفكير في التجديد، وكلهم فيما يتعلق بأماني الشعوب واتجاهاتها الحديثة أجهل من الدواب!.. أنهم خليط من المخرفين ذوي اللحى البيضاء، تعفنوا بمضي المدة، وسخفت آراؤهم وأفكارهم لتشبثهم منذ صغرهم بالعادات والتقاليد البالية!

وفي خلال هذا الحديث الطلي كانت ماري تحس نشوة الفرح تملأ جوانحها، فقد كانت ثورية بطبعها، وكانت منذ شهدت رودلف وفهمته على حقيقته لأول مرة شديدة الإعجاب بصفاته الحميدة ونبل سجاياه!

واستأنف الارشيدوق ردلف حديثه بعد سكتة قصيرة داعب فيها ماري فقال:

– أنهم حمير ولاشك أولئك السادة أفراد الحاشية الإمبراطورية!. نعم هم حمير لأنهم يمقتون الصحافة ويستهترون بالرأي العام ويحتقرون أفراد الشعب وينتقصون من قدر العمال!.. ومن المحزن الذي يدعو إلى البكاء أن رأياً جديداً –أياً كان– لا يمكن أن يخترق رأس الإمبراطور العنيد، فهو يعتقد اعتقاداً لا يداخله شك أن ليس هناك مبدأ صحيح صالح غير المبدأ الذي يعتنقه هو. ومن سوء الحظ أن رجال حاشيته يكتمون عنه الحقائق، ولا يتيحون لأحد أيا كان أن يدلي إليه برأي أو اقتراح جديد، هذا إلى أنه بطبعه لا يميل إلى سماع أي رأي أو اقتراح لا يتفق مع المعلومات التي تحجرت في ذهنه وصادفت هوى في نفسه. وعنده أن أصول الحكم لا تعني أكثر من أن هناك سيداً يملك ويحكم وعبداً مملوكاً يجب أن يسمع ويطيع.. وليس لهذا كله من نتيجة إلا ضياع الإمبراطورية كلها في سبيل المحافظة على تلك الآراء والمبادئ الرجعية. وأعجب من ذلك وأشد خطراً أن هذا الإمبراطور البائس يظن أن في مصادرة الآراء الحديثة ومقاطعة أساليب الحكم التقدمية ما يكفي لإقناع المتعطلين الذين يتضورون جوعاً هم ومن يعولون!

وفيما هما مستغرقان في هذا الحديث، دقت الساعة الصغيرة ذات الجرس الفضي معلنة مضي ساعة بعد انتصاف الليل، فاستولت عليهما الدهشة، وتبادلا نظرات تنم عن عجب وإعجاب. ثم نهضت ماري واقتربت من رودلف في لطف ودلال لا تكلف فيهما، وبدت عيناها أشد فتنة وجاذبية وهي تنظر إليه وكأنما أثقل النوم أهدابها الطويلة. فوقف يتأملها هنيهة مأخوذاً بهذا المنظر، ثم أخذ يساعدها في خلع ملابسها الخارجية استعداداً للنوم. ويقف من حين إلى حين ليحدق في جسمها البض الغض الدافق بالحيوية القوية، مستنشقاً العبير المسكر الذي يتضوع من شعرها الغزير المسترسل

على كتفيها ومن ملابسها الحريرية الخفيفة ممتزجاً بأريج الزهور والرياحين. ولم يسعه أخيراً إلا أن حملها على ذراعيه مدللاً وكأنها طفل يريد وضعه في المهد.

يوم الأربعاء ١٤ من نوفمبر.

في محل حلواني في فيينا.

الكونتيسة لاريش والبارونة هيلانة فتسيرا جالستان إلى مائدة مكتظة بأطباق الحلوى الشهية والفطائر المغطاة بالكراملة أو مسحوق الكاكاو الجاف، أو المتوجة بطبقة سميكة من القشدة. وقد أخذتا في تبادل الحديث برغم ضوضاء الاوركسترا والضجة المنبعثة من وضع الآنية الخزفية على الموائد ورفعها عنها لإعادة تنظيفها، ومن ارتفاع أصوات الخدم وأعداد أنواع الحلوى ورنين النقود وخشخشة الأبواب الدوارة، ونداءات بائعات البنفسج المتجولات!

وكان التعب يبدو مرتسماً على وجه البارونة وهي جالسة بفرائها السميك الذي زاد في ضخامة بدنها، فصارت أشبه بثعلب كبير يرقب فريسته من مكمنه بين الأشجار!

وفي خلال الحديث كانت كل منهما تكذب على الأخرى متعمدة محاولة تضليلها وخداعها، ومع ذلك بقى الحديث بينهما مستمراً، وكأن كل عبارة فيه مدعمة بأقوى الحجج والأسانيد!

أن البارونة هيلانة فتسيرا –بحكم تربيتها الأولى في وسط حافل بالدسائس والأكاذيب– كانت تعلم ولاشك أن ابنتها ماري تتردد على غابة مايرلنج وقصورها الإمبراطورية لا للزيارة العابرة ومشاهدة معالمها بل لأهداف

أخرى أكبر أهمية. ولعلها كانت على يقيم من أمر المقابلات التي تتم هناك بين ابنتها وولي العهد الشاب، لكنها لم تحاول أن تسأل ماري عن ذلك، كما أنها لم تنشأ أن تكون شريكة لها في هذا المسلك، وأن رحبت في الوقت نفسه بما يعود عليها به من فوائد جزيلة كثيرة، كتلك الهدايا التي لم تكن تنقطع من مأكولات ومشروبات شهية مختلفة الأنواع والألوان، وفي مقدمتها لحوم الصيد والأسماك النادرة، والفاكهة والحلوى والفطائر، وأصناف النبيذ الفاخر. وهذا عدا الهدايا المنزلية الثمينة من أنواع السجاد والأبسطة والثريات البلورية وغيرها.

ولم تكن تنبس بكلمة إذ ترى جيوب ابنتها ملأ دائماً بالنقود، ولا شك أنها كانت تعلم أن هذه النقود من الارشيدوق الشاب الحريص على أن يحقق لماري كل ما تتمناه!

وهكذا اتخذت البارونة الأم لنفسها خطة غض الطرف عن علاقة الارشيدوق بابنتها، وتركت الأمور تجري في أعنتها متجاهلة تراكم الهدايا المختلفة في قصرها وكأنها لا تراها!

أن أي تدخل منها في شأن تلك العلاقات كان كفيلاً بأن يضع حدا لهذه النعم المتوالية، ثم لماذا تتدخل؟.. أليست التقاليد المتبعة في أوساط الأشراف والطبقات الارستقراطية تعد كل هدية أو لفتة كريمة من أمير شرفاً يدعو إلى الفخر والمباهاة؟!

أما الكونتيسة دي لاريش فكانت –إلى اغتباطها بتحقيق رغبة رودلف ابن عمها وخالتها وصديقها الحميم– سعيدة باستطاعتها أن تحتفظ في الوقت ذاته بمنزلتها عند ماري وأمها. وكانت تزورهما في قصرهما في أية ساعة بالنهار أو الليل، فتقابل بالترحيب الحار، وتصحبها ماري إلى حيث تريد، فإذا

عادتا بعد ساعات، أو بعد تمضية الليل كله في الخارج، لم تزد البارونة الأم على أن تستمع لحديث الكونتيسة عن سبب تأخرهما ووجهها منفرج الأسارير ونظراتها تنم عن اطمئنانها التام إلى الصداقة المثالية التي تختصها بها هذه الصديقة الكبيرة الوفية الكريمة. حينما تهم الكونتيسة بالانصراف بعد ذلك، تأبى البارونة هيلانة ألا أن تودعها حتى الباب مبالغة في إظهار اعترافها بما تسدي إليها من جميل بأمثال هذه الزيارات.

وكثيراً ما كانت البارونة الأم تلمح في يد ابنتها رسالة حملتها إليها الكونتيسة الصديقة المثالية، فلا تزيد على أن تسارع إلى إضاءة إحدى ثريات القصر لتعاونها على قراءة الرسالة!

بل كثيراً ما لمحت الكونتيسة وهي تقدم لماري ورقة من أوراق البنكنوت، فكانت تتجاهل وتبتعد متظاهرة برفع إحدى الستائر الكثيفة المصنوعة من الدانتيلا الفاخرة وتتطلع إلى الخارج كأنها تتفقد حالة الجو!

على قمة الحب

يوم الأربعاء ١٩ من ديسمبر.

في قصر البارونة فتسيرا.

انتظرت ماري قليلاً ريثما ينام أخوها (فرانز) وتذهب شقيقتها الكبرى (هاني) للإشراف على الخادمة المنوط بها حفظ الأواني الخزفية بالقصر. وكانت البارونة الأم تتهيأ للانصراف إلى فراشها كعادتها بعد أن تلقت من ماري تحية المساء التقليدية وقبلتها في جبينها، غير أن هذه أمسكت ذراعها بلطف وهمست إليها بتلك الرغبة الغريبة المفاجئة، ثم استطردت بعد حين فقالت لها:

– أجلسي يا أماه وأعيريني سمعك بعض الوقت!. أن لدى ما أريد أن أقوله لك، ومنذ شهرين وأنا أفكر في التحدث معك في شأن هذا الموضوع، لكني كنت أقدم رجلاً وأؤخر أخرى، وكلما حاولت الكلام لم أجد الجرأة الكافية!

وجلست الأم بجانب ابنتها وقالت لها في حنان: "هيا!.. تكلمي يا عزيزتي.. قولي كل شيء ولا تخشي أي شيء!.. ألست أمك يا حبيبتي؟ أن هذا فرض عليك!"

وسكتت ماري قليلاً كأنها تبحث عن كلمات تعبر بها عما تريد الاعتراف به لأمها ثم قالت هامسة:

– لقد مضى الآن شهران ونصف شهر وأنا خليلة للارشيدوق رودلف، والواقع أني لست نادمة على ذلك، واعتقد أني لم آت ذنباً يستلزم الاعتذار عنه، على أني أريد أن أعرض المسألة كلها عليك لأن كتمانها قد يصبح في النهاية عبئا لا يطاق!

وأصغت البارونة إلى هذا الاعتراف الصريح متظاهرة بالدهشة والجزع! ثم أطلقت من صدرها صرخة خافتة مكتومة وقالت لماري.

– ما أتعسك من طفلة!.. ويا لتعاستي لما تسببين لي من آلام.

ثم وضعت منديلها على أنفها، وأخذت تسمح خديها موهمة أنها تمسح دمعاً انهمر من عينيها، ثم رفعت ذراعيها كالمتضرعة إلى السماء وأخذت تئن وتتأوه ثم قالت:

– كنت أشك كثيراً في أنك.. لكن كيف تمكنت..؟

وقطعت ماري كلامها قائلة: "أماه!.. أنني لم أقع فريسة في يد أحد، ولم

أفاجأ بما حدث!.. أنني سلمت نفسي طائعة مختارة لأنني أحب رودلف ولأنه يحبني!. أما نتائج غرامنا فستكون كما برسمها القدر.. ومع ذلك..".

وسكتت ريثما أدارت لسانها الجاف في حلقها، ثم قالت: "ومع ذلك أراني محقة إلى حد ما، فقد كان لزاماً أن يتطرق إليك الشك، غير أنك لم تفعلي.. ولم أجد منك ما يحملني على الاعتقاد بأنك..".

وهنا قطعت البارونة هيلانة كلام ابنتها إذ وجدت أنها تطرقت إلى لومها، ثم قالت لها في حدة:

– أمن حقك أن تلوميني؟!.. هذا أمعان في الجرأة!.. كل ما حدث أني حين رأيت سبيل الهدايا يتدفق بلا هوادة، استنتجت أنك هائمة بحب فتى واسع الثروة، يريد التزوج منك!.. وقد رأيت أن أنتظر حتى يطلب يدك، ولم أشأ أن أتدخل في الأمر أو استعجله.. وهذا ما تصنعه كل الأمهات!.. أليست الرغبة الكبرى لكل أم أن توفق إلى تكوين مستقبل مناسب لابنتها، حتى تراها سعيدة موفورة الكرامة؟!

فقالت ماري: "أنه يحبني حباً فوق العبادة يا أماه!.. ولكنه لا يستطيع الزواج في الحالة الراهنة!"

فقالت لها أمها: "أذن أنت تدركين الآن أني كنت على حق في عدم تدخلي في أمركما، أعني في عدم الاندماج في هذه القضية!".

فابتسمت ماري في حزن وسخرية وقالت: "قضية؟! يا لها من كلمة مخيفة!.. يا للأسف!.. حتى أنت أيضاً يا أماه؟!. آه!.. أحقا أن في الدنيا نفوساً لا تشفى من أمراضها أبداً؟.. ولكن حسناً!.. فمن الخير أن تفضي الابنة بأسرارها إلى أم حنون متسامحة، على تمام الاستعداد لفهم ما يحيط

بتلك الأسرار من ظروف وملابسات!".

وسكتت كلتاهما بعض الوقت، ثم استأنفت ماري الحديث فقالت: "لندع هذا يا أماه!.. أنني أريد أن أفضي إليك بشيء آخر أهم من هذا وأخطر كثيراً.. منذ شهرين، نعم منذ شهرين وأنا..".

ولما كانت البارونة هيلانة سريعة الخاطر فقد وفرت على ابنتها مشقة البحث عن عبارة مناسبة للخروج من مأزقها، وقطعت كلامها قائلة:

– أن أي فرد من آل هابسبرج من واجبه أن يقرر إعانة دائمة لأي طفل غير شرعي ما دام لا يشك في أبوته له. ومثل هذا الطفل بمثابة رأس مال مضمون الربح عظيم الدخل كبير المقدار مؤكد الـ..

وكان وجهها وهي تقول ذلك ينم عما استحوذ على قلبها من الاغتباط بنبأ الوليد المنتظر، إذ كانت على يقين من أن وجوده كفيل بتوطيد العلاقة بين ماري وبين الارشيدوق رودلف والأسرة الإمبراطورية، لكنها مع ذلك عادت فرفعت يدها إلى السماء وأخذت تئن وتتأوه من جديد، ثم أكملت عبارتها قائلة:

– يا لك من بائسة سيئة الحظ!. يا للفضيحة والعار!.. كيف استعطت..

ولم تدعها ماري تسترسل في رثائها الزائف وتمتمت قائلة: "لقد خطر ببالي أن الجأ إلى إحدى الحكيمات العجائز اللائي..".. غير أن البارونة الأم قطعت كلامها واستأنفت حديثها فقالت:

– يا للفظاعة!.. ألا تعلمين أن هذا العمل جناية يعاقب الله مرتكبها أشد العقاب؟! هل اعترفت بهذا التفكير الخاطئ الأثيم أمام الكاهن؟

فقالت ماري: "أجل، وقد نصح لي بألا أقدم على مثل هذا العمل!".

فتهلل وجه أمها مرة أخرى ارتياحاً لنصيحة الكاهن التي ضمنت حياة الوليد الإمبراطوري المنتظر، وليد ابنتها من الارشيدوق ولي العهد ووارث العرش، وضمنت لها –تبعا لذلك– دخلاً ثابتاً عظيم الشأن. ولم يسعها إلا أن غيرت لهجة حديثها والت ملاطفة لماري: "لا تخافي يا قرة عيني!.. أن هذا المولود لن يمسه أحد بأذى!.. أننا سنبذل قصارى جهدنا –مهما يكلفنا ذلك– لكي يعيش سعيداً قرير العين، وسنخلق منه مسيحياً وطيد الإيمان، ونمساوياً غيوراً على قوميته محباً لوطنه!".

ولم يخف على ماري ما في حديث أمها من أنانية وجشع برغم ما تبديه لها من عطف وحنان، وشعرت إزاء ذلك بألم شديد، فقد كانت تؤثر أن يكون في حديث أمها ما يشتم منه رائحة الغضب والتأنيب بدلا من هذا الحنان المسموم، الذي أحزنها بقدر ما شعرت بأنه يحط من قدرها. ثم قالت لها أخيراً متجاهلة ما فطنت إليه من أطماعها وتفكيرها في شأن المستقبل، وما ينطوي عليه تسامحها من رغبة جشعة في الحصول على المال والجاه..!

– والآن.. ما الذي ينبغي لي أن أفعله يا أماه؟

فقالت أمها: "سنفكر في ذلك يا بنيتي!.. ولست أظن أن الارشيدوق سيكون خسيساً إلى حد يجعله ينكر الحقيقة. ولكن.. هل أخبرته بالأمر يا عزيزتي؟"

فقالت ماري: "كلا!.. لم أخبره بذلك بعد".

فقالت أمها في هدوء: لا بأس!.. ليس هناك ما يدعو إلى الاستعجال، ولكن يجب متى حان الوقت أن تمهدي السبيل لإبلاغه النبأ.. كوني حكيمة حازمة، ولا تهدمي شيئاً مما بنيت أو بناه لك القدر!".

ولم تعجب ماري من الخطة التي تحاول أمها أن ترسمها لها، وقالت لها:

– ليس هناك هدم ولا بناء يا أماه!.. أنني أعيد على مسامعك ما قلته لك من قبل، أن كلا منا يحب الآخر، وليس من شك في أنه سيتلقى خبر الوليد بمزيد من السرور. كل ما هنالك أنني أخشى أن يؤدي ذلك إلى حنق أسرته في القصر الإمبراطوري!.. أن ما يعنيني قبل كل شيء ألا يحدث ما يكدره!.. ومع ذلك فلنفكر كما قلت يا أماه.. هيا بنا. يكفي هذا الآن!.. اب مساؤك وأرجو عفوك عني!

ثم أضافت إلى ذلك قبل أن تفترق عن أمها: "تذكري يا أماه وصدفي أنني لست آسفة أو نادمة على ما حدث". وهكذا تركت أمها شاعرة بأن حملاً ثقيلاً قد أزيح عن كاهلها، وبأنها على الأقل لن تضطر فيما بعد إلى مثل تلك الأكاذيب والمعاذير التي كانت تصطنعها كلما خرجت للقاء وردلف. على أنها في الوقت نفسه كانت تحس في قرارة نفسها أن أمها قد آلمتها بما أبدته من اهتمام دنيء بالجانب المادي في قصتها!

آه ما أنبل النفوس الأبية النبيلة في هذا العالم، وما أقلها!. وكم برهنت الحوادث على أن حبها لرودلف قد كلفها ثمناً باهظاً، ومع ذلك لن ترضى بسواه بديلاً، لأنها أن أضاعته فمعنى هذا أنها أضاعت كل شيء!

يوم الأربعاء ٩ من يناير سنة ١٨٨٩.

في مسرح (برختياتر) بفينيا

صف طويل لا نهاية له من العربات المنتظرة على كل من جانبي الطريق أمام المسرح، بعضها مما يجره جوادان، وبعضها مما يجره جواد واحد.

وكلها مزودة بأفخر الرياش وأحدث أدوات الترف والزينة. ولكل منها

سائق حسن البزة كامل العدة. وقد كتبت على أكثرها بحروف ذهبية أسماء أصحابها من الأمراء والكبراء ورجال المال والأعمال وأعضاء مجلس الشورى.

وكان بواب المسرح يسترعى الأنظار بضخامة جسمه وغرابة قبعته، وببذلته البراقة المزركشة، تنحصر مهمته في المحافظة على سلامة قاصدات المسرح ولاسيما أن أحذيتهن الضيقة كانت تعرضهن للسقوط عند هبوطهن من العربات، وأثناء سيرهن على الثلوج المتراكمة وبأيديهن مظلات من أكبر الأحجام لاتقاء المطر.

وقد غطيت أرض مدخل المسرح بأبسطة بيضاء تنعكس عليها الأضواء المتألقة، وتختفي في طبقاتها الكثيفة ضوضاء وقع الأقدام في الداخل وجلبة العربات في الخارج. وكان الموظفون المنوط بهم استقبال النظارة يضعون على رؤوسهم شعوراً مستعارة، ويرتدون بذلات حمراء مزركشة بالذهب، وتعلوها معاطف قصيرة من الحرير الأبيض. وكلهم يبالغون في الترحيب بالقادمين ويقودونهم إلى أماكنهم في إجلال.

ولما حان موعد الافتتاح وقف رئيس الاوركسترا على منصته ورفع عصاه العاجية التقليدية استعداداً لبدء العزف. وكانت البارونة الصغيرة الحسناء (ماري فتسيرا) خليلة ولي العهد قد احتلت المقصورة المواجهة للمقصورة لإمبراطورية، وبدأ جيدها البض تتلألأ فوقه ثلاثة عقود من اللؤلؤ الثمين، كما أنساب شعرها الأسود الغزير يعلوه إكليل من الزمرد، وأخذ بريق أساورها الماسية يخطف الأنظار كلما حركت مروحتها اللطيفة في دلال!

ولا غرابة إذا صوبت إليها النظارات المقربة من كل جانب من جوانب المسرح!

يوم الأحد ١٣ من يناير.

على قمة السعادة.

في اليوم الثالث عشر من شهر يناير سنة ١٨٨٩، دونت ماري في مذكراتها الخاصة التي أطلقت عليها اسم "صحيفة الفتاة" هذه الكلمات: "لقد حظيت بأسعد يوم في حياتي".

وكانت الكونتيسة دي لاريش كثيراً ما تعير ماري ورودلف مسكنها الخاص في فينيا كلما رغبا في خلوة عاجلة بمأمن من أعين الرقباء. فلما اجتمعا هناك في ذلك اليوم، أسر رودلف في أذن ماري نبأ عظيماً مفاجئاً إذ قال لها: "لقد كتبت إلى الفاتيكان أطلب إحلالي من القيد الذي يربطني بالارشيدوقة!".

وعقدت الفرحة المفاجئة لسان ماري ثم همست: "ماذا؟. أطلبت التحلل من زواجك بالارشيدوقة!".

فقال لها: "أجل يا حبيبتي!.. لقد ذكرت لي مرة أنك تخشين ألا تدوم هذه السعادة التي نرفل في بحبوحتها، فها أنذا أقدم لك اليوم برهاناً على أن مخاوفك تلك لا أساس لها!".

وهمست ماري مرة أخرى: "آه يا رودي!. يا حبيبي وقرة عيني!". بينما استطرد هو فقال:

– أنت تعلمين حق العلم أن علاقتي بالارشيدوقة لم يكن أساسها غير الاحتقار والخداع، ولست أعتقد أن الخالق يرضى لأحد من خلقه أن يعيش طول حياته بجانب امرأة لا يشعر نحوها بغير الكراهية والاشمئزاز، ولاسيما إذا كان باب السعادة مفتوحاً في ناحية أخرى.. وهذا ما جعلني أكتب إلى

الفاتيكان لأحصل على حقي في التخلص من قيود تلك العلاقة التي يلازمها النحس!. وما أشك في أن البابا ليون الثالث عشر سيوافق على ذلك، وحينئذ يكون من حقي أن أعيش مع من أحب.. معك أنت يا حبيبتي!

ووضعت ماري رأسها على صدر الارشيدوق وضمته إليها بقوة متأثرة بنوبة العاطفة التي هزت كيانها، ثم رفعت رأسها وأخذت تحدق في عينيه كأنها تريد افتراسه. أما هو فكان يفكر فيما ينتظره من أيام المستقبل السعيد المنشود، وفي وضع حد لحياة الكذب والرياء التي يحياها مع الارشيدوقة البغيضة بعد أن قيدته بها أغلال زواج لم يسع إليه ولم يبد أية رغبة فيه!

ثم صاحت ماري بصوت مفعم بالحرارة والهوى وفورة الشباب:

– آه يا حبيبي!.. أنني لم أشعر في حياتي بمثل ما أشعر به في هذه اللحظة!

وكانت تحدثه وفمها يكاد يلاصق فمه، فأخذ يستنشق عبير أنفاسها المحببة إلى نفسه، بينما تتابع على لوحة ذهنه صور مختلف ألوانها من مواقف الروايات الخيالية الرومانتيكية التي كان الشبان في ذلك الحين يتنافسون في الإعجاب بها ثم غمغم قائلاً: "آه!.. ما أسعد أولئك الذين يموتون هكذا!".

واستمر العاشقان كذلك بعض الوقت وقد لفهما الصمت، فامتزجت أنفاسهما، ثم قالت ماري تتم عبارته: "نعم يا حبيبي ما أسعدهم.. أنهم يموتون في قمة السعادة والحب!".

وأردف هو قائلاً: "ولا يهبطون قيد شعرة من أعلى تلك القمة!".

فقالت: "مثل روميو!". فقال: "ومثل جولييت!". ثم اثملته القبلات المتبادلة فأطبق جفنيه مستسلماً للنشوة الطاغية التي تملكته، وراح يحدث

نفسه قائلاً:

– أن ذلك الموت الخاطف في مثل هذه الفرصة النادرة خليق بأن يمنح من يظفر به ثمرات الجنة التي وعد بها السعداء!. أنه أهم كثيراً من أي قرار يصدره الإمبراطور أو تصدره الكنيسة!. وماذا يمنعني أن أضحي بحياتي في سبيل ماري؟.. أنني لا أستطيع أن أعيش بغيرها، ولا رغبة لي في غير ذلك!

يوم الاثنين ١٤ من يناير.

عقبات في الطريق.

لم يكن في مقدور رودلف أن يستمر في كتمان أمر تعلقه بماري وما اعتزمه في سبيلها من الافتراق عن الارشيدوقة زوجته.

ولما تحدث في ذلك إلى صديقه الأمير فيليب دي ساكس كوربورج الذي اشتهر بمزاجه الحاد وحماسته المتقدة، رد عليه هذا قائلاً: "أظن يا عزيزي أن تصرفا كهذا لابد أن يؤدي إلى أسوأ النتائج!".

فقال له رودلف: "لا تنس أن الكنيسة ستوافق على ذلك".

فقال الأمير فيليب: "حتى إذا وافقت الكنيسة على الطلاق فالنتيجة هي هي!. وسيقول الناس: أن روما وافقت على ذلك أما لغرض الترضية والمسايرة، وإما سعيا وراء النفع المادي!.. وهكذا تكون النتيجة واحدة في الحالتين!.. هذا إلى أن بلجيكا ولابد ستشتعل غضباً وهياجاً لأجل الارشيدوقة البلجيكية!. وهناك هنفاريا أيضاً فهي تترقب بفارغ الصبر فرصه كهذه لكي تتخذها ذريعة للانفصال عن النمسا!".

واضطربت أفكار الارشيدوق رودلف، ولم يجد ما يفند به أقوال صديقه

الأمير فيليب، ثم قال له أخيراً:

– أن الآنسة فتسيرا ذات جمال لا مثيل له!

فقال الأمير فيليب: "أنني اتفق معك في هذا!".

وعاد رودلف يقول: "وهي أيضاً ذات مواهب ومزايا نادرة!" فقال فيليب: "حقاً!.. هذا أيضاً لا أستطيع ألا أن اتفق معك فيه!"

فقال رودلف: "ثم هناك ما هو أهم من هذا وذاك!.. أنها تحبني كما أحبها وزيادة!"

فقال له فيليب: "أنا معك في كل هذا، ولكن ينبغي ألا تنسى أن السعادة التي تنشدها في بناء الأسرة لا يمكن أن تشاد على أساس من الأحزان والدموع!.. أنك الآن زوج الارشيدوقة استيفاني، كما أنك والد للأميرة الصغيرة اليزابيث، فإذا أنت هجرت هذه الابنة وتلك الزوجة، أيا كانت الأسباب، فإن هذا ولاشك سيقيم الدنيا ويقعدها على تصرفك!!.. هناك يا عزيزي مجلس الشورى والحاشية الإمبراطورية والكنيسة، وهناك الإمبراطورة والإمبراطور بل هناك الإمبراطورية كلها!"

وأطرق رودلف مفكراً ولم ينبس بكلمة، في حين ارتسمت على وجهه علامات الحيرة والإعياء!

الثلاثاء ١٥ من يناير.

خاتم من حديد.

وصل رودلف بغتة وعلى غير موعد إلى قصر البارونة هيلانة فتسيرا، وسرعان ما اختفت على عادتها منذ حين، مبررة ذلك بوجوب التساهل مجاراة

لمقتضى الحال!.. وكذلك اختفت هاني ابنتها الكبرى منطوية على نفسها في حجرتها الخاصة وقلبها تنهشه عقارب الحقد والجبن والغيرة والحسد من شقيقتها الصغرى. أما الشقيق الأصغر فرانز فكان أسرع إلى الاعتكاف في حجرته الخاصة تنفيذاً لتعليمات ربة الأسرة!

وهكذا خلا الجو لماري التي فوجئت بهذه الزيارة، وأدهشها ما بدأ على محيا خليلها من الغموض والإبهام فسألته:

– هل الرد جاء من روما؟

فقال لها: "لم يصل الرد بعد يا عزيزتي وحبيبة فؤادي، ولكني أحضرت لك هذه.. جوهرة ثمينة.. نعم جوهرة ثمينة جداً كما سترين الآن!"

ثم أخرج من جيبه علبة مبطنة بالقطيفة وفتحها أمامها، فأخذتها الدهشة إذ لم تجد فيها سوى خاتم صغير رمادي اللون أدركت لأول نظرة أنه، ويا للعجب.. من حديد!

وكان طبيعياً أن نظرت ماري إلى رودلف وفي عينيها علامات التعجب والاستفهام، فمد يده، وانتزع بها ذلك الخاتم من موضعه في العلبة، ثم قدمه لها مشيراً إلى الحروف التي نقشت عليه من الداخل بحبات صغيرة من الماس، فبقيت ماري هنيهة تتأمل هذه الحروف، ولكنها لم تفهم المعنى الذي ترمز إليه، ووقفت ساكتة مبهوتة أشبه بتلميذة صغيرة لم تجد جواباً لمسألة وجهت إليها!.. فابتسم رودلف وقال لها:

– ألا تستطيعين أن تذكري العبارة التي رمز إليها بهذه الحروف؟ أنها العبارة الألمانية المأثورة: "معا.. في الحب.. حتى الموت!"

وبدا الوجوم على وجهها وهي تستمع له، فقد كان صوته إذ نطق بهذه

الكلمات خافتاً متقطعاً حزيناً، خالياً من رنين الحماسة المتقدة، ومن كل ما عهدت فيه من مرح وصفاء وانطلاق!

وأخيراً، همس إليها قائلاً: "ماري!.. حبيبتي!.. ألا يعجبك أن نكون هكذا.. معا في الحب حتى الموت؟!"

فهمست إليه وشفتاها تبحثان عن شفتيه وجفونها مطبقة كأنها نائمة تحلم:

– معا.. في الحب حتى الموت.. الموت في احتفال مهيب!

فلمع في عينيه بريق الارتياح وقال مردداً: "نعم.. في احتفال مهيب!" وسرعان ما أمتزج العاشقان في قبلة حارة طويلة، كانت أفصح تعبير عن اتحادهما معا في الحب حتى النهاية الكبرى!

الأربعاء ١٦ من يناير.

حفلة ساهرة خاصة بالقصر الإمبراطوري.

قاعة فسيحة مزخرفة بماء الذهب، وسقف موشى بالذهب، وموائد محلاة بالذهب، طنافس لها لون العقيق نسجت عليها بالذهب صور تمثل الفصول الأربعة، وأكواب من البلور المذهب المنقوش من صنع بوهيميا، وآنية من حجم كبير تطوقها أشرطة عريضة من الذهب الخالص نقشت عليها طفراء آل هابسبرج والسلاح الإمبراطوري!

وتتابعت ألوان الطعام والفاكهة وأكواب النبيذ المعتق، ولكن رودلف بقى واجماً محزوناً، يأكل ويشرب كارهاً، ويرسل نظرات شاردة هنا وهناك، وقد عقد الصمت لسانه على غير عادته!

وحانت منه نظرة إلى الإمبراطورة والدته فإذا هي جالسة كعهده بها في وقار أشبه باستسلام الشهداء!

ثم نظر إلى الإمبراطور والده فإذا به –كعهده أيضاً– مغضن الوجه، مجعد الحاجبين جافي النظرات!.. وهناك في الحفلة الخاصة الساهرة بالقصر الإمبراطوري كانت تجلس أيضاً الكونتيسة شرافت، التي لا تفوتها وليمة، ولا تكف عن التظرف في الحديث، فتلقى على من حولها أسئلة عدة مختلفة ثم تسارع هي نفسها إلى الإجابة عنها!

ووقع نظر رودلف أخيراً على الارشيدوقة استيفاني زوجته، وكانت مطرقة ساهمة كأنها صرافة أمينة دقيقة في أحد المحال التجارية، فحدث نفسه قائلاً:

– أنها تزداد بدانة تلك البلجيكية البلهاء!. ولاشك في أن هذه البدانة لن تقف عند حد!.. حقا.. أن لوحات المصور البلجيكي روبنز تمطي نماذج طبق الأصل من ذلك الشعب الثقيل الوزن!.. يا لها من دبة كبيرة خرساء!.. أين هي من ماري الفتاة الصغيرة المرحة الطروب؟.. يا للفرق الهائل بين رشاقة ماري وخفة روحها وذكائها وبساطتها وعذوبة حديثها ونظراتها وبسماتها وحركاتها وبين هذه الكتلة الجامدة الباردة من الشحم المتراكم.. هذه المخلوقة التافهة التي قضت الأقدار بأن تكون شريكة حياتي!.. أن هذا ليس زواجاً في الحقيقة، بل هو أقرب إلى أن يكون مرضاً مزمناً مستعصياً ليس له دواء ولا منه شفاء!

وحرص رودلف على أن يتحاشى النظر إلى زوجته بعد تلك النظرة الخاطفة، ولكن ذهنه بقى مشغولاً بها، ومضى يقول لنفسه: "أنها لا لوم عليها ولا تثريب!.. ولكن.. يل للفضيلة التي وقتها من كل عيب وأحاطتها بسياج كثيف من المناعة!.. ترى أهي فضيلة حقا تلك التي تجعل امرأة مثلها، تتعلق

متشبثة هكذا برجل واحد مدى الحياة؟.. ومع ذلك.. من يدري؟.. هناك روما، والكتاب الذي بعثت به إلى البابا!"

ولما حان موعد التدخين وجاء الخدم بأنواع السيجار الفاخر، وضع الإمبراطور فرنسوا جوزيف يده على ذراع الارشيدوق رودلف ولي عهده، ويمم به شطر المكتب الإمبراطوري، حتى إذا خلا إليه هناك حدجه بنظرة قاسية وقال له:

– رودلف!.. أني لست راضياً عنك!.. لقد نمى إلى أن..

وأطرق الارشيدوق عند سماعه هذه الكلمات وسأل نفسه "ماذا نمى إليه؟. وممن يا ترى؟. وهل كان ينبغي لي أن أبلغه أنا؟. أن القصر ملئ بالعيون والأرصاد.. نعم أن الجواسيس منبثون في كل مكان!"

وواصل الإمبراطور كلامه فقال: "أنت تعلم يا بني أن هذه العلاقة لا يمكن أن تدوم. وعلى هذا يجب أن يسدل الستار على الفصل الأخير من هذه المهزلة التي لم تتورع عن تمثيلها مع الفتاة ماري فتسيرا!"

وتضرجت وجنتا رودلف بحمرة الغيظ المكبوت، ثم رفع رأسه في تحد ملحوظ وقال:

– أتصف هذا الذي يملأ جوانحي بأنه مهزلة يا أبي؟

وملأ الغيظ صدر الإمبراطور، ونفث دخان سيجارة بقوة، ثم قال ساخراً:

– حسنا.. حسنا!.. لقد كنت لقمة سائغة لها فيما يبدو.. هكذا دفعت بك إلى أعماق الهاوية!

ورأى الإمبراطور أن رودلف قد كظم غيظه ولاذ بالصمت إزاء هذه التهم

التي كالها جزافاً لعشيقته، فكف عن الاستمرار في إيلامه على هذا النحو، وآثر أن يسلك طريقاً آخر إلى غايته، فاستطرد قائلاً:

– لست أريد لها إلا الخير!.. ومن أجل ذلك اخترت لها زوجاً من الدرجة الأولى!.. وأنت تعلم أن (براجنس) ينتمي إلى بيت من أعرق البيوتات، كما أنه شاب جدير بالإعجاب، وبإعجاب النساء على الأخص!

وتمتم رودلف في ألم مكبوت: "براجنس؟! هذا ممكن؟!". بينما استمر الإمبراطور في كلامه فقال: "لقد كان النجاح حليفه كما تعلم، وكثيراً ما سعت إليه أجمل الغيد قبل أن يسعى إليهن، لكني أستطيع أن أجعله يقبل هذا الزواج، وما عليك إلا أن تمهد السبيل حتى يمكن إخراج الفكرة إلى حيز التنفيذ!.. أن ذلك من صالحها ولاشك!. وليس من المعقول، ولا من اللائق بك، أن تقف حائلاً بين تلك الفتاة في مثل سنها الآن وبين تكوين مستقبلها!.. هذه مسئولية ملقاة على عاتقك، وليس من حقك أن تضيع الفرص السانحة أمامها وإلا كنت أنانياً!"

وهنا عض رودلف على شاربيه لفرط غيظه ثم قال لأبيه:

– أن علاقتي بهذه الفتاة أسمى وأنبل من أن تكون أنانية!.. وهناك أمثلة كثيرة لعلاقات مثلها خلت من كل ما يشتم منه رائحة الغش والخديعة، ومن أجل ذلك كتب لها البقاء والاستمرار برغم وجود زوجة جديرة بكل رعاية وإجلال.. أتحب أن تتفضل بأن تسمع بعض هذه الأمثلة؟

وما سمع الإمبراطور هذا حتى امتقع وجهه وتميز غيظاً وسخطاً، ثم تحرك في مقعده متحفزاً كهرة جائعة عجوز، تتهيأ للانقضاض على فريسة رمى بها القدر بين يديها!

لقد أدرك أن رودلف يشير إلى السيدة (كتي شرات).. تلك الشقراء الذكية ذات القد الرشيق التي أتخذها هو خليلة له، برغم تقدمه في السن، وبرغم كاثوليكيته المتعصبة وفرضه مبادئ الفضيلة فرضا على الآخرين، بل برغم وجود الإمبراطورة زوجته بجانبه، وبرغم تضحيتها إلى حد استقبالها منافستها غير الشرعية هذه بالحفاوة والترحيب!

وسكت الإمبراطور قليلاً ريثما أشعل سيجاراً آخر لنفسه وقدم سيجاراً مثله لرودلف، ثم قال له:

– لنعد إلى ما كنا فيه من حديث!.. أن الناس ولاشك يتساءلون عما نحن صانعون!.. ثم.. لقد نسيت أن أذكر لك شيئاً له أهميته الكبرى.. أن روما لم توافق على...

فقطع رودلف كلامه متسائلاً في دهشة وفزع: "روما رفضت؟!.. كيف كان ذلك، ومن أين علمت بالأمر؟!"

فاعتدل الإمبراطور في جلسته محاولاً كبت الفرحة التي شاعت في وجهه المغضن، ثم قال بصوت هادئ عميق ينم عن الخبث والملق معا: "لقد كتبت روما إلى تستشيرني في الأمر، بوصفي أبا أولاً، ثم بوصفي رئيس الدولة ثانياً. وقد قابلني أخيراً القاصد الرسولي وكيل البابا، وتحدثنا كثيراً عن الارشيدوقة استيفاني الأميرة البلجيكية، بوصفها كاثوليكية، وبوصفها زوجتك أمام الله منذ اتحدتما برباط الزواج المقدس. وليس في وسعك أن تقدم ضدها أية شكوى يمكن قبولها!.. وتبعا لذلك كانت رغبتك في الارتباط بتلك الأخرى محاولة غير مقبولة للتخلص من ذلك الرباط المقدس المتين.. وهناك عدا ذلك كله ظروف أخرى كثيرة، لا نجاح معها لمثل هذه المحاولة. وقد كان قداسة البابا –ولا يزال– على اتفاق معي في كل شيء!"

وبقي الارشيدوق رودلف ساكتاً، بينما تمادى الإمبراطور في تلطفه فربت على كتفه بيده ونظر إليه قائلاً:

– هيا يا بني!.. فكر ملياً فيما قلت لك!.. ولتكن خبرتي الطويلة دليلك.. أن ما ذكرته لك لتحقيق مصلحة الآنسة فتسيرا هو في الوقت نفسه تحقيق لمصلحتنا، ولسوف أعضد الشاب براجنس ما وسعني ذلك لكي تعيش الفتاة معه ثرية سعيدة. ومن ذلك ترى أنني لا أفكر إلا فيما يعود عليك بالنفع والخير!.. والآن وقد انتهينا من هذا الأمر، هيا بنا إلى حيث توجد السيدات!

وغادر رودلف الغرفة خلف الإمبراطور، لكنه لم يتبعه إلى قاعة الاحتفال بل غادر القصر كله على الفور، وتوجه إلى مدينة الملاهي ليخلو إلى نفسه هناك ويفكر في الأمر.. هناك في خلوته بالمدينة تمثلت في ذهنه صورة ماري والخاتم الحديدي الذي نقش عليه من الداخل "معا.. في الحب.. حتى الموت!"

آلام بلا آمال

الأحد ٢٠ من يناير سنة ١٨٨٩

تجربة لا فائدة فيها

نحن الآن في منزل الآنسة (لوتيه تزنكنباخ) أو (زيزي) كما يسميها المقربون من عشاقها الكثيرين المعجبين بوجهها الأشقر الجميل وعينيها السوداويين وقوامها الفارع الرشيق!

أن لها شخصيتين متباينتين: أحداهما تبدو بالنهار أثناء تأدية عملها عارضة للأزياء الحديثة المبتكرة للطبقة الارستقراطية في أرقى المحال المخصصة لذلك في العاصمة النمساوية، حيث تقبل نساء هذه الطبقة على

شراء كل ثوب تعرضه متأثرات بما تضفيه عليه من الروعة والفتنة بقوامها الرشيق وجسمها الغض الناعم المصقول ونهديها البارزين ككرتين من العاج وفخذيها اللتين يشبهان فخذي فينوس ربة الجمال، وكل منهن تتوهم أنها هي أيضاً سوف تبدو رائعة فاتنة مثلها في ذلك الثوب، وكأنهن لا يعلمن ما فعلته السنون بقدودهن الملتوية وأجسامهن المحطمة!

أما الشخصية الأخرى للآنسة لوتيه تزنكشباخ فتبدو ليلاً حيث لا تكون بها حاجة إلى ارتداء ثياب على الإطلاق، لأن جسمها وحده هو كل ما ينشده عملاؤها في ذلك الحين!

ومن عجب أن الارشيدوق رودلف ولي العهد صار في مقدمة هؤلاء العملاء المعجبين بزيزي عارضة الأزياء للجنس اللطيف بالنهار وبائعة الحب للجنس الآخر بالليل!.. وقد اتفق معها على أن يدعوها إلى العشاء من حين إلى حين في مقابل أن تدعوه بعد ذلك إلى تمضية الليل في بيتها!

وأين ماري أذن.. خليلته المفضلة التي تعاهد وإياها على أن يعيشا معا في الحب حتى الموت؟!

الواقع أن حبه لماري لم ينقص قيد شعرة عما كان عليه أن لم يكن ازداد رسوخاً وتمكناً!. وقد غادر القصر الإمبراطوري إلى مدينة الملاهي بعد ذلك الحوار الذي دار بينه وبين والده الإمبراطور، وهناك أخذ يفكر في خلوته ويقلب الأمر على جميع وجوهه لعله يجد لنفسه مخرجاً من المأزق الذي أوقعه فيه رد روما، أو البابابليون الثالث عشر يرفض ما طلبه من فسخ زواجه بالارشيدوقة استيفاني، وإصرار أبيه على إبعاد ماري من طريقه بتزويجها من براجنس.

واستبدت به الهواجس، وأخذت حيرته تشتد كلما أمعن في التفكير!

لقد حطمت المفاجأة كيانه، وصارت إرادته مزعزعة مفككة!.. ولم يبق لديه شك في أن علاقته بماري تعرضه لمضاعفات شديدة الخطر، ولأحداث هائلة ومعارضات عنيفة شتى من جميع الجهات، كما قال له من قبل صديقه الأمير كوبورج!

وبدا له أن من الحمق أو الجنون أن يتصدى لمواجهة تلك العواصف الجامحة التي تكتنف طريق غرامه، فلن تكون نتيجة عناده ومكابرته إلا أن يضحي بكل شيء في سبيل ذلك الغرام!

ومضى يسأل نفسه وهو يسير وحده في مدينة الملاهي على غير هدى: "أنني أحبها!.. وهي أيضاً تحبني!.. هذا هو الواقع الآن وليس فيه أدنى شك!.. ولكن ماذا يمكن أن يكون بعد؟.. أليس من الجائز أن تخف ثورة هذا الحب؟.. ألا يمكن أن يخفق قلبي إعجاباً بامرأة أخرى كما يخفق بحبها الآن؟.. وماري نفسها؟.. ألا يحتمل أن يدركها السأم والملل فتحيد راضية أو مضطرة عن سبيل هذا الحب؟!.. أنها الآن قد لا ترضى بمثل براجنس بدلاً من الارشيدوق رودلف ولي العهد، ولاسيما أن أمامها أملا في أن يخلو وجه هذا الحبيب لها حين يتم طلاق زوجته البغيضة البدينة.. ولكن من يدري ماذا يكون شأنها في المستقبل إذا أنا لم أنحن لتلك العواصف الثائرة وركبت رأسي فضحيت في سبيلها بكل شيء، ثم صرت أنا وهي منبوذين من المجتمع ملعونين من الجميع شهيدين من شهداء الهوى والهيام؟!"

وهكذا غادر الارشيدوق رودلف مدينة الملاهي وقد نال الإعياء من جسمه وذهنه، وبقى كذلك أياماً وحالته النفسية تنتقل من سيئ إلى أسوأ، فلما وجد نفسه بعد ذلك أمام ذلك الإغراء الجديد من زيزي الغانية المحترفة

اللعوب، لم يجد قوة كافية للمقاومة، وسرعان ما استسلم من حيث لا يشعر، فقبل أن يكون واحداً من عملائها العديدين، ثم أمعن في الرضوخ والاستسلام فتعددت دعواته لها إلى العشاء ودعواتها له إلى بيتها... البيت الذي طالما استقبلت فيه من قبله كثيرين".

وكان طبيعياً أن ينتشر نبأ هذه العلاقة الجديدة في حياة الارشيدوق ولي العهد الشاب! فهناك في العاصمة النمسوية كثيرون لا يحلو لهم السمر إلا بتبادل الأحاديث حول المخازي، بعد أن يضفي عليها كل منهم ما شاء من المبالغات وتهاويل الخيال!.. وهناك كذلك عصابات دولية تخصصت في جمع الفضائح الكبرى من مختلف البلدان لتذيعها في مختلف البلدان!

على أن شيئاً من ذلك لم يفطن إليه رودلف، لأن الحالة النفسية التي كان فيها لم تدع له سبيلا إلى تعرف الطريق الجديد الذي انساق إلى سلوكه ليتبين ما يحف به من مكاره وعقبات!

وفي خلال تناوله العشاء مع زيزي في اليوم الأول لتطور علاقته بها إلى ذلك الحد، لم يسعه وهو يتأملها ويصغى إلى حديثها إلا أن يقارن بينها وبين ماري.. وبدا له الفرق هائلاً بين هذه وتلك!. وبخاصة بين حديث ماري الذي يسيل رقة وعذوبة وسلاسة وخفة روح وحدة ذكاء، وبين ثرثرة زيزي المصطنعة وضحكاتها الماجنة الخليعة التي اكتسبتها من بيئة مهنتيها بالليل والنهار!

وحينما ضمتهما غرفة النوم في تلك الليلة، لم تذخر زيزي فنا من فنون الإغراء التي برعت فيها إلا استخدمته لاجتذاب الصيد الجديد الثمين، ولكن لا جمالها الصارخ المبذول، ولا دلالها، ولا افتنانها في عرض مفاتن جسمها، ولا كل أسلحتها المكسوبة والموهوبة استطاعت أن تثير فيه عاطفة أو تحرك منه ساكناً!

واقتنعت أخيراً بأن لا فائدة من أية محاولة لحمله على الاستسلام لمداعباتها المصطنعة وغيرها من فنون الإغراء. فقد كان واضحاً أن الارشيدوق الشاب يستبد بنفسه قلق شديد مكبوت وهواجس ووساوس مروعة محزنة حتى لقد اغرورقت عيناه بالدموع. ولم يسعها إلا أن تسأله متلطفة وفي صوتها ما ينم عن دهشتها وأسفها: "أمريض أنت يا عزيزي كوكو؟"

وانتهزت هذه الفرصة السانحة للخروج من المأزق الذي وجدت نفسها معه فيه، فنهضت وأخذت تعد لرودلف فنجاناً من الشاي!

ومرت أيام، ثم تلقت ماري فجأة من رودلف دعوة إلى مقابلته على عجل. وكان في مكتبه ساعتئذ، ولا أحد غيره هناك بسبب عطلة الأحد الأسبوعية، فسارعت إليه وقلبها يكاد يقفز من بين ضلوعها لشدة خفقانه!

وما أن لمحها قادمة حتى خف إلى ملاقاتها، وضمها بكل قوته حتى كاد يسحق ضلوعها برغم نظراته التي كانت تفيض بالحب والعطف والحنان. وبقيت مستسلمة لعناقه حتى خفت حدته تدريجاً ورفع عنها حصار ذراعيه فوضعت يديها على كتفيه وحدقت في عينيه قائلة له: "رودي.. أيها الحبيب اللطيف!.. ماذا بك؟. أتحبني؟!"

ولم يسعفه لسانه بكلمة يجيب بها، لكنه قرب وجهه من وجهها ومضى يحدق فيها وعيناه الزرقاوان مبللتان بالعطف والحس المرهف. وهكذا كان منظره صامتاً أبلغ من كل كلام. والواقع أنه في هذه اللحظة كان يحدث نفسه قائلاً:

– إذا كانت الحياة لا مكان فيها لسعادة أحد من الناس فماذا هناك مما يرغب في الحياة؟.. لقد منحتنا السماء نعمة الحب وخير لنا أن نموت به من

أن نعيش بغيره!

وتمتمت ماري قائلة في صوت هامس متقطع: "رودي!.. أنني أحبك!.. نعم أنا أحبك كل الحب. وأنا.. لك.. وحدك!.. كما أنك أنت.. لي.. وحدي!"

وسرعان ما تبخرت من ذهنه فكرة الموت وعاد يحدث نفسه قائلاً: "الشباب والحب معجزة الحياة!.. يا للحب من رابطة قوية بين قلبين!.. وأذن.. كلا!. أن الموت قسوة لا تطاق.. أنه أمر بغيض لا ينبغي الإقدام عليه هكذا!"

يوم الخميس ٢٤ من يناير.

متحدان في الحب حتى الموت.

العاشقان المتيمان –رودلف وماري– في قصر مايرلنج، وقد طال بهما الجلوس أمام المدفأة يشاهدان ألسنة اللهب المندلعة من الأحطاب الموقدة. بينما ريح الشتاء العاصفة تصفر وتزار في الخارج. وكان المحور الذي يدور حوله حديثهما موقفهما الحرج بعد رفض الفاتيكان إجابة طلب رودلف.

وكانت ماري رائعة في صمتها وتفكيرها وإصغائها لآراء رودلف، كما كانت رائعة في شرح وجهة نظرها في ذلك الموقف العصيب.

ومن عجب أن تفكيرهما التقى غير مرة عند النقطة التي ابتدأ منها منذ بلغا قمة الحب.. أما أن يعيشا معا في حرية كاملة حتى الموت، وأما أن يضعا حداً لحياتهما معا!. فلا خير لأحدهما أو كليهما في حياة يتقيدان فيها بمظاهر الاستبداد، ويعيشان في هموم دائمة ووساوس لا نهاية لها، بين واجبات وأعباء ثقيلة لابد من تأديتها والاضطلاع بها وبين قلق يهد الكيان

ويحطم القلب والروح، وأكدار متجددة متعددة تعكر الصفو وتذهب بالأمل وتغيب ذكريات الماضي السعيد تحت أنقاض الحاضر الكئيب البغيض.

على أن رودلف كان أشد رغبة في الموت، وكان يراه خير الوسائل إلى خلاصهما معا من الحياة القلقة المضطربة التي تنتظرهما، وإلى استمتاعهما إلى الأبد بالهدوء والسكون وسلام الروح.

ومن حين إلى حين، كان العاشقان اليائسان يعودان إلى رشدهما، وتغلب عليهما نزعة الشباب فتبعث في نفسيهما حب الحياة والنفور من الموت، ويعود كل منهما للبحث عن حل آخر للخروج من المأزق الذي هما فيه!

ولم يتركا سبيلاً إلا سلكاه، ولا بابا إلا طرقاه.. بيد أن سداً منيعاً من الحيرة واليأس كان يقف في وجهيهما ويضطرهما إلى التفكير في الموت من جديد!

أن حياتهما في المستقبل، ستكون عبئاً ثقيلاً عليهما لا طاقة لهما بالنهوض به: فالقصر الإمبراطوري يخاصمهما علانية، وأفراد الحاشية جميعا سوف يتحاشون كل اتصال بهما، ولسوف توجه إليهما دائماً أشد عبارات السخط والاستهجان. وصحف العالم كلها ستمعن في حملة التشهير التي بدأتها ضد حبهما المتبادل المكين!

ولقد كان رودلف كبير الأمل في أن تقف بجانبه صحف المعارضة والأقليات والهيئات الشعبية كلها، لما عرف به قبل ذلك من العطف على مطالبها والتصدي للدفاع عنها. ولكن شد ما كانت خيبة أمله إذ تنكر له الجميع، وقابلوا إحسانه بشر الإساءات، فانساقوا مع تيار السخط العام، وأمعنت صحفهم في التشهير به وبماري، وفي تصوير الارشيدوقة استيفاني

زوجته بصورة الشهيدة الصابرة إزاء ما لحق بها من عدوان!.. وهكذا لم يبق في أنحاء الإمبراطورية كلها من لم يشترك في حملة التشهير بالعاشقين البائسين!.. حتى اليهود الذين طالما غمرهم رودلف بعطفه ورعايته!.. وحتى البولونيين، والروسيين الذين نفاهم القياصرة فلجئوا إلى النمسا وكان لهم نعم الناصر والمعين!

كانت هناك خطة مرسومة مدبرة، يتبعها الجميع بلا استثناء. وهكذا حدث رودلف نفسه قائلاً في يأس ومرارة: "آه!. ما أقبح هذا العالم الذي نعيش فيه!.. حقا أنها لغنيمة كبرى أن نصبح بفضل الموت بمنأى عن هذا العالم الشرير!"

وكان أشد ما يخشاه الارشيدوق الشاب أن تشتد ثورة الأمهات ضده متأثرات بما تكتبه الصحف المغرضة عن الأميرة الصغيرة إليزابيث ابنته من الارشيدوقة، وعن البؤس الذي ينتظرها إذا تركها وأمها ليعيش مع ماري وقال لهذه أخيراً:

– أليس الأفضل في مثل هذه الحال أن نغادر هذه العاصمة الظالمة؟.. بل نغادر النمسا كلها؟.. أن البعد عن الوطن والعيش في المنفى بين الغرباء لأهون كثيراً من هذه الحال!

فقالت له ماري: "كلا يا رودي!.. ليس هذا حلاً مرضياً!"

ونظر إليها متسائلاً في عجب: "ماذا؟.. أنفترق أذن؟"..

فقالت: "كلا!. لست أقصد هذا، ولا يمكن أن أقصده!.

فسكت قليلاً ثم قال: "أذن.. لا مناص من أن نتحد في الحب حتى الموت!"

يوم الجمعة ٢٥ من يناير.

سر المؤامرة.

نحن الآن في قصر الكونتيسة دي لاريش، وقد هرع البواب إلى رئيس خدم القصر معلناً أن بالباب ضابطاً يطلب مقابلة الكونتيسة، ويلح في التعجيل بإبلاغها ذلك، لأن لديه مسألة ذات شأن يريد التحدث فيها معها وحدها.

وسارع رئيس الخدم إلى ربة القصر يبلغها نبأ الزائر المتعجل، فارتسمت على وجهها أمارات الدهشة والأسف: وتأوهت قائلة: "هذا شيء يدعو إلى الكدر!. لقد خمدت نار المدفأة في قاعة الاستقبال، ولكن دعه إذن ينتظر في غرفة النوم!"

واشتدت دهشة الكونتيسة إذ دخلت غرفة النوم فوجدت الضابط الزائر واقفاً لم يخلع قفازه بعد، وفي يديه حقيبة كبيرة، وبعد أن أدى التحية في قلق أجال نظره في الغرفة كأنما يريد التحقق من أن أحداً لا يسمعه غير الكونتيسة ثم قال لها في صوت خافت مضطرب لا يتفق وبذلة ضباط المدفعية التي يرتديها:

– سيدتي.. أنه صندوق.. صندوق من الحديد!

وقبل أن تجيب الكونتيسة بأية كلمة، طرق باب الغرفة، ثم ظهر عنده رئيس الخدم وقال لسيدته في صوت متقطع:

– سيدتي.. لقد حضر صاحب السمو الارشيدوق رودلف!

ومرة أخرى أدى الضابط الزائر لها التحية وقال: "سيدتي.. لقد انتهت

مهمتي وأستأذن في الانصراف!"

وفي طريقه إلى الباب الخارجي للقصر، التقى والارشيدوق رودلف فسأله هذا: "هل انتهيت؟". فقال: "نعم". ثم أدى التحية العسكرية مرة أخرى، مستأذناً في الانصراف، فأذن له مغمغماً بكلمة شكر، ثم مضى إلى حيث كانت الكونتيسة واقفة في انتظاره: فقالت له بعد أن تبادلا تحية قصيرة: "ما هذا الصندوق الحديدي.. أنه لغز كما ترى يا ابن العم!"

فقال لها: "أنه يحوي رسوماً.. بياناً خاصاً بمشروع لتحرير جزء من الإمبراطورية.. أن جلالة الإمبراطور لن يقر ذلك طبعاً، عناداً منه ومكابرة!. ولكن الأمر يتعلق بشرف النمسا وسلامتها!.. والساعة ليست ملائمة، ولهذا أرجو أن تحفظ هذه المستندات في حرز حريز لا يصل إليه أي أحد، وألا تعرض للخطر كل من اشترك في إعدادها!"

وابتسمت الكونتيسة وقالت: "على كل حال ليس هناك خطر عليك أنت: أليس كذلك؟"

فقال الارشيدوق رودلف: "من يدري؟!". ولم يزد على ذلك شيئاً. فعادت تسأله في اهتمام: "من يدري؟!.. أرجو أن تزيدني إيضاحاً".

فقال لها: "ليس هذا وقته يا ابنة العم العزيزة!.. فمعذرة، ولنؤجل ذلك حتى حين.. فالمهم الآن أن يودع هذا الصندوق فوراً عند..".

وقطعت الكونتيسة كلامه قائلة: "أنك تخيفني يا رودلف يا له من لغز!.. لست أعتقد أن هناك مؤامرة أو دسيسة.. ولا أعتقد أن أحداً يتجسس عليك.. وليس هناك ما يحملك على أن تعتقد أن...".

فقطع كلامها بدوره قائلاً: "أصغي لما أقوله يا ابنة العم.. هذا الصندوق

يا عزيزتي يجب أن يحافظ عليه كل المحافظة إلى أن يأتي غداً في الساعة الثالثة بعد الظهر من يتسلمه!.. وستكون كلمة السر التي يسلم إليه بمقتضاها أن ينطق هذه الأحرف R.L.V.O وبهذا الترتيب نفسه!"

فابتسمت الكونتيسة دي لاريش مرة أخرى وقالت للارشيدوق رودلف: "يلوح لي أننا في حالة انفعال وتأثر غير طبيعية!.. وأننا بعبارة أخرى كأنما نستعد لتمثيل رواية مثيرة تستمد حوادثها من قصة غريبة تنشر فصولها مسلسلة إحدى الصحف اليومية!"

فقال الارشيدوق رودلف من غير أن يبتسم: "الواقع أنه كان يمكن أن يكون الأمر كذلك لو أن هذا الصندوق فتح وعرف ما يحويه. والآن أرجو أن تسمحي لي بأن أضع الأختام على قفله، وأن أعتمد عليك في المحافظة عليه حتى يتم تسليمه غدا في ذلك الموعد وطبقا لكلمة السر التي ذكرتها لك!"

ولم يستغرق وضع الأختام غير دقائق معدودات، نهض بعدها رودلف وطبع على يد الكونتيسة قبلة رقيقة متهيئاً للانصراف. فقالت له وهي تشيعه مودعة حتى باب غرفتها الخاصة: "اعتمد على يا ابن العم، سأجعل من صدري صندوقاً مغلقاً لسر صندوقك المختوم!"

وقد أبدعت الكونتيسة دي لاريش تصوير هذا المشهد الطريف فيما سجلته في مذكراتها الخاصة، كما أبدعت في الدفاع عن موقف الارشيدوق رودلف من تلك الحركة التي احتضنها وتزعم القائمين بالسعي في سبيلها، أي تحرير جزء من إمبراطورية النمسا.

وجاء في مذكراتها الخاصة هذه عدا ذلك أن رودلف كان معتزماً أن يقطع كل علاقة له بالناس، وأن يعيش في معزل لا يعكر فيه صفو مزاجه شيء.

أما رسوله الذي تسلم الصندوق في اليوم التالي، فلم يكن سوى الارشيدوق سلفاتور، وقد تنازل عن لقبه بعد حين واتخذ لنفسه اسم "جان أورت". ثم نفى بعد ذلك وقام برحلة بحرية اختفى أثناءها إلى الأبد في حادث اكتنفه الغموض والإبهام!

يوم السبت ٢٦ من يناير.

ميراث.. قبل الموت.

نحن الآن في منزل ضابط شاب من ضباط القصر الإمبراطوري، هو الملازم الأول الكونت جونداكاي فيرسبرانت. وقد جلس في حجرة الاستقبال يرقب بابها بعينين قلقتين. وأخيراً ظهر الزائر المجهول الذي كان ينتظره، وحياه في أدب جم وهو يمد إليه يده بصندوق صغير قائلاً: "سيدي.. أني رسول إليك لأسلم هذا الصندوق يداً بيد!".

ومد الكونت يده لتسلم الصندوق بعد أن رد تحية الرسول في غير اكتراث، ثم أذن له في الانصراف شاكراً. وما كاد هذا يغادر الحجرة حتى سارع الكونت إلى قطع الخيوط التي أحكم بها ربط الصندوق المرسل إليه، ثم كشف عنه الغطاء وأخذ يتأمل ما فيه، ووجهه ينم عن شدة تأثره.

كان الصندوق يحوي خاتماً ذهبياً صغيراً ذا فص من الزمرد النادر المنقوش.

ولم يكن هذا سوى خاتم البارونة الصغيرة الحسناء ماري فتسيرا، الذي كان أول هدية إليها من الارشيدوق رودلف منذ خمسة أشهر، وقد استرعى أنظار كل من شاهدوه في أصبعها عقب ذلك، وكان الكونت فيرمبرانت نفسه في طليعة المعجبين به، وداعبها يومئذ بأن طلب إليها أن توصى له به فوعدت

بذلك مبتسمة!

لكن.. لماذا تبعث به إليه الآن؟.. وكيف يرثها وهي ما زالت على قيد الحياة؟!

يوم الأحد ٢٧ يناير.

حفلة لتكريم الإمبراطور غليوم الثاني.

في الساعة الحادية عشرة صباحاً، توجه الارشيدوق رودلف في عربته إلى مدينة الملاهي "براتر".. وفيما هي منطلقة به في طرقات المدينة التي تحف بجانبها الزهور، وقد استغرق في تفكير عميق حزين شغله عن كل ما حوله هناك، حانت منه التفاته إلى عربة أخرى مرت به، فإذا الارشيدوقة استيفاني زوجته جالسة فيها، وكانت وحدها أيضاً، كما كانت مثله مستغرقة في تفكير عميق حزين!

وكانت الإجراءات قد اتخذت لإقامة حفلة راقصة في المساء بالقصر الإمبراطوري تكريماً للإمبراطور غليوم الثاني إمبراطور ألمانيا لمناسبة بلوغه الثلاثين من عمره، ودعي إليها الأمير دي رويس سفير ألمانيا في فيينا، كما دعي إليها كثيرون من الأمراء والأشراف والضباط وأفراد الحاشية والطبقة الارستقراطية في العاصمة.

ولم تدع ماري إلى هذه الحفلة، ولكنها حضرتها استجابة لرغبة رودلف، وأوقع حضورها رجال البرتوكول في مأزق حرج، لكنهم جميعا لم يسعهم إلا تجاوز القواعد المرعية والسماح لها بالدخول خشية إغضاب الارشيدوق ولي العهد، إذ كانت علاقتها به أشهر من نار على علم. كما أن جمالها الرائع، وبراعتها في الرقص والحديث، والجواهر النادرة الكثيرة المهداة إليها من ولي

العهد.. هذه كلها كانت مما يجعل وجودها مرغوباً فيه لا في هذه الحفلة وحدها بل في جميع الحفلات!

وأيا ما كان الأمر، فقد أثار حضور ماري إلى الحفلة الساهرة الراقصة بالقصر الإمبراطوري جواً مليئاً بالهمسات والأقاويل المختلفة أشترك فيها أكثر الحاضرين والحاضرات، في القاعة الكبرى وفي الحجرات والردهات المتصلة بها.

وفي أثناء الرقص وقع حادث لم يكن منتظراً، اهتزت له أرجاء القصر كلها، واستحالت الهمسات الفردية بعده إلى ما يشبه الضوضاء.. فقد كانت الارشيدوقة استيفاني زوجة الارشيدوق رودلف في طريقها إلى القاعة الكبرى من الحجرة التي كانت جالسة فيها، وكانت تستند إلى ذراع الأمير دي رويس سفير ألمانيا، وفجأة وجدت نفسها وجها لوجه أمام ماري التي كانت خارجة من القاعة الكبرى يصحبها بعض الضباط!

وجمدت الارشيدوقة في مكانها كأنما استحالت تمثالاً من الشمع!.. وأخذ جسمها البدين ينتفض كأنما انتابتها رعدة الحمى!.. بينما انبعثت نظراتها الشزراء تتفحص غريمتها من قمة رأسها حتى كعب حذائها، وزاد في حنقها أن البارونة الصغيرة الحسناء كانت تزين شعرها الغزير المسترسل بهلال كبير الحجم من الماس عدا اللآلئ والجواهر المتلألئة حول عنقها ومعصميها وفوق صدرها. وكان كبار المدعوين والمدعوات ما يكادون يلمحون الارشيدوقة حتى تنحني رؤوسهم ورؤوسهن تحية لها وإجلالاً، ولكن ماري نسيت أو تناست هذا الذي تقضي به التقاليد وقواعد البروتوكول فلم تزد على أن وقفت هنيهة تحدق في الأميرة الحانقة زوجة خليلها.. حتى لكأنما كل منهما تتأهب للانقضاض على الأخرى!.. ثم علت شفتيها ابتسامة تفيض

بالسخرية والزراية والاستخفاف واستأنفت سيرها ومضت لا تلوى على شيء.

وتمتمت الارشيدوقة قائلة: "كيف أتيح لها أن تحضر هذه الحفلة؟!"

وترامت عبارتها إلى سمع ماري، لكنها تجاهلت ومضت في طريقها غير عابئة!. وماذا يهمها من غضب الارشيدوقة وسخطها؟ أليس الارشيدوق رودلف قد آثرها عليها؟. أليس جميع من في الحفلة من الكهول والشباب يتزاحمون حولها هي ويتهافتون على الاستماع لحديثها والانحناء إجلالاً لها، ويتسابقون إلى مرضاتها وتملقها وكل منهم يمني نفسه بأن تمنحه شرف مراقصتها؟!

وقد رقصت معهم جميعا، وتحدثت معهم جميعا، وبقيت كذلك حتى الساعة الخامسة صباحاً، ومن حين إلى حين كانت تنفلت في لطف من بين المحيطين بها من النبلاء وكبار الضباط وموظفي السلك السياسي، لكي تخلو إلى رودلف بعض الوقت وتتحدث معه خلف أحد الأعمدة أو أصص الأزهار والورود. وكانت سيدات القصر الإمبراطوري يختلسن النظر إلى العاشقين من بعيد، فلا تجرؤ أحداهن على أكثر من همسة أو غمزة لا تكاد تبين!

يوم الاثنين ٢٨ يناير.

من مذكرات البوليس.

في تمام الساعة السادسة من صباح كل يوم يشرع جلالة الإمبراطور فرنسوا جوزيف في استقبال رجال حاشيته وزائريه. وقد جرت العادة بأن يكون رئيس الشرطة أول من يدخل على الإمبراطور ليعرض على جلالته أخبار الليلة الماضية.

ومن بين الأخبار التي عرضها هذا صباح اليوم، مذكرتان مفصلتان عن

مسلك كل من الارشيدوق رودلف ولي العهد وخليلته البارونة ماري فتسيرا. وقد تضمنت المذكرة الأولى أن رودلف شوهد في الساعة الثالثة من مساء اليوم السابق يعبر قنطرة فرديناند متخفياً وبجانبه فتاة أنيقة الملبس رشيقة القد. ثم توغلا معا في حي ليوبولد وقد تأبط كل منهما ذراع الآخر، وتقارب وجهاهما في غير اكتراث بكثرة المارة هناك. وتضمنت المذكرة الأخرى أن ماري حضرت الحفلة الساهرة الراقصة في القصر الإمبراطوري من أولها إلى آخرها برغم أنها لم تدع إليها، ثم أفاض رئيس الشرطة في تسجيل كل كبيرة وصغيرة من تصرفات ماري خلال الحفلة، وبخاصة موقفها المخالف للتقاليد حين التقت والارشيدوقة استيفاني قرينة ولي العهد. فلم تقم بالتحية الواجبة لسموها، وحين كانت تخلو إلى ولي العهد خلال الحفلة ويتبادلان المناجاة!

وأثارت المذكرتان ثائرة الإمبراطور، وحدث نفسه قائلا: "يا لها من فضيحة!. أكان على أن أخالف عادتي فلا آوى إلى فراشي في الساعة العاشرة مساء وأحضر الحفلة الساهرة لأمنع وقوع تلك الفضيحة؟!.. أن رودلف قد جاوز كل حد بإمعانه في تمثيل هذه المهزلة!. كيف يجرؤ على العودة لتلك الغانية المستهترة اللعوب، والظهور معها أمام الناس بمظهر لا يليق حتى بالرعاع. كلا! هذه قحة يجب أن تقابل بكل حزم وشده!"

واشتد الغضب بالإمبراطور العجوز، ودق المكتب بقبضته في حنق وغيظ، وهو يسأل نفسه بصوت عال: "كيف يكون هذا؟!. ماذا يقول الناس عن ولي العهد إذ يرونه هكذا قدوة سيئة لشعبه مهملا أقدس واجباته؟!. وما ذنب الارشيدوقة استيفاني زوجته المسكينة حتى تجد نفسها في ذلك الموقف المهين؟!"

ثم أمسك الإمبراطور قلمه بيده المرتجفة وخط به رسالة إلى رودلف

دعاه فيها إلى مقابلته في الساعة العاشرة من صباح اليوم نفسه، وكلف رئيس الشرطة أن يحملها إليه فورا!

وكان رودلف قد اتفق مع الكونت هويوس والأمير دي كوبورج على أن يسبقاه في ساعات مبكرة من الصباح إلى قصر مايرلنج ثم يلحق بهما في عربته بعد قليل حيث يقومون بالصيد ويتناولون غداءهم بالغابة، ثم يعودون للقصر في المساء. وفيما هو يتأهب للحاق بصديقيه في عربته التي يجرها جوادان سريعان، إذا برسول الإمبراطور يصل ويسلم إليه رسالته. فلما اطلع على ما فيها تجهم وجهه وشعر بأن وراء المقابلة العاجلة المطلوبة ما وراءها، غير أنه تمالك نفسه وصرف الرسول شاكراً، ثم كتب رسالة قصيرة سلمها إلى سائق عربته وأمره أن يمضي في طريقه إلى قصر مايرلنج ليسلم الرسالة إلى صديقيه المنتظرين هناك.

وقد اعتذر إليهما رودلف من اضطراره إلى التخلف لتوعك خفيف ألم به، وطلب إليهما أن يتفضلا بتناول الغداء والصيد في الغابة من غيره، متمنياً لهما حظاً سعيداً في الصيد. على أن يلتقوا جميعا في المساء.

ولم تمض ساعتان حتى كانت رسالته قد وصلت إلى صديقيه، فوجما قليلاً، ثم لم يسعهما إلا النزول على رغبته.

ولا يدري أحد كيف قضي الارشيدوق رودلف هاتين الساعتين. على أنه شوهد في الساعة التاسعة والنصف في مدينة الملاهي (براتر) مستقلا عربة مكشوفة برغم اشتداد البرد في ذلك اليوم، وكانت العربة في طريقها به إلى القصر الإمبراطوري لمقابلة الإمبراطور أجابه لدعوته، وقد جلس فيها مطرقاً معتمداً ذقنه بيده وقد استغرق في تفكير عميق حزين!

لقد كان يسأل نفسه وقد عم الاضطراب جسمه وذهنه: "أي مصير ينتظرني يا ترى؟!". فهو فيما صار يعتقد قد اخفق في خططه ومشروعاته السياسية، كما أخفق في حياته الزوجية!.. وهذه هي روما أو علاقة البابا بأبيه الإمبراطور قد أتت على ما شاده من صروح الآمال. وليس في وسعه أن يصنع شيئاً يغير ذلك الفشل، فأبوه غير راض عنه، وزوجته تسيء فهم نواياه، والكنيسة تعده مسيحياً واقعاً في الخطيئة والإثم وقد ولي عنه من كان يعتمد على مناصرتهم له في الإصلاح من عقلاء الشعب وخاصة الأصدقاء!

وكان بعد هذا كله يظن أنه وجد في الحب ملجأ يركن إليه، ويتقي في ظلاله حر النار المستعرة التي أحاطت به من كل جانب، ولكن الحب أيضاً لم يكن عند حسن ظنه به، وهل هذه الآلام والمتاعب التي يقاسيها ألا بعض ما جره الحب عليه؟!

جدال وتهديد!

الساعة العاشرة صباحاً.

أداء اليمين.

وصلت العربة برودلف إلى القصر الإمبراطوري قبيل الموعد المحدد له للمقابلة، وأخذ يرد تحيات الحراس ورجال الحاشية والخدم وذهنه ما زال مشغولاً بتلك الأفكار السوداء اليائسة التي استولت عليه وزادته بغضا للحياة. ولولا التقاليد وبقية من الصبر الذي أخذ نفسه به لاستجاب للرغبة القوية التي كانت تلح عليه ليصيح بهم قائلا: "دعوني يا قوم!.. دعوني أعيش بسلام مثلما يعيش فرد مجهول من أفراد الشعب وعامة الناس!"

وكانت مفاجأة شديدة الوقع على نفس الارشيدوق اليائس الحزين إنه دخل مكتب والده الإمبراطور فإذا الارشيدوق استيفاني زوجته جالسة هناك!

وقال لنفسه وهو يحيي والده: "إذن فالمقابلة في شأنها؟.. أنها ليست جديرة حتى بالمقت والكراهية، ولكن شد ما يؤلمني أن أرى هذه الهرة المستأسدة! يا للحماقة التي ربطت حياتي بهذه البلجيكية المترهلة المتعاظمة، الفنانة الزائفة ذات الأشعار الفجة والرسوم السخيفة والعزف الذي يخدش الأسماع!.. أين هي من الأخرى.. من ماري الرشيقة الجميلة الذكية المرحة؟!"

وقطع الإمبراطور فترة الصمت التي أعقبت دخول رودلف، كما قطع في الوقت نفسه سلسلة الأفكار التي دارت برأس ولي عهده وهو واقف أمامه،

وقال له في حدة وغلظة وجفاء:

– ما هذا يا فتى؟.. أي مسلك شائن هذا الذي تسلكه، وكيف تجرؤ على الظهور علانية مرة أخرى مع تلك التي تدعى ماري فتسيرا.. ألم يكف أنك وقعت في ذلك الخطأ الفاحش إذ حاولت من أجلها الانفصال عن الارشيدوقة زوجتك؟!.. ما هذا العناد وما هذه المكابرة؟. إنهما لإجرام لاشك فيه!.. وما هذا الظلم الذي تقترفه في حق زوجتك وابنتك وأسرتك ومركزك؟.. إنه لتصرف كله حماقة بل كله جنون!.. وأن إصرارك على علاقتك الحقيرة بتلك الخليلة الغادرة الأنانية المستهترة لهو منتهى الجهل والغباء. ولا يمكن بحال أن يقرك عليه أي إنسان!.. هذا إلى جرأتك التي لم تقف عند حد بالخروج السافر على التقاليد المرعية والسماح لمثل تلك الداعرة المنبوذة بحضور المهرجان الرسمي بالقصر وهي غير مدعوة إليه!

وسكت الإمبراطور، فأعقبته الارشيدوقة استيفاني قائلة لزوجها:

حقا يا رودلف أن مسلكك لم يعد السكوت عليه ممكناً!. وكان الأجدر بك، حفظاً لكرامتي، ومراعاة لابنتك الصغيرة إليزابيث ألا تمعن في الاستهتار هكذا.!

ثم أشتد صوتها حدة ووجهها تجهما وبدنها ارتعاشاً ومضت في تأنيب رودلف قائلة:

– إنك تتجاهل بصورة مفضوحة ما يفرضه عليك مركزك من واجبات مقدسة!.. وقد يكون إهمالك شأني بوصفي زوجة مما تكفي فيه المعاملة بالمثل.. ولكنك تنسى بلجيكا وطني، وصحيح أنها بلاد ضئيلة الحجم كما تقول، ولكن لاشك في أن أمير من الأسرة المالكة البلجيكية، ما كان ليسمح

له قط بأن...

وهنا يقطع الإمبراطور كلامها حتى لا تمضي في الموازنة والمقارنة بين البلدين، ويستأنف توجيه اللوم والتأنيب والتقريع إلى رودلف قائلا:

– أن هذا لكثير!.. أن الإمبراطورية والتاج في خطر!.. أحسبت أن تصرفاتك الصبيانية الحمقاء تبقى طويلا في الخفاء؟.. أن النار التي تلعب بها لن تحرق أصابعك أنت وحدك.. أن حماقتك وجنونك يهددان الإمبراطورية كلها وضررهما آخر الأمر لابد أن يحيق بي أنا، ومن هذا لم أكن بالغافل عما تعمل. ولقد رأيت بنفسك كيف انتهت بالفشل مساعيك للحصول على الطلاق من الارشيدوقة.. وإني لعلى يقين تام من أمر كل خطوة أخرى دفعتك إليها حماقتك، فأنا أعلم كل شيء عن مقابلاتك المتعددة لأولئك الذين تحوم حولهم الشكوك والاتهامات، وأنا أعلم كل كبيرة وصغيرة من الأحاديث التي جرت خلال اجتماعاتك المريبة وزياراتك الغريبة للديمقراطيين، وما كنت بالذي يسكت على كل هذا الاستهتار وتحريض الإمبراطورية للأخطار!

وهنا رفع رودلف رأسه وقال لأبيه: "لست أنا من يعرض الإمبراطورية للخطر، وما ينبغي لي أن أقدم على أمر كهذا، وإنما أنا أنشد خير النمسا أولاً وأخراً، وارمي إلى توطيد أركانها وإنهاض شعبها بإقامته على دعائم قوية من الجماعات المتجانسة التي تربطها صوالح مشتركة و...".

ولم يدعه الإمبراطور يتم كلامه وصرخ في وجهه قائلا:

– بل قل أنك تريد تقطيع أوصال النمسا!.. تريد أن تجعلنا أضحوكة في فم التاريخ والأجيال المقبلة!.. مرحى مرحى أيها الفتى!.. أبلغ بك الغباء إلى هذا الحد؟!.. أتسمى قلب نظام الحكم إصلاحا؟!.. ألا تدري أن محاولاتك

هذه ليست سوى الخيانة العظمى بعينها؟!.. ألست تدرك أن في استطاعتي الآن أن آمر بالقبض عليك وتقديمك للمحاكمة على هذه الخيانة حيث لا يكون جزاؤك إلا القتل بالرصاص؟!

ورأت الارشيدوقة استيفاني أن المشادة بين الإمبراطور وولي عهده جاوزت الحد، فتدخلت قائلة: "خيانة عظمى وقتل بالرصاص؟!.. لا.. لا يا صاحب الجلالة!"

إنها لم تكن تضمر لزوجها أي حب أو احترام بعد كل ما كان منه نحوها، ولكن هذا لم يحل دون إشفاقها من أن يموت، وأن يموت مقتولاً محكوماً عليه بالخيانة العظمى!

وخفف الإمبراطور من حدته، واستأنف كلامه فقال لرودلف:

– والآن يجب أن نسوى الحساب!.. أن أول ما أرغب فيه هو قطع دابر هذه الفضيحة حتى تذهب إلى غير رجعة!.. لقد نفذ صبري، ولا أريد أن تضطرني إلى إصدار أمر بنفي تلك الفتاة المغامرة من البلاد!.. فلتقطع أنت إذن كل علاقة لك بها، وكفى ما ساقتك إليه من حماقات جدير بها أن تحسبك في عداد الأغبياء!. ثم أنني بوصفي رب الأسرة وبوصفي رئيس الدولة، لا يسعني ألا أن آمرك أن تمتنع بتاتاً عن الاشتراك في مثل تلك المشروعات السياسية الخرقاء. وهأنذا أطلب منك أمام الارشيدوقة زوجتك أن تقسم الآن بشرفك لتنفذن ما آمرك يه في غير تردد أو إبطاء!

وكان رودلف يستمع لهذه العبارات وما قبلها من أبيه، وقد استولى عليه شعور قوي بأن أنانية هذا الأب وقسوته ورجعيته قد انتزعت كل ما كان قد بقي له في قلبه من حب واحترام، بل لقد شعر بأن صلة ما لم تعد تربطه

بذلك الإمبراطور الرجعى العجوز. فلما طلب هذا منه أن يقسم بشرفه لينفذن تلك الأوامر الصارمة، لم يرد على أن غمغم قائلا: "ماذا؟.. قسم؟.. شرف؟!" بينما مضي الإمبراطور في حديثه فقال:

– هيا يا رودلف!.. إنني انتظر الجواب.. أم أنت لا تريد أن تجيب رغبة أبيك ولا أن تنفذ أمره بوصفه رئيس الدولة؟!. هيا يا بني!. قل. تكلم.. أنني أثق بأنك ستكون عند كلمة الشرف التي تلفظها وتشهد عليها الله!

وألقى رودلف نظرة خاطفة على كل من أبيه وزوجته، وخيل إليه أنه في موقفه أمامهما أشبه بمؤمن خاطئ عليه أن يعترف بخطيئته أمام الكاهن ليمنحه التوبة والغفران. ثم عاد إلى إطراقه وهو يفكر فيما وراء ذلك القسم المطلوب، ويكاد يشعر بالمرارة التي يغرسها في قلبه حرمانه من ماري بعد ذلك، بل يشعر بأن هذا الحرمان هو وموته سيان. ثم رفع رأسه أخيراً ونظر إلى أبيه وقال:

– ولكن يا أبي.. أن علي واجبات نحوها يجب أن أؤديها!

ولا تكاد الارشيدوقة زوجته تسمع ذلك منه حتى يعاودها التجهم وتمط شفتها السفلى دلالة على الاستنكار والاحتقار، ثم تدير وجهها متشاغلة عنهما. في حين بدا الارتياح في وجه الإمبراطور وأن تظاهر بغير ذلك وخاطب رودلف في صوت متهدج قائلا وهو يدق المكتب بالقلم الذي في يده:

– أن مركزك بوصفك ولي العهد أي إمبراطور المستقبل لا يجعل عليك أي واجب إلا المحافظة على سلامة الإمبراطورية وكرامتها ورفاهية شعوبها، وإذا كنت قد تعهدت لتلك الفتاة بشيء مادي فمن واجبك أن تؤديه إليها أيا كان كاملا غير منقوص.. أن قلوبنا يا بني لا يمكن أن تخلو من الرحمة والشفقة!

وكان الإمبراطور وهو ينطق بكلمتي الرحمة والشفقة ترتسم على وجهه إمارات الارتياح والاطمئنان كأنما برأ بهما ضميره من كل لوم يمكن أن يوجه إليه!. أما رودلف فكان وجهه ينم عما اختمر في صدره من هموم وآلام، وكانت أنفاسه تتلاحق كأنفاس المحموم، فالواقع أنه كان يرى أن ماري لم يكن لها من غرض ترمي إليه سوى التفاني في الحب الطاهر المقدس، وهي إذن لا يمكن أن تكون غادرة كما وصفها أبوه، ومن الظلم الذي لا ظلم بعده أن تعامل معاملة غانية مستهترة يكتفي بمنحها بعض المال جزاء ما قدمت من خدمات وتضحيات استمتع بها ثري من الأثرياء!

وكأنما استطال الإمبراطور سكوت رودلف فاستعجله قائلا: "هيه يا رودلف؟!.. من الخير أن نعجل بالبت في هذه المسألة، هيا يا بني أد اليمين المطلوبة!"

وقال رودلف لنفسه: "يلوح لي ألا مخرج من المأزق إلا على هذا النحو، ولعل ماري نفسها ليس من صالحها أن تترك المسألة معلقة هكذا فتكون حياتها مأساة لا نهاية لها!."

ثم عاد أبوه يستعجله مرة أخرى، ويلقنه عبارات القسم المطلوبة، فلم يسعه إلا أن يرددها معه كلمة كلمة وكأنه ينتزع مع كل كلمة منها قطعة من قلبه: "أقسم. بشرفي. أمام الله. أن أتنازل. عن كل ما من شأنه.. إبقاء علاقتي.. بماري فتسيرا!"

وعلى أثر ذلك تنهد الإمبراطور دلالة على الارتياح وقال له "حسنا!. تستطيع أن تنصرف الآن.. أنني أثق بأنك ستحافظ على عهدك وتبر بقسمك، فإذا أنت لا قدر الله نكثت بالعهد وحنثت في هذا القسم المقدس فأني أبرأ منك إلى الأبد، وفي الوقت نفسه أصدر الأمر بنفي ماري فتسيرا من البلاد!"

وتردد الارشيدوق رودلف قليلا، ثم قال لأبيه:

– لي رجاء واحد بسيط.. أريد ألا يبلغ ماري هذا القرار أحد سواي. فأرجو أن تسمح من أجل ذلك بأن ألقاها للمرة الأخيرة!

فقال الإمبراطور: "تريد أن تلقاها للمرة الأخيرة؟.. حسنا يا بني.. ولكن لتكن المرة الأخيرة حقا!"

فقال رودلف في صوت خافت ملؤه اليأس والمرارة: "لقد أقسمت أمامك بشرفي يا أبي، وأشهدت الله على ذلك. فلم يبق هناك أي مجال لاستمرار تلك العلاقة!"

فأومأ الإمبراطور برأسه موافقاً، وقال لنفسه بعد أن حياه رودلف وانصرف: "حمدا لله!. لقد كسبنا الجولة، وتغلبت حجج العقل الدامغة على حماقات الهوى والشباب!"

الساعة الحادية عشرة قبل الظهر.

بين الأم والابن.

الإمبراطورة إليزابيث جالسة في غرفتها، وقد خلت إلى نفسها كعادتها بعد رياضة الصباح، تفكر في أمر ولدها، وتصلي ضارعة إلى الله أن يهديه سواء السبيل!

أنها في الثانية والخمسين من عمرها، كلنها مع ذلك مازالت ممشوقة، القد، رشيقة الخطا، بل مازالت جميلة أيضاً!.. ولعل الفضل الأكبر في ذلك راجع إلى أنها حريصة على أن تأخذ نفسها بنظام دقيق لا تحيد عنه في حياتها، أيا ما كانت الأسباب!

وهي تنتمي إلى أسرة من الأمراء البافاريين اشتهر كثير من أفرادها بالذوق الرفيع والخيال الراقي مع شيء من غرابة الأطوار وعدم الاستقرار. وكان لويس الثاني البافاري– شقيق ماكسمليان والدها– مختل الوجدان. ومن هنا يتضح أن للورثة دخلا غير قليل فيما عرفت به من الانطواء على نفسها، وعزوفها عن الاشتراك في الولائم والحفلات العامة، وما يشوب حسن طلعتها من إمارات القلق والأسى المكبوت حتى لتبدو دائماً وكأنها عائدة من تشييع جنازة فقيد عزيز، كما يفسر ميلها الدائم إلى ارتداء الملابس السوداء، وكرهها لزينة والأبهة!

ولعله يفسر كذلك إيثارها الصمت وطول التفكير، وحرصها إذا تكلمت على أن تزن كل كلمة قبل أن تنطق بها، وعلى أن تتخير العبارات التي تحتمل أكثر من معنى، أو العبارات المقتضبة التي يكتنفها الغموض والإبهام!

على أنها كانت قديرة على تحمل الآلام في صبر وشجاعة نادرين، وهذا ما جعلها تفضي عن كثير من تصرفات زوجها المنطوية على الأنانية والغطرسة والاستبداد، بل جعلها تمعن في الإغضاء والتسامح إلى حد ترحيبها بخليلته المفضلة!

ثم هي إلى ذلك كله سيده حكيمة حازمة، جمة التواضع، هوايتها المفضلة أن تخرج في ساعة مبكرة من صباح كل يوم، فتمشي مسرعة مسافة طويلة ورأسها مغطي بمنديل بسيط من المناديل التي تستعملها العاملات!.. وقد ركزت كل عطفها وحنوها وحبها في معاملتها للارشيدوق ردولف وحيدها العزيز. وهي تراه جديراً بإعجابها لنبل محتدة وشدة مراسه، وحضور بديهته وكرم نفسه، ولأنه مثلها يميل إلى العاديات الفنية والإنتاج الأدبي القديم!

ولم يكن يخفي عليها شيء مما يقال عن تصرفاته الشخصية، وتردده

إلى بعض الأوساط غير المرغوب فيها، لكنها كانت تلتمس له مختلف الأعذار!

وهكذا.. تستطيع أن تتصور مدى تأثرها الشديد حينما سارع إليها رودلف عقب مغادرته مكتب والده بعد تلك المقابلة، ثم جثا أمامها على ركبتيه كما كان يصنع وهو صبي، وقال لها والدمع يترقرق في عينيه، وفي نبرات صوته المتهدج ما ينم عن ألم بالغ وحزن شديد: "أماه!.. ساعديني يا أماه!"

وسألته وقلبها يقطعه الأسى من أجله: "ماذا بك يا رودلف؟.. ما الذي تشكوه، وفيم أساعدك أيها العزيز؟!"

فقال لها: "أنت تعرفين طباع الإمبراطور، وتدركين إلى أي حد يبلغ عناده وصلابته وتشبثه برأيه!.. وأنت معي ولاشك في أن قوة السلطان ليس معناها أن يكون قاسياً فظاً غليظ القلب. وما أظن أنك لا تعلمين مدى علاقتي بماري فتسيرا.. والآن قد أخذ والدي على عهدا أن أقطع هذه العلاقة.. ولكني أعتقد أن هذا فوق طاقتي، فأنا لا أطيق الحياة مع استيفاني، وألبون بعيداً جداً بيني وبينها في العواطف والميول وكل شيء. على أني مع هذا حريص على أن يبقى لها مظهرها كزوجة وأم وأميرة لها مقامها في المجتمع، وما كنت لأرغب في الفضيحة. أفلا ينبغي إذن أن يسمح لي بما يسعد قلبي ويشفي صدري؟.. أليس من حقي وقد حرمت من الزواج بماري فتسيرا التي أحبها وتحبني أن أراها وتراني وأحدثها وتحدثني وأفهم عنها وتفهم عني؟!"

ثم زحف على ركبتيه حتى كاد أن يلتصق بها، وواصل توسلاته إليها قائلا: "صدقيني يا أماه.. أني لفي أشد الحاجة إلى معونتك.. أنك وحدك

التي تستطيعين أن تشفعي لي عند أبي فيخفف عني حدة قسوته وعناده.. وهأنذا ألجأ إليك متوسلاً ضارعاً. فلا تتخلى عني وأسعفيني بما يعينني على تحمل أعباء هذه الحياة والصبر على ما فيها من مرارة حرمان وخيبة آمال!"

ولما كانت الإمبراطورة إليزابيث رقيقة القلب مرهفة الحس شديدة الحب لرودلف فقد اشتد تأثرها وأغرورقت عيناها بالدموع، مما زاد في اضطرابه وكاد يفلت منه زمام تجلده وحبس دموعه أمامها. ولكنها مع ذلك كانت تريد أن يتفادى ابنها كل ما من شأنه أن يحط من مقام العرش بوصفه وارثه، كما كانت ترى أن واجبه يقضي بأن يضحي بكل شيء في سبيل المحافظة على التاج وتجنب كل ما يمسه بسوء. وعلى هذا قالت له في صوت ملؤه الحب والحنان:

– أعزني سمعك يا بني العزيز.. يا اعز شيء في حياتي.. أن تفكيرك في الطلاق من زوجتك يستلزم التفكير فيما يترتب على هذا الطلاق، وما أحسب أن من العدل والحق أن تلحق بزوجتك أية إهانة، ولا أن تكون سبباً لإيلام أسرتها.. أليس كذلك؟

فقال رودلف: "أسرتها؟!.. أنسيت يا أماه؟.. أنسيت المتاعب التي سببها لنا أبوها، ذلك البلجيكي التعس ليوبولد، ذو اللحية التي لا تفتأ تهتز كأنها مروحة؟.. يا للعناء الذي لقيناه منه في الوقت الذي كان عليه فيه أن يعمل على راحتنا ويدفع لنا (دوطة) لأبنته!. لقد كدنا نرسل إليه حملة من رجال الشرطة!.. ألا تتذكرين؟!"

ولم تستطع الإمبراطورة أن تكتم ابتسامة لاحت على شفتيها وكادت تنبئ بإذعانها لرغبة ولدها ولي العهد الشاب، لكنها سرعان ما ردت عليه قائلة: "أن الطلاق فضيحة ولاشك، ولا يليق بعلو مكانة التاج!"

فقال لها: "أليس بين أصحاب التيجان كثيرون يستجيبون لرغبات قلوبهم؟"

فقالت له: "نعم، ولكن أمثال هؤلاء يتخلون عن واجبهم الأول المقدس نحو العروش التي يجلسون عليها!.. أن التاج العظيم الذي ينتظرك أيها العزيز، يتطلب منك أن تكون أحرص الناس على مكانته الرفيعة، وعلى أن يبقى دائماً فوق الشكوك والظنون والأقاويل!. ليس هذا من أجلك وأجل أسرتك فقط، بل هو كذلك لأجل الملايين العديدين الذين هم شعبك ورعيتك ومن حقهم أن يكون صاحب عرشهم بمنأى عن كل مظنة واتهام!"

وسكتت الإمبراطورة، وتشاغلت هنيهة بتقليب مروحتها السوداء التي لم تكن تفارقها في أكثر الأحيان، ثم قالت له وقد ازداد صوتها تهدجا لفرط تأثرها بموقفه:

– أنني أعرف موقفك كما أعرفك، وأقدر ما فيه من حرج وإيلام كل التقدير.. لا تنس إنك قطعة مني يا رودلف، وأن أخف وأهون ما يؤلمك يثير في نفسي أشد الألم والعذاب، بل الحق إنك كل شيء لي في الحياة وما كنت لولاك لأطيق هذه الحياة!

فقال لها رودلف: "آه يا أماه!.. أنني أحبها!. أحب ماري فتسيرا!. وهي تبادلني الحب في صدق وإخلاص!. آه ليتك تعلمين يا أماه مدى ذلك الحب!.. أما شعرت بالحب قط؟"

فقالت الإمبراطورة إليزابيث: "أجل!. لقد أحببت أباك، وأحببت الوطن الذي منحني إياه، وباسم هذا الحب هأنذا أعيش راضية بكل ما كان وكل ما يكون!. وهذا هو ما أحب أن تفكر فيه وتتأسى به!"

وأطرق رودلف قليلاً ثم رفع رأسه وقال لأمه يائساً: "الواقع أن صفحات

التاريخ مليئة بحوادث الطلاق الخاصة بأصحاب العروش من الأباطرة والملوك، ولكن حظي التعس يأبي أن أتخلص من استيفاني التي لا أطيق العيش معها، ويأبي أن أعيش مع ماري فتسيرا التي لا أطيق التخلص منها، بل أنا أفضل الموت بين ذراعيها.. نعم أن الموت هكذا خير وأكرم من تلك الحياة!"

وجفلت الإمبراطورة الأم لدى سماعها كلمة الموت يلفظها فم وحيدها الحبيب، فألقت المروحة من يدها وأسكتته بوضع كفها على فمه قائلة:

- اسكت.. حذار يا رودي..! إياك وترديد مثل هذه العبارات الموجعة المروعة!

وطفر الدمع من عينيها، وارتجف بدنها وعلت وجهها سحابة كثيفة من الهم والقلق والخوف، فعض رودلف على شفتيه ندما على ما سببه لوالدته الحنون من الحزن والألم والاضطراب، ورأى أن يغير مجرى الحديث ليجنبها ما يثير الأشجان فقال لها:

- أنت لا تفهمينني يا أماه!.. أنه...

وقطعت هي كلامه وقالت له وهي تمسح بيدها على رأسه، وتداعب شعره بأناملها كما كانت تصنع وهو طفل محاولة رفع خصلة من شعره تهدلت على جبينه:

- كيف لا أفهمك يا قرة عيني؟.. أنك تعلم أن سعادتك أقصى ما أتمناه، وثق بألا شيء يسعدني كما يسعدني تحقيق هذا الذي ترغب فيه. ولكنك تعلم طبعا مدى صلابة والدك وعناده وقسوة قلبه.. وقد طالما عانيت بسبب ذلك آلاما مبرحة!

وقرأ رودلف في عيني أمه الطيبة القلب ما أنزل على قلبه بعض السكينة والاطمئنان إلى استعدادها لمعونته ومواساته بقدر ما تستطيع، وقرأت هي في نظراته ثقته بها وحبه لها وعطفه عليها وإجلاله إياها.. وهكذا تفاهما من غير أن ينطق أحدهما بكلمة. ثم نهض رودلف أخيراً وقبل يد والدته ثم غادر غرفته في خطوات وئيدة ثابتة.

والواقع أنه لم يكن كبير الأمل في نتيجة تدخلها لمساعدته، لكنه كان لا أمل له قط في أن يرق له قلب والده أو يرثى لحاله!. وقال يحدث نفسه أثناء انصرافه من حجرة الإمبراطورة: "مسكينة أمي أنها تحيا كراهبة تحبس أحزانها بين جدران الدير!.. أنها شهيدة وهي على قيد الحياة!.. يا للآلام التي عانتها بسبب أنانية أبي وانصرافه عنها إلى (كيتي شرات) تلك الشقراء الجريئة اللعوب!.. أن فرانسوا جوزيف لم يتردد في القضاء على سعادة زوجته هذه الطيبة القلب الذكية الوفية، فهيهات يبقى على سعادة ماري وأن تكن سعادتها هي سعادة ابنه وولي عهده.. أن أبي في الحقيقة لا قلب له ولا ضمير!"

الساعة الثانية عشرة ظهراً.

قبل العاصفة.

استقل رودلف عربة أوصلته إلى قصر البارونة هيلانة فتسيرا، وما كادت هذه تراه مقبلاً حتى خفت إلى لقائه مبالغة في الترحيب به وقالت متلهفة:

– الارشيدوق رودلف في بيتي؟!.. يا له من شرف عظيم يا صاحب السمو الإمبراطوري!.. هل تتنازل يا صاحب السمو فتتفضل بأن...

وقطع رودلف كلامها قائلاً: "أين ابنتك؟.. أريد أن أراها فوراً، لا قول لها كلمة!"

فقالت البارونة الأم: "لبيك يا سيدي!.. ستراها الآن يا صاحب السمو الإمبراطوري!"

ثم رفعت صوتها منادية: "ماري.. ماري؟!". وعادت تقول لرودلف: "ها هي ذي مقبلة يا صاحب السمو".

والتفت إلى حيث أشارت البارونة الأم، فلما وقعت عيناه على ماري أخذته رجفة لم يدر كنهها، وما كادت تصل إليه حتى أخذ بيدها وانتحى بها جانباً، ثم قال لها في صوت ينم عن القلق والاضطراب:

– لقد جئت للتحدث معك في مسألة خطيرة!

فقالت له وقد ارتجفت وجلة وأصفر وجهها:

– وأنا أيضاً!.. لدى مسائل خطيرة أريد أن أحدثك في شأنها! وقبل أن يفكر فيما قالته استأنف كلامه فقال: "أن الوقت ضيق! ويجب أن تذهبي الآن فوراً إلى مايرلنج!"

فتساءلت في قلق: "هل نذهب معا؟". فأجابها: "كلا!. أن عيون الجواسيس تتابع حركاتنا وتسجلها، ولا تغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصتها علينا!"

وعادت ماري تردد كلمة الجواسيس في دهشة وذهول، فقال لها: "نعم.. الجواسيس!. والآن هيا فلا وقت لدينا للانتظار.. وسنلتقي هناك في مايرلنج!"

فبرقت عيناها وقالت له: "حسناً!. سأكون هناك في أقرب وقت مستطاع!"

وانصرف رودلف على أثر ذلك عائداً من حيث أتى، بينما سارعت ماري

إلى غرفتها الخاصة حيث خلت إلى نفسها مستغرقة في التفكير.. لقد أدركت بذكائها المعهود ما انطوى عليه حديث رودلف معها.. أن العاصفة بدأت تهب في وجهيهما، والرقباء يسجلون كل حركاتهما وسكناتهما!.. فاشتدت ضربات قلبها وتلاحقت، وشعرت بأن طوقا من الحديد يضغط رأسها، وبأن يدا قاسية تضيق عليها الخناق وتكاد تكتم أنفاسها!.. وأخيراً نهضت متثاقلة وجلست إلى مكتبها الصغير، وأخذت تكتب رسالة قصيرة لأمها على عجل:

"وداعاً يا أماه!.. ومعذرة أن سببت لك الحزن!.. لقد كنت دائماً رحيمة بي، فلك شكري خالصاً، وأني لأبكي الآن أسفاً على ما ستترك هذه الرسالة من أثر في نفسك.. أنني أخشى ألا نلتقي ثانية!.. نعم أخشى أن أموت يا أماه!. بل أنا قد اعتزمت أن ألقي بنفسي في مياه الدانوب!. لا تعجبي يا أماه!.. أنك تعلمين ما يشغل بالي منذ شهور، وقد صرحت لك يومذاك بما اعتقدته من أن العالم ليس فيه من هي أسعد مني، والله يشهد أني كنت صادقة.. أما الآن فقد تبدل كل شيء واستحال إلى نقيضه، وصار بقائي على قيد الحياة لا يعني إلا التعرض لأحداث بغيضة ثقيلة متلاحقة!... معذرة يا أماه مرة أخرى!.. أن آلامي أفدح من أن تطاق! ومن الحكمة والحزم أن أسدل الستار على حياتي التي لم يعد فيها غير تلك الآلام. وهاك قبلتي الأخيرة يا أماه...... ماري".

ووضعت الرسالة في ظرف أغلقته عليها، ثم وضعته على المكتب في مكان يظهره لأول نظرة. وأطرقت قليلاً، ثم كتبت رسالة أخرى إلى شقيقتها الكبرى "هاني" قالت فيها:

"أودعك يا أختاه!.. أريد أن أدفن بجانبه!. سأكون في العالم الآخر أسعد مني الآن، من أجل ذلك لست أخشى الموت، بل أشعر بالشوق إلى

لقياه!. أرجو أن تكون حياتك سعيدة يا عزيزتي. فليكن زواجك أذن من طريق الحب فالحب هو السعادة وهو كل شيء في الحياة وبعد الحياة. وداعاً يا عزيزتي. ولا تنسي شقيقتك الصغيرة الوفية.. وسيسعدني أن تذكريني، وأن تضعي في كل عام زهرة ناضرة على قبري!"

وطوت هذه الرسالة ووضعتها جانباً، ثم همت بالنهوض ولكنها تذكرت شقيقها الصغير فكتبت إليه رسالة قصيرة قالت فيها:

– سأبقى في العالم الآخر ساهرة عليك.. أختك الوفية ماري!

وبقيت ماري هنيهة تنظر إلى رسائل الوداع التي كتبتها، ثم نهضت ونادت خادمتها الوفية (أجنس) وعهدت إليها بالمحافظة على الرسالتين الأخيرتين ثم تسلمهما إلى أختها وأخيها بعد مضى ثلاثة أيام!

وتناولت (أجنس) الرسالتين من غير أن تنبس بكلمة!

ولم تمض ساعة حتى كانت ماري على أهبة الخروج، وكان المتفق عليه أن تحضر الكونتيسة دي لاريش بعربتها لتستقلاها معا إلى شارع كرنار لشراء بعض الأشياء الصغيرة ثم تتناولان الشاي على الطريقة الإنجليزية في أحد المحال الحديثة التي أنشئت لذلك هناك وبدأت الطبقة الراقية تقبل عليها. وطبيعي أن هذا كله كان وسيلة إلى لقاء الحبيبين رودلف وماري بعد ذلك كعادتهما في منزل الكونتيسة الخاص! أو.. في جناح رودلف بقصر مايرلنج!

وأدركت الكونتيسة لأول نظرة إلى ماري صديقتها الصغيرة الحبيبة أن شيئاً خطيراً قد وقع. وقلقت إذ وجدت عينيها مبللتين بالدموع فسألتها: "ماذا هناك؟".. وأفضت إليها ماري بكل شيء في إيجاز. ثم غادرتا المنزل، وأخذتا تتداولان في الأمر بينما العربة تنهب بهما الطريق.

وقالت لها الكونتيسة أخيراً: "كلا يا عزيزتي!.. ليس من الحكمة أن تستقلي القطار إلى مايرلنج.. أن هذا قد يوقعك في قبضة الجواسيس، أو على الأقل يتيح لهم الفرصة لاقتفاء خطواتك.. والأفضل أن تستقلي عربة تستأجرينها لذلك!. أن الحوذية الآن يتناولون غداءهم.. ولكن حسنا!. هذا هو أحدهم قادماً.. أن عربته قديمة محطمة والجوادين اللذين يجرانها هزيلان، وهو نفسه يبدو شديد الخمول والغباء.. غير أن هذا كله لا يهم.. بل لعل غباء الحوذي أكثر ملائمة في مثل الظروف الراهنة لأنه على الأقل من يكون ثرثاراً!"

وسرعان ما كانت ماري جالسة في عربة الأجرة المذكورة في طريقها إلى مايرلنج ولم تكن قد أخذت معها معطفها فأخذت تنتفض من شدة البرد. بجانب تألمها من ترنح العربة وتأرجحها وخشونة مقعدها ووسائدها، ولما كان الطريق شاقاً طويلاً لا يقل عن أربعين كيلو مترا فقد اضطرت إلى استعارة قطعة من الخيش الثقيل كان الحوذي يضعها تحته ثم تدثرت بها وألقت رأسها إلى الوراء مسندة إياه إلى مؤخرة العربة، وقد أغمضت عينيها لا لكي تنام، فقد كان النوم آخر ما تستطيعه خلال هذه الرحلة المضنية، ولكن لكي تسترسل في تفكير عميق حزين!

الساعة الأولى بعد الظهر.

نحو القرار الأخير.

فرغ الارشيدوق من تناول الغداء مع أفراد الأسرة ثم غادر المائدة متعجلاً من غير أن ينطق بأية كلمة. وسرعان ما خرج من القصر بعد أن ارتدى معطفاً ثقيلاً مصنوعاً من جلود الذئاب، ووضع على رأسه قلنسوة كبيرة واسعة كادت تغطي أكثر وجهه، وذلك حتى لا يعرفه أحد من رجال البوليس وغيرهم

في طريقه إلى محطة السكة الحديد.

ولم تمض دقائق حتى كان جالساً على مقعد عادي في إحدى عربات القطار الذي غادر المحطة إلى ضاحية بادن، ولم يفته مبالغة في التخفي أن يضع على وجهه منديلاً كبيراً ويتظاهر بالنعاس. وبقي كذلك حتى بلغ القطار غايته. فغادره مسرعاً واستقل عربة أجرة لتقله من بادن إلى مايرلنج حيث يلتقي بماري هناك!

وكان تفكيره كله محصوراً في هذا اللقاء، وما يكتنفه من ظروف وملابسات وأخطار ومفاجآت...

الساعة الثانية بعد الظهر.

خطاب ماري لأمها.

البارونة هيلانة فتسيرا جالسة في قصرها القديم في العاصمة بعد أن غادرته ماري مع الكونتيسة الصديقة دي لاريش. وأمارات الارتياح تبدو واضحة في وجه البارونة الأم منذ زيارة الارشيدوق ولي العهد لابنتها ثم خروجها عقب هذه الزيارة في صحبة الكونتيسة ابنة عمه وخالته..!

وفي الساعة الثانية بعد الظهر تناولت البارونة هيلانة الغداء مع ابنتها الكبرى وولدها الصغير. وفيما هي تتفقد غرفة ماري كعادتها، لمحت الرسالة الموضوعة على المكتب فتناولتها في دهشة، ثم فضت غلافها إذ رأت اسمها مكتوباً عليه، ثم راحت تقرأ ما كتبته ماري في الرسالة والقلق يشتد بها من لحظة لأخرى. وسرت الرعشة في بدنها كله، وتخاذلت ساقاها فلم تقويا على حمل جسمها البدين فتهالكت على مقعد هناك وراحت تعيد تلاوة الرسالة وهي لا تكاد تصدق عينيها وتحدث نفسها قائلة: "كلا.. كلا!. هذا محال!..

ليس هناك ما يدعو ماري إلى تنفيذ هذا الهراء!"

الساعة الثالثة بعد الظهر.

في مكتب الوزير.

مضت دقائق والبارونة الأم تتقاذفها الوساوس والهواجس، ورجحت كفة تشاؤمها أخيراً فنهضت متحاملة على نفسها، وغادرت المنزل مسرعة إلى أقرب مركز للبوليس حيث قابلت رئيس الشرطة هناك وأفضت إليه بما يخالجها من وساوس بعد أن أطلعته على الرسالة التي تركتها لها ابنتها قبل خروجها من المنزل منذ ساعات!

وبدا على المسكين أن النبأ أذهله وأوقعه في حيرة شديدة، ولا عجب فقد كان يعلم الكثير عن علاقة ماري بولي العهد، وعن الرقابة الشديدة التي فرضها عليها الإمبراطور، حتى أنه يتلقي يومياً عدة تقارير عن حركتها ومقابلاتها كما سجلها رجال البوليس المختصون وغيرهم من الرقباء والأرصاد!

ولم يسعه أخيراً إلا أن يحيل البارونة الأم إلى الكونت (تافيه) وزير الأمن ورئيس البوليس الأعلى بعد أن شجعها ببعض العبارات لإدخال الطمأنينة إلى قلبها. وراحت هي كذلك تطمئن نفسها وهي في طريقها إلى مكتب الوزير، بأن تلك الرسالة التي تركتها ماري لها ليست إلا نتيجة إحدى النزعات الصبيانية التي تسيطر على الفتيان والفتيات في سن المراهقة وحين يلمس الحب أوتار قلوبهم وقلوبهن لأول مرة.. فهم جميعا في هذه الحالة كثيراً ما يؤكدون اعتزامهم التخلص من الحياة، ثم لا يلبثون قليلاً بعد ذلك حتى تذهب تلك النزعة مع الريح وتعود حياة كل منهم إلى مجراها العادي وكأن شيئاً ما كان!

وفي الساعة الثالثة بعد الظهر، كانت البارونة هيلانة فتسيرا أمام مدير

مكتب الوزير تطلب مقابلته فوراً لأمر ذي بال. وقال لها مدير المكتب: إن الوزير مشغول جداً وأكبر الظن إلا يستطيع استقبالها قبل صباح اليوم التالي. ولكنها تلح في طلب المقابلة، ثم تجلس في انتظار الأذن لها في الدخول على الوزير.

لقد كانت تعرف الكونت تافيه حق المعرفة، وتعرف أنه من أصل ايرلاندي، يميل إلى المزاح، ويضحك من غير أن يبدو أي تغيير في أسارير وجهه. ثم هو إلى ذلك متفائل دائماً، وعلى هذا الأساس ينظر إلى كل شيء وإلى كل مشروع!.. لكنه وا أسفاه لا يمكن أن يكون كذلك في هذه المرة. فالمسألة مسألة حياة أو موت.. موت في أعماق نهر الدانوب!

وخيل إليها أن الزمن وقف عن السير، وعبثا حاولت أن تخفف من ثقل الانتظار بالتطلع إلى محتويات المكتب، والاستماع لرنين الأجراس واصطفاق الأبواب، ومتابعة حركات السعاة ووفود المنتظرين مثلها مقابلة الوزير. واستبد بها القلق أخيراً فراحت تعيد تلاوة رسالة ماري إليها، وتقف عند كل كلمة فيها متسائلة بينما الدمع يغمر خديها.

واستقبلها الكونت تافيه آخر الأمر وعلى شفتيه ضحكته التقليدية الجامدة، ولكنه سرعان ما عاد إلى عبوسه وأخذه الفزع حين وقف منها على جلية الأمر وهتف قائلاً: "كيف حدث هذا؟ أنها لمسألة مكدرة تدعو إلى الأسف!.. ويجب إجراء تحقيق دقيق فوراً.. ولكن لابد من أن تكون لدينا شكوى رسمية حتى نستطيع الشروع في التحقيق!"

فقالت له في شيء من الحدة والعنف: "شكوى رسمية؟!.. حسنا يا سيدي.. سأكتب الشكوى الآن!"

فسألها الكونت متعجباً: "ضد من هذه الشكوى؟". فأطرقت كأنما تفكر

فيما تجيب به، وواصل هو كلامه فقال:

– نعم يا سيدتي، لا سبيل إلى الشروع في التحقيق قبل تقديم شكوى رسمية!.. وعلى أية حال تستطيعين أن تثقي كل الثقة بأني سأوجه إلى هذه المسألة كل عنايتي!

وهكذا تخلص منها وزير الأمن العام بلباقة لأنه رأى من الحماقة أن يقدم على اتخاذ أي إجراء في ذلك الشأن، قبل أن يتصل بمكتب جلالة الإمبراطور.

وبعد ساعة كان رجال البوليس المكلفون بمراقبة ماري قد أبلغوا الوزير أنهم شاهدوها في عربة أجرة انطلقت بها صوب مايرلنج. ولما كان الوزير على علم بعلاقة ماري بالارشيدوق رودلف ولي العهد، فقد ضحك طويلاً حين وقف على هذا النبأ، ثم حدث نفسه قائلاً: "لقد أحسن الإمبراطور بعزمه على وضع حد لهذه المهزلة!.. ولاشك أن البارونة هيلانة ستحتد غضباً كعادتها متى علمت بحقيقة الرحلة التي قامت بها ابنتها.. هذا إذا لم تكن على علم بذلك الغرام الحاد الذي ذاع أمره في جميع الأوساط!"

ثم كتب ذلك النبأ في ورقة، وبعث بها إلى البارونة هيلانة مع رسول خاص قائلاً لنفسه: "أن هذا سيجعلها تطمئن أن لم تكن قد علمت بالنبأ من قبل!"

في منتصف الساعة الخامسة بعد الظهر.

بين واجبين.

وصل رودلف إلى قصر مايرلنج في العربة التي استقلها من بادن، وما كادت عينه تقع على (لوشيك) تابعه الأمين الخاص وخازن القصر حتى سأله: "هل وصلت الآنسة فتسيرا؟"

فأجاب لوشيك قائلاً: "لم تصل بعد يا صاحب السمو، وإذا كانت قد استقلت القطار الذي يغادر (بادن) في منتصف الساعة الثانية فستصل بعد قليل!"

فقال رودلف في صوت ينم عن القلق: "أنها لم تكن في ذلك القطار، فقد جئت أنا فيه ولم أراها بين ركابه.. وأين الضيوف؟"

فأجاب لوشيك: "غادروا القصر الغداء مباشرة، أن النهار قصير جداً في هذا الوقت من السنة ولذلك رأوا الشروع في الصيد منذ تلك الساعة!"

فقال الارشيدوق: "حسنا!. سأراهم حين يعودون في المساء، على أني متألم قليلاً يا لوشيك، ولهذا لا تكلف نفسك مشقة إعلان عودتهم!"

فنظر إليه لوشيك في شيء من الدهشة وسأله: "مم تتألم يا صاحب السمو؟"

فأجاب رودلف قائلاً: "دعك من هذا.. لا شيء على كل حال!. هيا أوقد النار في مدفأة غرفتي، ثم اقتطف من الحديقة كمية كبيرة من الزهور.. أسامع أنت يا لوشيك؟.. أني أريد كمية من الزهور بحيث يصير جو غرفتي برائحتها ناضراً بألوانها. وسيتذمر البستاني من ذلك ولكن لا تعبأ بتذمره!"

ثم مر بيده على جبينه كأنما يسمح عرقا تصبب منه واستطرد فقال: "وحينما تصل الآنسة، يجب أن تدعها تدخل فوراً، دون أن يراها أحد!"

فقال لوشيك: "سيكون ما تشاء يا صاحب السمو!"

فقال له رودلف وهو يهم بالدخول: "سأتناول العشاء معها، أنت تعلم هذا طبعا.. غير أني لا أريد أن يرتاب الضيوف في أي شيء!"

ولم يقف ليرى انحناء لوشيك إجلالاً وامتثالاً لأمره، بل سارع إلى غرفته الخاصة، واستلقى على كرسي كبير ذي ذراعين حشي كله بالقطن وريش النعام بعد أن قربه من المدفأة، وأغمض جفنيه كمن يتأهب للنوم ولكنه لم ينم بل راح يشعل سيجارة في أثر أخرى مكتفياً بجذب نفسين أو ثلاثة أنفاس من كل سيجارة، حتى ازدحمت المطفأة بعد قليل بما ألقى فيها من الأعقاب الكبيرة. وما وافت الساعة الخامسة حتى هرع إليه لوشيك منبئاً بقدوم (الآنسة). فبان الاهتمام في وجهة وقال له: "أين هي؟ دعها تدخل فوراً.. وانصرف أنت.. ولا تنس ما لديك من تعليمات!"

ولم يصبر رودلف حتى تخلع ماري قبعتها، بل سارع إليها عقب انصراف لوشيك، واحتضنها بكل قوته، ثم انهال عليها تقبيلاً وأوسعها تدليلاً، بينما استسلمت هي لقبلاته الحارة الطويلة مسبلة الجفنين وقلبها متلاحق الخفقات وجسمها كله ينتفض كأنها عصفور وقع في يد صياد!

واستمر العاشقان في ذلك بضع دقائق، لم ينبس خلالها أحد منهما بأية كلمة، ثم كفا فجأة عن تبادل العناق والقبلات، وجلسا على مقعدين أمام المدفأة، ومن حولهما باقات الزهور السديدة التي جاء بها (لوشيك) تنفيذاً لأمر مولاه، وسادت فترة أخرى من الصمت، ثم قال لها رودلف:

– ماري!. حبيبتي العزيزة!. أني أحمل إليك خبراً.. آه كم أنا مضطرب البال مشتت الفكر!.. يا له من موقف يمزق قلبي ويكاد يفقدني رشدي! لكن أصغى إلى يا حبيبتي. أنك ولاشك تحسنين فهمي، كما أنك تثقين بصدق حبي لك.. غير أنهم يزعمون أن مصلحة الإمبراطورية وحفظ التوازن الدولي في أوروبا يضعان على عاتقي واجباً لابد لي من القيام به بوصفي حاكم البلاد في المستقبل!.. أرأيت يا عزيزتي؟.. لكن كلا!. ليس في وسعي أن أضحي من

أجل زعمهم هذا بأعز ما في الوجود عندي!.. أفهمت يا حبيبتي؟.. أنها إرادة الإمبراطور والدي، وأنت تعلمين أنه لا يقبل أبداً أن يعدل عن رأى اتخذه، أيا كان سخف هذا الرأى، وأيا كانت جنايته على الآخرين، ثم أن... أسامعه أنت يا ماري؟

ولم تنطق هي بأية كلمة ولكن نظراتها الحزينة المستسلمة كانت تدعوه إلى أن يقول كل ما لديه من أنباء، مهما تكن!.. فعض على شفتيه وزفر زفرة حرى ثم قال لها:

– ثم أن الإمبراطور أصر على أن أقسم أمامه بشرفي، وإزاء ما ردده مؤكداً من أن السياسة العليا هي التي تقتضي ذلك لصالح الإمبراطورية وضمان التوازن في أوروبا.. إزاء هذا يا حبيبتي أقسمت أمامه بشرفي!.. ألم تفهمي بعد؟! يا لي من بائس مسكين!.. لقد أقسمت لأقطعن كل ما بيننا من علاقات!

فأخذت ماري يديه بين يديها، وبقيت هنيهة تحدق في عينيه وقد امتزج الحب والألم في نظراتها، ثم قالت له:

– أنا أيضاً يا رودي الحبيب، لدي خبر يجب أن أنبئك به، أقصد أن هناك رسالة مقدسة لابد لي أنا أيضاً من الاستمرار في أدائها!.. والواقع أن هذه الرسالة الخطيرة، لم يحملنيها إلا أنت يا حبيبي!.. أنني أثق كل الثقة بصدقك يا رودي، وأنت أيضاً تستطيع أن تثق بي، أليس كذلك؟.. وأذن فالخبر الذي أريد أن تعلمه هو.. هو أنني في طريقي إلى الأمومة!

وتراجع رودلف بكرسيه إلى الوراء وقد استولى عليه الفزع والاضطراب!.. ثم نهض واستمر في تراجعه ماشياً وقدماه لا تكادان تقويان

على حمله، وجحظت عيناه واختلجت شفتاه وتضرجت وجنتاه بلون الدم الذي بدأ يغلي في عروقه، ثم عض على شفتيه وصاح قائلاً:

– ماذا؟.. أمومة؟.. أنت يا ماري في طريقك إلى الأمومة؟ منذ متى؟ ولماذا لم تخبريني بذلك قبل الآن؟!

وكانت ماري أعرف به من نفسه، فالتزمت الصمت، وتركته يزمجر ويدمدم ويدور حول نفسه أمامها كأنما انتابته عاصفة هوجاء من الجنون.. لقد دلها الاختبار على أنه حينما يندفع لا يجب أن يقف في سبيله شيء، ثم سرعان ما يهدأ فيعاوده استعداده الفطري للتفاهم وتغليب الحكمة والمنطق المعقول.. وهكذا اعتصمت بالصبر الجميل، وبقيت ثابتة في مقعدها، والحنان والحب والسكينة تشع من عينيها ومن كل جارحة فيها.. فلما ذهبت عنه سورة الفزع الذي أحدثته المفاجأة، عاد يقترب منها شيئاً فشيئاً، وهو يكاد يلتهمها بنظراتها الوالهة المليئة بالحب والإعجاب.. وسرعان ما طوقها بذراعيه وألصق خده بخدها ثم راح يضمها بكل قوته ويوسعها تقبيلاً وتدليلاً من جديد!

ومرة أخرى لفهما الصمت واستغرقا في تفكير عميق بعد أن عادا إلى الجلوس متقابلين أمام المدفأة الموقدة بين باقات الزهور والرياحين.

كان رودلف يحدث نفسه قائلاً: "أنهما واجبان مقدسان، لا أدري أيهما أشد قدسية من الآخر: أهو واجبي نحو أبي وأسرتي وزوجتي وابنتي ونحو السياسة العليا للإمبراطورية التي ينتظرني عرشها، والقسم العقيم الذي أقسمته أمام والدي؟ أم هو واجبي إزاء هذا الحادث الجديد الذي جاء ليؤكد ما بيني وبين ماري من حب قوي مكين".

وطال تفكيره، وحيرته تزداد بين الواجبين الماثلين في خاطره وكأنهما يتناظران ويتجادلان. وأخيراً قطعت حبل الصمت الممتد بين العاشقان دقات الساعة المعلقة في إطار من المرمر الأبيض المنقوش، مؤذنة بحلول المساء وحلول الموعد المنتظر لعودة الضيوف من رحلة الصيد. فنهض رودلف وتطلع من النافذة إلى الأفق الغربي حيث بدت بعض الغيوم وقد كساها الشفق حمرة قانية. ثم احتضن ماري وقبلها قبلة طويلة أودعها كل ما يكنه لها في جوانحه من حب وتقدير وقال لها:

– الآن، ينبغي أن أتركك قليلاً، ريثما أحيي الضيوف الذين سبقوني إلى هنا منذ الصباح ولم أرهم بعد بسبب ما علمت من دعوتي فجأة إلى مقابلة والدي.. على أني لن أمكث معهم غير دقائق معدودات ثم أعود لك يا حبيبتي.. فإلى اللقاء.

فقالت له: "سأنتظرك يا حبيبي".

وألتفت إليها بعد أن بلغ الباب قائلاً:

– بعد لحظات سأكون معك، نعم بعد لحظات!

بين الموت والحياة

الساعة الخامسة والدقيقة ٢٠ مساء.

رسالة إلى فيينا.

مضى رودلف إلى قاعة الانتظار في قصر مايرلنج، وجلس وحده يكتب رسالة، فلما فرغ من كتابتها وضعها في ظرف وأغلقه ثم ابقاه في يده، واستغرق في تفكير عميق.

لقد عرف قبل ماري وبعدها كثيرات من ممثلات الأوبرا وغانيات العاصمة النمساوية. ولكن علاقاته بهن لم تصل إلى مثل هذا الحد الخطير الذي وصلت إليه علاقته بماري فتسيرا.! وليس المهم أنها كلفته مادياً أضعاف ما كلفته، ولكن علاقته بها قلبت حياته النفسية رأساً على عقب، إذ أثارت عليه زوجته ثم والده، ثم كل رجال القصر وأفراد الحاشية!.. وهكذا حيل بينه وبين السلام الروحي وبات فريسة للقلق والكدر والألم!

ولم ينقذه من الهواجس التي استبدت به إلا عودة ضيفيه الصديقين: الكونت هويوس والأمير دي كوبورج يصحبهما بعض حراس القصر يحملون ما صاداه من الأرنب البرية وأفراخ الحجل وغيرها. وكان شيئاً كثيراً، عوضهما عما لقيا من التعب والمشي مسافة طويلة في الغابة حيث البرد قارس والريح شديدة تعصف بالأشجار.

وابتدرهما بعد أن حياهما قائلاً: معذرة يا صديقي العزيزين!.. بل أرجو أن تسمحا لي بأن اعتذر إليكما اعتذاراً مزدوجاً: فانا أولا.. لم ألحق بكما

عقب وصولي إلى هنا لاشترك معكما في الصيد حسبما وعدت في رسالتي!. ثم أنا ثانياً.. مضطر إلى أن أرجو أحدكما أن يقوم لأجلي بمهمة لا تتفق مع الراحة الواجبة لكما، بعد ما بذلتما خلال الصيد من جهود!"

ولم ينتظر حتى يسمع جواباً، بل استمر في كلامه فقال موجهاً الخطاب إلى الأمير دي كوبورج: "أنك أنت يا فيليب مضطر إلى أن تعود للعاصمة هذا المساء، ولهذا أرجو أن تتفضل بحمل هذه الرسالة التي كتبتها الآن لتبلغها إلى القصر الملكي فور وصولك!. أن الارشيدوقة وأفراد الأسرة جميعا يجتمعون الليلة لتناول العشاء في القصر، وسيكون تخلفي مثار قلق وانزعاج للارشيدوقة خاصة ولأفراد الأسرة كافة. ولن يخفف من ذلك إلا اعتذاري في هذه الرسالة باضطراري إلى الاعتكاف هنا لشعوري بحمى خفيفة وصداع وأعراض زكام. والمسألة بسيطة على كل حال.. فما رأيك أيها العزيز؟"

وكان جواب الأمير دي كوبورج أن تناول الرسالة من يد رودلف، وقال لصديقيه الارشيدوق رودلف والكونت هويوس: "إلى اللقاء هنا صباح غد أيها العزيزان". وكانت جياده مشهورة بسرعتها الفائقة فوصل إلى فيينا في أقرب وقت ممكن، وتوجه على الفور إلى القصر الإمبراطوري حيث سلم الرسالة إلى الارشيدوقة استيفاني.

الساعة الثامنة مساء.

الضيف وحده.

تناول الكونت هويوس طعام العشاء وحده في قاعة الطعام الفسيحة بقصر مايرلنج. فبدت لعينيه أكبر مساحة مما هي عليه لوجوده وحده فيها!.. وقد أكل كثيراً وشرب كثيراً ليكافح الأكدار التي سببتها له هذه الوحدة،

وبخاصة أنه كان لا يطيق العزلة بطبعه، بل لا يطيق أن يمكث ساعة واحدة بعيداً عن الناس، إذ تعود تبادل الحديث والسمر، وصار يعتقد أن الحياة من غيرهما هي والموت سواء!

على أنه كان في الوقت ذاته من أولئك الارستقراطيين الذين يستنكفون التحدث مع أفراد الطبقات الأخرى. ولذلك آثر أن يعاني الضجر والسآمة على أن يتنازل إلى التحدث مع لوشيك تابع رودلف الخاص بعد أن تركه هذا عائداً لماري وفاء بوعده لها!

الساعة الثامنة والنصف مساء.

عدول..

الارشيدوق رودلف والبارونة الصغيرة ماري فتسيرا يتناولان العشاء في حجرة الارشيدوق الخاصة. ولم يكن هناك من يدخل عليهما من خدم القصر غير لوشيك الوفي الأمين. وقد لحظ أنهما لم يقربا أكثر ألوان الطعام التي وافاهما بها هناك!

والواقع أن العاشقين كانا في شغل شاغل بالتفكير في المأزق الحرج الذي هما فيه.. وفيما عدا بعض العبارات المقتضبة التي تبادلاها من حين لآخر في موضوعات ثانوية لا علاقة لها بموقفهما كان يسودهما الصمت التام!

وقد فكر رودلف في أشياء كثيرة عن حاضرة ومستقبله وماضيه.. فكر في مجموعة الطيور النادرة التي عنى أشد العناية بالحصول عليها خلال السنوات الماضية حتى صارت أكمل مجموعة من نوعها في أوروبا، وفكر في جياده التي طالما سابق عليها الريح، وفي المشروعات العديدة التي تعب في

إعدادها، والحفلات والولائم التي أقامها، والمتاعب والآلام التي قاساها بسبب زواجه غير المرغوب فيه.. ثم تركز تفكيره أخيراً في علاقته بماري، وفيما كانت خليقة أن توفره له من السعادة والبهجة والعيشة الراضية الهانئة، لولا أن معرفته بها جاءت متأخرة، ولولا أن أباه الإمبراطور العنيد يصر كل الإصرار على ألا تبقى هذه العلاقة من قريب أو بعيد!.. وهكذا كان تفكير الارشيدوق الشاب ينتهي به إلى اليأس من الحياة، وإلى أن الموت خير منها!

أما ماري فكانت خلال صمتها تتأمل الأخشاب التي تحترق في المدفأة. بينما ذكريات الماضي تتابع على لوحة مخيلتها، فهؤلاء صديقاتها الصغيرات اللائي كن يحطن بها ويخلصن لها حينما كانت طالبة في القسم الداخلي بالمدرسة.. وهؤلاء أعمامها الذين كانت تفاخر بهم كلما رفعت أعلام الفوز على مقصوراتهم في نادي سباق الخيل.. وهذه آخر دمية أهديت إليها.. وهذا أول "فستان" طويل أذنت لها أمها في ارتدائه!

يا لتلك الفترة القصيرة الحلوة من العمر، فترة الطفولة التي سرعان ما ولت ودفعت بها إلى مرحلة المراهقة والشباب؟.. أترى قدر لها أن تموت في زهرة شبابها؟.. أنه ليسعدها حقا أن تذهب شهيدة الشباب، فتبقى بعد ذلك حديثاً للناس إلى أمد طويل!.. ولكن فكرة الموت تبعث في نفسها القلق والكآبة والاضطراب.. فيقشعر بدنها وتظلل وجهها سحابة كثيفة من الوجوم، على أنها مع ذلك تمضي في سبيل ذلك التفكير المثير، وتحدث نفسها قائلة: "أموت؟.. كيف أموت؟!.. وماذا ترى رودلف سيختاره من الوسائل إلى تحقيق هذه الغاية؟.. أنه ولاشك يؤثر أن نموت معا في أوج حبنا على ما ينتظرنا من مرارة الفراق، ولكن هل يختار لذلك سماً زعافاً يقضي على حياتنا فوراً كذلك السم الذي تتحدث عنه القصص والروايات؟.. وهل مثل هذا

السم ا يترك في الجسم آثاراً تشوهه؟.. وأهم من ذلك: هل نتألم طويلاً قبل أن نموت بهذا السم؟ وهل هناك وسيلة إلى تقصير أمد ذلك العذاب؟"

ولم تجرؤ ماري على أن تسأل رودلف في شيء من ذلك كله!.. وهل لا علم لها بأي شيء عن القرار الذي سيتخذه، لكنها فيما بينها وبين نفسها قررت أن تستلم لإرادته وتكون طوعاً لإشارته فتنفذ فوراً أي قرار يتخذه أيا ما كان هذا القرار!.. نعم هذا ما يجب أن تصنعه، ولن تكون أقل وفاء وتضحية وإقداماً من تلك الصديقة القديمة التي قالت لها يوماً: "أني أحب خطيبي إلى حد أنه لو أمرني بأن ألقي بنفسي من سطح المنزل إلى الأرض ما ترددت في تنفيذ أمره، لأني واثقة به كل الثقة!". ثم أغمضت ماري عينيها وقالت تحدث نفسها: "هكذا سأسارع إلى تنفيذ ما يقرره حبيبي رودلف في غير أي تردد ولا تفكير!"

الساعة الثامنة والدقيقة ٤٥ مساء.

رسالة رودلف.

كانت الساعة السابعة مساء هي الموعد المحدد للعشاء في القصر الإمبراطوري، وقبيل هذا الموعد كان جميع أفراد الأسرة قد أخذوا أماكنهم إلى المائدة.. ما عدا رودلف!

وبقى الإمبراطور فرنسوا جوزيف طول فترة العشاء بادي الحنق والغيظ والسخط، فإنه لم يكن يتصور أن رودلف يمكن أن يأتي تصرفاً كهذا، يدل على الطيش والحمق وعدم اللياقة، في اليوم الذي أقسم فيه بشرفه أمامه ليقطعن كل علاقة له بماري فتسيرا!

وبعد أن نهض الإمبراطور عن المائدة، توجه إلى مكتبه مباشرة وأخذ

يدور في الحجرة مدمدماً وذهنه مشغول بالتفكير في أمر رودلف وما ينبغي أن يتخذ في شأنه من قرار حازم!

وأخيراً جاءت الارشيدوقة استيفاني مسرعة إلى مكتب الإمبراطور وقالت له:

– أبي.. لقد جاءت الآن رسالة من رودلف بعث بها من مايرلنج وهو يعتذر فيها عن تخلفه باضطراره إلى أن يمضي ليلته هناك لشعوره بتوعك طارئ لم يستطع معه الحضور لشدة البرد!

فأطرق الإمبراطور قليلاً وتمتم قائلاً: "أن البرد شديد حقا، ١٢ درجة تحت الصفر!"

وقد خفف اعتذار الارشيدوق رودلف من حدة الغضب التي أثارها تخلفه في نفس والده، ولكن هذا بقي بعد ذلك واجماً كئيباً، إذ كان لا يبغض شيئاً قدر ما يبغض اضطراب المواعيد وإهمال التقاليد فيما يتعلق بواجبات الأسرة.

الساعة التاسعة والدقيقة ٥٠ مساء.

فلسفة الموت والحياة.

رودلف وماري ما زالا جالسين إلى مائدة العشاء قرب المدفأة في حجرته الخاصة، ولكنهما لم يقربا أكثر ألوان الطعام التي قدمها لوشيك، واكتفى كل منهما بقليل من السوائل وبعض التوابل مع الإفراط في احتساء الشراب!. مما جعل لوشيك ييأس من إقبالهما على الطعام فرفع أطباقه عن المائدة.

كانت أنفاسهما الحرى تمتزج بالحرارة المنبعثة من أكوام الحطب والخشب التي يزودان بها النار المتقدة في المدفأة.. ومن هنا أقبلا على

الخمر ممزوجة بالماء للتخفيف من حدة تلك الحرارة المزدوجة، وفي الوقت نفسه لمحاولة إغراق همومهما المشتركة بما يتجرعانه من كئوس الخمر المتلاحقة، وللبحث عن مخرج من المأزق الذي وقعا فيه!

وطال تفكيرهما دون جدوى، وعبثا حاول رودلف أن يجد وسيلة يوفق بها بين حبه العنيف الجامح لماري وحياته الزوجية التعسة التي فرضت عليه فرضاً بوصفه وارث العرش. وزاد في حيرته ذلك القسم الذي قيد نفسه به في الصباح أمام والده وزوجته فقضى على سعادته وعلى سعادة ماري أيضاً، وبخاصة بعد ذلك النبأ الخطير الأخير نبأ الأمومة التي تنتظرها بعد أشهر معدودة.

وعبثا حاولت هي الأخرى أن توفق بين الاستمرار في حبها العنيف لرودلف، وبين تلك الأمومة التي لا يقرها أحد فضلا عن مخالفتها للتعاليم الدينية والتقاليد المرعية. وهكذا انتهى التفكير بكل من العاشقين اليائسين إلى أن حياتهما صارت عبئاً ثقيلاً، لا أمل فيها ولا رجاء، وخير لهما أن يتخلصا من همومها ومضايقاتها بالانتقال إلى العالم الآخر.. عالم الراحة الأبدية والسعادة الدائمة التي لا ينغصها عليهما أحد!

والواقع أن فكرة الموت التي سيطرت عليهما، اصطدمت في نفس كل منهما على حدة بالرغبة القوية في مقاومتها، لان كلا منهما كان يحرص على حياة الآخر أكثر من حرصه على حياته هو. ولكن هذه المقاومة سرعان ما كانت تنهار وتتلاشى أمام ما يعترض حياتهما المشتركة من أكدار وأخطار وعقبات كثيرة وضعتها في طريقهما الأقدار.

نعم، لقد شاءت الأقدار التي جمعت بين قلبيهما بذلك الحب القوي المكين إلا أن يكون موتهما المشترك وحده هو الوسيلة إلى إنقاذ هذا الحب

من كيد الكائدين وعبث العابثين.. وإذن لا مناص لهما من الاستسلام لما قضت به الأقدار!

وقطع رودلف أخيراً فترة الصمت الطويل بينهما، فقال لها: "أن كل إنسان في الوجود، كتب له ألا ينال سوى نصيب معين من السعادة. يلوح لي أننا كلانا قد استنفذنا هذا القدر المحدد لنا منها في هذه الحياة. فلم يبق لنا فيها سوى الحزن والألم ومواجهة الأخطار، فلم نكابر ونعاند أذن؟.. وماذا يحملنا على الاستسلام لمثل هذه الحياة الشقية الذليلة؟"

وسكت قليلاً ثم استأنف الحديث فقال: "أن حياة المرء كفصول السنة الأربعة: فيها الصيف الذي يجفف عوده ويذويه، والخريف الذي يجرده من مظاهر حيويته، والشتاء الذي يجعله ينكمش ويضطرب ويستحيل إلى صورة هزلية لما عليه.. والربيع وحده فيها هو فصل الحب والجمال والمرح. وهو مع الأسف لا يستمر غير أشهر معدودة!"

وهنا تكلمت ماري لأول مرة منذ جلسا إلى المائدة فقالت لرودلف: "ألا ترى أن كل سنة من عمر الإنسان لابد أن يكون فيها ربيع؟"

فانفرجت شفتاه عن ابتسامة باهتة حزينة وأجابها قائلاً: "قد يكون ذلك صحيحاً يا حبيبتي، ولكن ليس كل ربيع جميلاً إلى الحد المنشود، وكثيراً ما يتلبد الجو بالغيوم في الربيع فترتدي الحياة ثياب الحداد وتبكي عليها السماء بالمطر المنهمر الغزير!"

ثم اقترب منها وطوقها بذراعيه، وبقى هنيهة يتأمل وجهها الناضر وثغرها البسام، ويستنشق عبير شعرها المسترسل على كتفيها، ثم غمر خديها بقبلات حارة طويلة، وقال لها:

– دعيني يا حبيبتي!.. دعيني أنعم بهذا الجمال الذي جاوز حد الكمال والجلال!.. دعيني أمتع نفسي البائسة الشقية بهذا الفيض الطبيعي من الرقة والعذوبة وجمال الجسم والروح!.. كيف يعرض هذا الحسن الرائع للإهمال والمذلة والهوان؟.. كلا يا حبيبتي!.. أنك أسمى من ذلك وأنبل، وما ينبغي أبداً أن تكوني عرضة لتجرع تلك الكأس الحقيرة المريرة التي يصرون على تقديمها لك.. بيدي!. كلا!.. أنك لم تخلقي لمثل تلك الحياة الوضيعة الجامدة التي ينساق في تيارها أولئك القطعان من أشباه البشر، راسفين في أغلال البؤس والمهانة والشقاء!

وكانت ماري تستمع له وعيناها تطالعان في عينيه ما تنطوي عليه كلماته هذه من معاني اليأس من الحياة والرغبة في الموت الذي يجمع بينهما بلا رقيب ولا حسيب، وتحدث نفسها قائلة:

– نعم، أن الحياة ليست إلا سلسلة من الغش والكذب والخداع والعذاب. ونحن الأحياء لا ندري الغرض منها، ونبقى كذلك حتى يأتي الموت فينقذنا من تحمل ما في مآسيها ومهازلها من تعب وشقاء، وغدر وخيانة، ومطامع سخيفة، وآمال تشيد صروحها على الهواء!.. وهل هناك شك في أن هذه الحياة ليس فيها غير أوضاع مقلوبة؟.. أليس خمول الذكر وسوء التقدير والجحود جزاء من يحرص في هذه الحياة الدنيا على الأمانة والصدق والعمل النافع وما إليها من مكارم الأخلاق؟.. أي ذكي فطن راجح العقل نقي الضمير سلم من الاضطهاد والاستهزاء؟!.. وأي فكرة شريفة خلا الطريق إلى تنفيذها من العقبات والعراقيل؟!.. وأي عقيدة سامية نافعة لم يلق صاحبها ألواناً من العنت والاستخفاف والإساءات؟!.. ولماذا أذهب بعيداً وهذا رودلف أمامي يلقى شر العذاب في الحياة ويتنكر له أقرب الناس إليه، لا لذنب إلا أنه

إنسان نبيل النفس شريف الغاية يكرس عقله لوضع المبادئ الرفيعة للإصلاح، ولا يريد أن ينغمس في لجج الاستبداد والرياء والنفاق!.. وا أسفاه!. أن الذين يستهجنون الأقدام على الانتحار أكثرهم لا يعقلون!.. بل أكثرهم أنذال جبناء لا يحزنهم كثيراً أن يتمرغوا في أقذار الحياة وأكدارها لأنهم لا يشعرون أو لأنهم ضعفاء عاجزون!

وساد الصمت مرة أخرى ثم قال رودلف: "آه كم أحبك يا ماري!". فقالت له: "وآه كم أحبك يا رودلف!"

الساعة ١١ والدقيقة ٤٥ مساء.

شكوك!

البارونة هيلانة فتسيرا مستغرقة في تفكير عميق، يطوف بها طائف من التشاؤم حينا فتعلو وجهها سحابة من الكآبة والوجوم، ويعاودها الأمل والتفاؤل حيناً فيبدو في وجهها الاطمئنان والارتياح!

أن ماري لم تعد بعد، وبم تبعث إلى أمها بأي خبر. وفيما عدا الكلمة التي أرسلها وزير البوليس، لم تتلق البارونة الأم أي شيء عن ابنتها.. ولكن لا بأس!.. وما دامت هناك في "مايرلنج" فلا شيء يدعو إلى الجزع أو القلق!.. فالارشيدوق ولي العهد شديد الهيام بماري، وهو ولا شك يحرص عليها كحرصه على تاج الإمبراطورية أو كحرصه على حياته!

وأوت البارونة هيلانة إلى فراشها أخيراً، كأنما يئست من عودة ماري قبل الصباح، على أن النوم لم يقرب جفنيها إلا بعد فترة غير قصيرة مرت على لوحة خيالها أثناءها صور عديدة لابنتها ماري والارشيدوق ولي العهد والكونتيسة ابنة عمه صديقتها والهدايا الثمينة.. نعم الهدايا الثمينة. أليس من

حقها أن تعوض عما أقض مضجعها وأزعج خواطرها بينما الحبيبان ينعمان في مايرلنج بسعادة اللقاء وهدوء البال؟!

يوم الأربعاء ٢٩ من يناير.

عودة الأمير دي كويورج.

الكونت هويوس جالس وحده يدخن ويفكر على طريقته الخاصة وبأسلوبه الفلسفي المختار!

ومنذ الساعة السابعة صباحاً، كان لوشيك قد استيقظ واستأنف عمله اليوم في القصر بنشاط ملحوظ برغم ما يبدو عليه من الخمول. وبعد قليل سمعت خارج القصر جلجلة عربة ووقع حوافر جياد، وكان القادم هو الأمير دي كوبورج، وسرعان ما قفز من العربة واتخذ سبيله في خطا سريعة إلى حيث كان الكونت هويوس ينتظره. وهناك تركه لوشيك وعاد إلى ما كان فيه من عمل.

ولم يقل الأمير دي كوبورج كلمة، ولم يبد عليه أي أثر للضيق والتبرم حين ابتدره زميله بأنهما سيخرجان للصيد وحدهما اليوم أيضاً، على أن يلحق بهما رودلف وقت الغداء!.. ولم يشأ أن يضيع الوقت بالجلوس قليلاً ريثما يستريح من عناء السفر، بل أبدى استعداده لبدء رحلة الصيد فوراً بلا أي تردد أو إبطاء!

صحيح أن المسافة بين مايرلنج والعاصمة ليست قصيرة، وأنه قطعها مرتين خلال الليلة الماضية، وهذا إلى الجهد العنيف الذي بذله أمس في الصيد ومواجهة العاصفة. ولكن أهذه أول مرة يواصل فيها الصيد والسفر المجهد الطويل؟!.. وفيم أذن اتخذ الصيد هوايته المفضلة؟. وفيم كان اقتناؤه تلك الجياد الأصيلة التي تسبق الريح؟!

الساعة التاسعة صباحاً.

تفاؤل.

أصبحت البارونة هيلانة فتسيرا مثقلة الرأس، متخاذلة الجسم، لما عانته في ليلتها من أرق وقلق وتفكير حائر طويل. على أن حدة الصداع التي شعرت به ما لبثت أن خفت كثيراً حين انبلج الصباح عن يوم مشرق من أجمل أيام الربيع.

ولم يكن هناك في الواقع ما يحملها على التشاؤم، أو على اعتقاد أن ماري كانت جادة تعني ما قررته من الانتحار، بل الواقع أن هذا القرار في اعتقادها حتى الآن لم يكن أكثر من نزق صبياني وفورة من فورات العاطفة الجامحة التي سرعان ما تخمد وتذهب مع الريح!

وصحيح أن ماري لم تعد بعد من مايرلنج، ولكنها هناك في أمان من كل خطر، فالارشيدوق ولي العهد هو نفسه الذي يتولى حمايتها ووقايتها، وهو يقوم بهذه المهمة مدفوعاً بعامل حبه القوي لماري، وما كان لذلك ليدخر في سبيل رعايتها والعناية بها كل ما يملك من جاه ونفوذ وأموال!

أن البارونة الأم خليق بها أن تطمئن كل الاطمئنان بعد أن أخبرها وزير الأمن بتوجه ماري إلى مايرلنج، فمعنى هذا أن العلاقات بين ولي العهد وابنتها تزداد توطداً، وفي ذلك وحده ما يكفي ليس للاطمئنان إلى سلامة هذه الابنة فقط، بل للاطمئنان أيضاً إلى مستقبل ماري والأسرة كلها!

وبهذا ومثله أخذت تحدث نفسها وهي تمشط شعرها المستعار أمام المرآة، ثم قالت لنفسها أخيراً:

– نعم أنه لشرف عظيم لآل فتسيرا كما أنه ربح مادي عظيم!

الساعة التاسعة والدقيقة ١٥.

تحت أشعة الشمس.

استيقظت ماري فإذا رودلف راكعاً بجانب سريرها يتأملها متعبداً متعجباً!.. ثم ابتدرها بتحية الصباح على الطريقة التي تتفق وشدة هيامه وتعلقه بها.. قبلة حارة وعناق طويل!

وارتسمت على ثغرها ابتسامة تعبر عما تحسه من سعادة وارتياح واطمئنان، وزاد في مرحها وابتهاجها أن فتحت نوافذ الغرفة فإذا أشعة الشمس الذهبية تدخل وتضفي على كل ما في الغرفة جمالاً فوق جمال! وتشيع في جوانبها الدفء والنور وقوة الحياة!.. وكان الجليد يتساقط خفيفاً على الشجر في الخارج فتبدو أعاليها في أشعة الشمس الساطعة كأنما تزينها تيجان من لؤلؤ ومرجان، ومضت فترة طويلة وكل منهما متشبث بالآخر لا يريد أن يفارقه أبداً، وكلما فرغا من العناق والتقبيل، عاودهما الشوق والحنين، فلم يجدا بدا من استئناف ما كانا فيه!

وحينما نهض رودلف عند الظهر ليمضي ساعة في تناول الغداء مع ضيفيه الصديقين، كان بادي الألم لاضطراره إلى فراقها حوالي الساعة، وقال لها: "نعم يا حبيبتي يجب ألا نفترق أبداً، وإذا لم تتسع الحياة لتساقينا كئوس الحب والسعادة هكذا، ففي الحياة الأخرى متسع لكل حبيبين تقف في سبيل حبهما العقبات!"

ولم تقل هي أي كلمة، ولكن عينيها كانتا تتكلمان بما يؤيد نظرية رودلف كل التأييد!

الساعة الثانية عشرة.

حديث عالمي.

جلس رودلف مع ضيفيه الصديقين في قاعة الضيوف بالقصر ليحييهما بتناول الغداء معهما، وكان وجهه خلال ذلك ينم عما يكتمه من قلق أسى شديدين.

أن السعادة التي يجدها هو وحبيبته في خلوتهما المحببة، لم يبق منها غير ساعات معدودات. ولاشك أن ماري يؤلمها أن يمضي جانباً من هذه الفترة القصيرة مع غيرها، وهو نفسه يؤلمه ذلك أيضاً!.. فماذا يصنع لكي يعجل بالعودة لها؟

أخذ ينتحل المعاذير لصديقيه معرباً عن أسفه لاضطراره إلى التخلف عن الخروج معهما للصيد، ثم أخذ يتململ في مجلسه، ويشكو من أنه يشعر باشتداد الصداع الذي ألم به، وبأنه في حاجة ماسة إلى الراحة. وكان صديقاه من اللطف والكياسة بحيث تجاهلا كل شيء، وأخذا يتسابقان إلى إقناعه بقبولهما معاذيره، وبارتياحهما لما يلقيان من حسن ضيافته، من غير أن يشيرا أية إشارة إلى ماري فتسيرا واعتكافها العجيب منذ وصولها إلى القصر!

كان كل من الأمير دي كويورج والكونت هويوس من أولئك الذين يتقنون إظهار الظرف، وقد مرنا على اللباقة وحسن التخلص من أمثال هذا الموقف. ورودلف نفسه يعرف ذلك فيهما، ويعرف أنهما ممن يحرصون كل الحرص على الظهور دائماً بمظهر التقديس التام لأسرار الآخرين وتجاهلها كل التجاهل. ثم لا عليهم بعد ذلك أن يتنافسوا في التحدث عنها بصراحة وإفاضة حينما يخلو بعضهم إلى بعض، وقد يلتمسون الوسائل إلى ذلك في

المجتمعات باللجوء إلى الكنايات بدلاً من التصريح، فيتبادلون الحديث عن الزكام أو أحد الجياد أو كلاب الصيد بينما هم يعنون غانية شقراء ناعمة الخدين، أو فاتنة سمراء!

وهكذا جرى الحديث على المائدة حول الجياد وكلاب الصيد والبنادق ومباريات البطولة في فيينا وأجود أنواع النبيذ والسيجار، من غير أن يشترك فيه رودلف إلا بمقدار، فقد كان طول الوقت مطرقاً بادي الكآبة والوجود، وقد انحصر تفكيره في ماري، وفي مصيرهما المشترك القريب. وأخذ يسأل نفسه: "ترى ماذا تصنع هناك وحدها الآن؟.. يا للصغيرة الحسناء!.. إلا يحتمل أن تخونها شجاعتها فتتراجع وتعدل عن موافقتها على ذلك المصير؟.. وماذا يصنع أذن؟.. أنه لا يستطيع أن ينهي حياتها ما لم توافق هي على ذلك!"

ولم يتمالك عواطفه فاغرورقت عيناه بالدمع إشفاقاً على حبيبته الحسناء من ذلك المصير، وكأنما رأى تغطية موقفه أمام صديقيه فنادي لوشيك الذي كان منهمكاً في تزويد المائدة بألوان الطعام الشهية وزجاجات النبيذ المعتق، وقال له:

– هناك دخان كثير يتصاعد من المطبخ يا لوشيك!.. أن الغابة مليئة بالأشجار فيجب الحذر حتى لا تتعرض لخطر الحريق!

ثم عاد بعد ذلك إلى إطراقه وإلى ما كان فيه من تفكير. وفيما هو غارق في بحار هواجسه المقلقة المحيرة فاجأة أحد الضيفين الصديقين بأن سأله مداعباً: "ما رأيك يا عزيزي رودلف في ذلك البرج الذي يريد الفرنسيون أن يقيموه بباريس؟.. هل يعقل أن يقام برج كهذا ارتفاعه ثلاثمائة متر ولا يعرض للسقوط؟"

وأجاب رودلف متمتماً: "آه.. ذلك البرج.. عفواً يا عزيزي!. ما له ذلك البرج؟!"

وكانت إجابته هذه مدعاة إلى قهقهة صديقيه، ولم يسعه هو نفسه إلا أن يشاركهما الضحك متكلفاً ذلك مسايرة لهما، ثم تركهما يتبادلان الضحكات والنكات واستغرق مرة أخرى في التفكير.

لقد طال انتظار ماري، ولاشك في أنها الآن تترقب عودته على أحر من الجمر!.. لكن أهذه العودة هي كل ما تريده؟.. أنهما اتفقا على الخلاص من هذا العالم المليء بالأكدار والمنغصات، لكنهما لم يتفقا بعد على طريقة ذلك الخلاص!.. أيكون ذلك بالمسدس؟.. هذا محتمل!.. أم يكون بتجرع نوع من السموم الفتاكة؟.. هذا محتمل أيضاً؟.. ولكن كلا!.. فقد يموت أحدهما بذلك السم بينما يبقى الأخر على قيد الحياة!

وأخيراً لم يعد في استطاعته أن يبقى بعيداً من ماري أكثر مما بقي، فنهض عن المائدة متظاهراً باشتداد وطأة الصداع الذي يشكوه إلى حد يقتضي مبادرته بالاعتكاف بقية اليوم، وطلب إلى ضيفيه الصديقين أن يخرجا للصيد وحدهما، واعداً بأن يشاركهما الصيد منذ ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي، ثم ودعهما ليعود إلى ماري قائلاً لهما:

– إلى اللقاء أيها العزيزان، موعدنا السابعة من صباح غد!

الساعة الخامسة والدقيقة ٤٥ مساء.

العودة من الصيد.

عاد الأمير كوبورج والكونت هويوس من الصيد في غابة مايرلنج، وجلسا معا في غرفة الضيوف بالقصر، وأمامهما مائدة عليها بعض الأطعمة الخفيفة

وزجاجة من نبيذ توكاي.

وكانا متعبين مما بذلا من جهود شاقة في الصيد فلم يقبلا كعادتهما على الطعام والشراب. وما لبث الأمير دي كوبورج قليلاً حتى أخذه النعاس فتدلى رأسه على صدره وهو جالس على مقعده، في حين أخذ الكونت هويوس يسلي نفسه بالنظر في الصحف وإشعال سيجارة من أخرى متظاهراً بالانهماك في القراءة وأن لم يهمه فهم ما يقرأ في قليل ولا كثير!

ومل القراءة والتدخين أخيراً، فألقى الصحيفة التي كانت في يده على الأرض، ثم أخذ في إنشاد أغنية حديثة موقعة على رقصة الفالس. وهكذا أفلح في إيقاظ زميله من سباته العميق، فرفع رأسه وفتح عينيه، ثم تناول كأساً من النبيذ واعتدل في جلسته استعداداً لمشاركة الكونت هويوس في السمر حتى تنتهي السهرة ويأويا إلى الفراش!

وتناول حديثهما موضوعات شتى، كلها تافهة لا أهمية لها!.. فتحدثا عن الثلج الذي يتساقط أثناء الليل، وعن الأثر الذي يتركه في مختلف المزروعات، وعن توقع إقبال الطبقات الراقية على الموسم القادم لكرنفال نيس وعجائب الضوء الكهربائي وكيف تمكن بعض المخترعين من صنع مصباح قوته خمس شمعات في زجاجة كورية صغيرة.

وهنا قال الأمير دي كوبورج: "ألا ترى يا صديقي أن هذا الاختراع يؤذي الأنظار؟ أن ضوءه الساطع القوي لابد أن يحرق العيون!"

فقال له الكونت هويوس: "على أي حال يا عزيزي ليس هذا المصباح الجديد أشد خطراً من غاز البترول الذي يعرض البيوت بمن فيها وما فيها للحريق والدمار!"

فقال الأمير دي كوبورج: "كلا!.. ليس هناك ما يمكن أن يعوض ضوء الشموع يا عزيزي الكونت، ذلك الضوء الخيالي البديع الذي يترك في النفس أثراً كبيراً له فائدته المحققة ولاسيما نفوس السيدات!"

الساعة الثامنة مساء.

الليلة الأخيرة.

رودلف وماري يعدان بأيديهم عشاءهما الأخير!.. وقد ارتسمت على وجهيهما علامات الهدوء والعزم ورباطة الجأش، نتيجة لما استقر في نفسيهما من الرضا بالمصير المشترك الذي قرراه وصار عدولهما عنه من المستحيلات فيما يعتقدان.

ومضى رودلف يؤدي تلك المهمة في نشاط كبير: يعد شرائح اللحوم المجففة وأطباق البطارخ وما إليها، ويضع على المائدة ألذ أنواع الفطائر وأفخر أنواع الحولى، وفي الوقت نفسه يملأ كأسه وكأس ماري بالنبيذ المعتق النادر ويحثها على الشرب بأرق العبارات!.. ثم يهتف بتابعه الخاص الأمين لوشيك من حين إلى حين قائلاً له: "هيا يا لوشيك.. أين ما عندك من خمر معتقة، وأين الألوان الأخرى من الطعام والتوابل والمشهيات. أليس لديك فاكهة أشهى وألذ؟.. هيا.. أننا نريد من كل شيء أحسنه وأجوده، ونريد أن يكون كثيراً منوعاً!"

أما البارونة الصغيرة الحسناء فكانت تشارك في إعداد المائدة وتنسيقها بذوقها الرفيع، ثم تقبل بشهية على ألوان الطعام والشراب، وتقارن بين لون ولون بدقة المجرب الخبير، ولا تنسى عدا هذا وذاك أن تملأ الجو بضحكها ودعاباتها، ومن وقت لآخر تنهض وكأنما استخفها الشراب فترقص وتغني

وتريح رأسها على صدر حبيبها فتزيده بقبلاتها وعناقها نشوة على نشوة!

على أن كلا منهما بينه وبين نفسه، كان يشعر بشيء غير قليل من القلق والارتباك إزاء النهاية القريبة المنتظرة، فيحاول جاهداً إخفاء هذا الذي يشعر به والترفيه عن الآخر بكل ما يستطيع!..

الساعة العاشرة والدقيقة ٣٥ مساء.

الوداع الأخير.

– حبيبتي العزيزة ماري: أتسمحين لي بدقائق معدودات أكتب فيها رسالتين أو ثلاث رسائل؟!

– بكل سرور وارتياح يا حبيبي رودي!.. وإذا شئت فإني خلال ذلك أعزف لك بعض الألحان!

وتبادل العاشقان قبلة أخرى، ثم جلس رودلف يكتب، بينما أخذت ماري تعزف على البيانو لحناً حزيناً مؤثراً من ألحان شوبان!. ثم أعقبته بلحن آخر له يفيض بالأحلام العاطفية الرقيقة. وأخيراً اختتمت العزف بلحن لشوبرت اسمه "شكاوى العاشقين!"

وفي خلال ذلك كان رودلف قد انتهى من كتابة الرسائل الثلاث:

كانت الرسالة الأولى، إلى لوشيك تابعه الخاص الأمين، وقد استهلها بعبارة رقيقة عبر بها عن تقديره العظيم لولائه الدائم وأدبه الجم وأمانته الفائقة. ثم أعقب ذلك بتوصيات خاصة بتوزيع الأسلحة والملابس وأدوات الصيد التي سيتركها في قصر مايرلنج وقصر الصيد الصغير المجاور له.

وكانت الرسالة الثانية إلى الإمبراطورة إليزابيث والدته الطيبة الحنون، وقد

أوصى بإيداعها خزانة خاصة في "برنو" على ألا تفتح قبل سنة ١٨٩٠. وحرص على أن تكون غاية في العذوبة والرقة، منوها فيها بأنها صادرة من أعماق قلب عطوف رقيق إلى أعماق قلب عطوف رقيق، وكلها توسل ورجاء من ابن بائس منكوب منكود الحظ يطلب الصفح والمغفرة من أم قضت عليها الأيام بأن تكون مثله فريسة للآلام والأحداث الجسام.

أما الرسالة الثالثة فكانت إلى الارشيدوقة استيفاني زوجته.. تلك الأميرة البلجيكية التي جاءت إلى فيينا منذ سبع سنين فاستقلت فيها استقبال الأبطال العائدين من ميادين النصر، وأقلتها يومئذ عربة موشاة بالذهب الوهاج والجواهر المتلألئة تجرها ستة جياد ناصعة البياض.. وقد كتب رودلف هذه الرسالة بخط يدل على عزم صاحبه وشدة بأسه ورباطة جأشه وأن كانت حروفها مائلة، وطوقها بشريط أسود يشير إلى الحداد، كما وقع عليها بالحرف الأول من اسمه بطريقة تنم عن شخصية قوية متزنة، بل الواقع أن خطه في عباراته المنتقاة في الرسالة كلها كانت مع التأنق البادي في تنسيق السطور ومقاطع الكلمات دليلاً كافياً على أن الارشيدوق الشاب كان حين كتابتها في تلك الساعة الحرجة من حياته مالكاً لكل قواه مسيطراً على إرادته وأعصابه بما لا يدع أي مجال للظن بوقوعه حينذاك تحت تأثير الخمر أو أي نوع من المخدرات!

ولا يزال أصل هذه الرسالة محفوظاً حتى الآن مع أصول "المذكرات" التي أعدتها الارشيدوقة استيفاني ونشرتها مكتبة "كيهلر" الشهيرة في ليبزج بألمانيا.

وقد تضمنت هذه الرسالة ما يلي:

"عزيزتي استيفاني.. الآن وقد حانت الساعة التي تستريحين فيها من

عذاب وجودي، أرجو أن تعيشي من بعدي سعيدة بالمعنى الذي تفهمينه من السعادة.. أوصيك بالطفلة الصغيرة وهي كل ما بقى مني

"تحياتي الأخيرة إلى جميع أصدقائنا، وعلى الأخص بومبل، وسبندلر، ولاتور، ونوفو، وجيزيل، وليوبولد.

"هأنذا في طريقي إلى الموت وحده ولا شيء غيره هو الكفيل بالمحافظة على سمعتي!

"ر..."

الساعة الحادية عشرة مساء.

بين الفصول.

الأمير دي كوبورج والكونت هويوس مستغرقان في نوم عميق، وقد غاص كل منهما تحت طبقات كثيفة من الأغطية الصوفية الثقيلة، اتقاء للبرد الشديد، وطلباً للراحة من عناء الصيد بالنهار.

أما حجرة الارشيدوق الخاصة بالقصر، فلم تكن تحوى إلا العاشقين وحدهما في ذلك الوقت، لقد قطعا هناك ساعات في خلوة لذيذة محببة، ولم تعد لديهما أية رغبة في الاستزادة من الطعام أو الشراب، كما أخذا كفايتهما وزيادة من المداعبات والعناق والتقبيل!

نعم، لقد بلغا قمة السعادة في ذلك اليوم، اليوم الذي قررا أن يكون آخر أيامهما في هذه الحياة!. ولكن ماذا يصنعان بالساعات الباقية؟.. أنهما لا يخشيان الموت ما في ذلك شك، وقد كان في وسعهما أن يتخذا قراراً آخر لا ينتهي به كالرحيل خفية إلى أمريكا أو غيرها مثلا، ولكنهما ما كانا

ليرضيا عن مثل هذه النهاية الوضيعة السخيفة التي تلطخهما بعار الجبن والفرار، وكان الموت، والموت وحده، هو الحل السعيد الذي انتهيا إليه بعد طول التفكير!

وكادت ماري تقترح على رودلف أن يعجلا بالنهاية المحتومة، غير أنها سرعان ما اهتدت إلى وسيلة أخرى تتيح لها الاستمتاع بحبيبها فترة أخرى وفي الوقت نفسه تتقي بها شبح الإشفاق الذي بدأ يتراءى لها خلال فترة الركود التي أعقبت ما بذلاه طوال يومهما من جهوداً.

كانت قد سمعت من قبل أن في مايرلنج خادماً عجوزاً اسمه "جوهان ترنكليني" كان في شبابه يعمل حوذياً في العاصمة. وقد اشتهر بإجادته الغناء والصفير والرقص ورواية القصص المضحكة وتقليد أبناء الطبقة الارستقراطية في حركاتهم وأحاديثهم، وتقليد محدثي النعمة في تكلف الوجاهة، كما يجيد تقليد السكارى والبوهيميين المستهترين الذين يطلقون لأنفسهم العنان ويأتون بتصرفات مخجلة مضحكة ولكنهم لا يخجلون لأنهم يأتونها من حيث لا يشعرون.

وهنا قالت لرودلف فجأة: "ما رأيك يا عزيزي؟.. أتسمح بأن ندعو إلى هنا ذلك العجوز الظريف جوهان ترنكليني؟.. أنني سأغني معه إذا حضر!"، ثم مالت عليه وهمست في أذنه فقالت متمتمة: "أنني أخشى أن يتسرب إلى نفسي شيء من الجبن، فإذا حضر العجوز المضحك فسيكون في الغناء والرقص والضحك ما نقطع به الوقت على خير ما يكون.. أليس كذلك أيها الحبيب؟!"

وكان جوابه أن نادي لوشيك وعهد إليه بإحضار جوهان ترنكليني في أقرب وقت مستطاع.

وبعد دقائق معدودات، كان جوهان يسرع الخطى خلف لوشيك إلى حجرة الارشيدوق الخاصة، وقد نصب قامته المديدة، وشمخ بأنفه الأحمر كالياقوت. وفتح رودلف باب الحجرة حين سمع وقع الخطوات القادمة، ثم هتف مرحباً بجوهان كعادته مع الخدم وأفراد الطبقة الفقيرة إذ كان يعاملهم معاملة الند بالند ويغشى مجالسهم حيث يشرب معهم نبيذ الراين كأساً بكأس ويتبسط في الحديث معهم كأنه واحد منهم!

وفوجئ جوهان عقب ذلك بوقوع نظره على ماري وقد وقفت خلف الباب عارية الكتفين محلولة الشعر. ولم يكن قد رآها من قبل ولا سمع شيئاً عن علاقة الارشيدوق بها، فظن أنها الآنسة "ميرز" الغانية الجميلة التي رآها مرة في إحدى الحانات الليلية في العاصمة وهتف يجيبها قائلاً:

– أوه!.. أهذه أنت يا آنستي الصغيرة ميرز؟، أية سعادة أتيحت لي برؤيتك الليلة بعد كل ذلك الفراق الطويل!

وكان هذا الخطأ باعثاً لماري على إطلاق ضحكة عالية رنت في جوانب الحجرة، ولم يسع رودلف إلا أن يشاركها الضحك بعد أن تجهم وجهه أول الأمر لهذا الخطأ غير المقصود!

أما جوهان فأطلق نفسه على سجيتها، وشرع من فوره في ممارسة ما عرف عنه من ألوان المرح والفكاهة الشعبية، فبدأ بعزف مقدمة بفمه للحن موسيقي معروف بينما يحرك رأسه ويديه كأنه يوقعه على البيانو، ثم أردف ذلك بتقليد بعض الألحان العسكرية، ثم سرد بعض الأنباء المبتكرة بطريقته الخاصة الفكهة، وانتقل من ذلك إلى مختارات من الأغاني الشعبية التي اشتهر بها سائقي العربات في فيينا، وكانت ماري تشاركه الغناء في أكثرها بسهولة تامة وفي غير كلفة مما أدهش رودلف وسره إلى حد كبير، وأن خشي أن تفسد

هذه "الكوميديا" خطتها الموضوعة فود لو تنتهي في أقرب وقت. غير أن ماري كانت قد اندمجت فيها بكل جوارحها وأخذت تهتف بجوهان كلما انتهى من أغنية: "أخرى يا جوهان.. أغنية أخرى!". وكان لعشرات الأكواب من النبيذ التي احتستها أكبر الأثر في استرسالها مع الحوذي المرح العجوز في أغانيه وفكاهاته إلى أن أدركه التعب أخيراً فكف عن الغناء والتفت إلى الارشيدوق قائلاً:

– عفواً يا صاحب السمو!.. لابد أنك تستيقظ في ساعة مبكرة إذا كنت قد اعتزمت الصيد منذ الساعة السابعة. لذلك يجب أن انصرف الآن حتى تأخذ قسطاً من الراحة!

ونظر رودلف إلى ماري فلما أدرك رغبتها في استمرار هذه السهرة الغنائية قال لجوهان:

– إذن اسمعنا أغنية أخرى يا جوهان!

فقال الحوذي العجوز: "حسنا يا صاحب السمو، سأنشد الآن أغنية الختام!". ثم مضى في إنشاد أغنية، وأعقبها بثانية وثالثة ورابعة استجابة للرغبة الملحة التي كانت تشع من نظرات ماري. وأخيراً كف جوهان عن الغناء وهم بالانصراف متجهاً إلى الباب وهو يقول:

– لو أنني مكثت أكثر من ذلك لكنت مستحقاً للتأنيب غداً من سيدي الارشيدوق.. ومن آنستي الصغيرة (ميرز) أيضاً!.. أرجو لكما أحلاماً سعيدة.. وإلى اللقاء!

الفاجعة

الخميس ٣٠ يناير سنة ١٨٩٩.

الساعة الواحدة والنصف صباحاً.

بدأ المشهد الأخير من المأساة التي اتفق العاشقان على تأليفها وإخراجها وتمثيلها. وكان ذلك على أثر انصراف جوهان العجوز، وقد أذن الارشيدوق للوشيك في أن يأوي إلى فراشه ليستريح قليلاً من عناء الجهود التي ب١لها طول اليوم.

وقد جرى هذا المشهد بعد أن أغلق رودلف باب حجرته الخاصة،فبقيت لذلك تفصيلاته سراً ليس إلى كشفه من سبيل. وكل ما أمكن معرفته بعد ذلك عنه لا يخرج عن استنتاجات واحتمالات!

ومن المرجح أن ماري كانت كعادتها شديدة التأثر مشتعلة الوجدان ملتهبة العاطفة على نحو ما تبدو البطلة في إحدى روايات الكاتبة الفرنسية جورج صاند. فقد شاء القدر للحسناء الصغيرة المرحة أن تمثل الدور الأول في دراما عنيفة من درامات الحياة تجمعت في فصولها أشتات من العواطف والأحداث والظروف والملابسات: من نزاع وتصادم بين الواجبات الاجتماعية والشخصية، بين الولاء لوالد مستبد متغطرس وأم حنون شديدة الإحساس، وبين هذا كله والحب القوي العنيف الذي سيطر على قلبها وتفانت فيه بكل جوارحها ومشاعرها.. وأخيراً ها هي ذي يفرض عليها الموت فرضاً وهي في الثامنة عشرة من عمرها بعد أن كادت تغدو إمبراطورة!

أن السنين التي عاشتها قد حفلت –على قلة عددها– بأعجب الأحداث والمفاجآت واشتملت على جميع العناصر التي توحي إلى الكتاب والشعراء والفنانين بأروع الإنتاج وأبدعه وأبلغه أثراً في النفوس!

ومن المرجح أيضاً أن رودلف في تلك الساعة كان شعوره هو الآخر أشبه بشعور بطل من أبطال الروايات الخيالية. فقد كان من أكثر أبناء وطنه ثقافة وأشدهم إحساساً وأرقهم عاطفة. وقد استوعب كل مؤلفاته: شاتوبريان وجوته وبيرون، فلم لا يكون بطلاً من طراز "رينيه" أو "فرتر" أو غيرهما من أبطال أولئك المؤلفين؟

على أنه مما لاشك فيه أن رودلف وماري لم يقضيا ساعاتهما الأخيرة في البكاء والتأوه والتفجع، فقد كان لكليهما من قوة الإرادة وعزة النفس وسمو الخيال ما ينأى بهما عن الهبوط إلى مثل ذلك المستوى الوضيع الذليل من خور العزيمة وولوله الخوف والجزع التي تشبه ذلك الثغاء المتقطع المتفجع للنعاج المسوقة إلى الذبح!

ومما يؤيد هذا أن القرار الذي اتخذه العاشقان، لم يكرههما عليه أحد بل اتخذاه عن طواعية واختيار، بعد أن اشتركا في تقليب الأمر على جميع وجوهه، وأيقنا أن موتهما معا على ذلك النحو خير لهما من حياة لم يعد فيها لكل منهما سوى الكبت والحرمان والألم الممض المرير!

وأذن.. لابد أن رودلف وماري قضيا تلك الساعات الأخيرة من حياتهما في جو يليق بذلك السمو النفسي، وتلك السعادة القلبية التي بلغ بهما الحب قمتها، فاقتعدا هذه القمة جنبا إلى جنب تغمرهما نشوة لذيذة لا يعرفها إلا من تذوق حلاوة التجرد من المشاعر المادية، وانسلخت روحه عن الشعور بدنيا الأجسام وكل ما فيها لترتع في بحبوحة من صفاء الأرواح

وملذاتها الراقية الخالدة في مجالها الحيوي الحقيقي غير المحدود!

وهذه هي الحالة التي نتخيلهما عليها حينذاك، لأنها الختام الطبيعي المعقول للفصول السابقة من قصة حبهما المتبادل المكين. وقد ثبت أنهما حرصا كل الحرص على أن يقضيا الساعات السابقة لذلك الختام في جو كله نشوة وصفاء وابتهاج، فلا عجب أن جرى الختام أيضاً في هذا الجو نفسه، فمضى العاشقان في تذوق ألوان الحب والجمال وفي ارتشاف كئوسهما حتى الثمالة.. وهكذا عبرا القنطرة التي أقامها للانتقال إلى العالم الآخر.. عالم الطمأنينة الروحية والسلام الدائم، عالم اللانهائية الأبدية والخلود!

الساعة السادسة صباحاً.

نزول الستار.

هذا هو لوشيك الوفي الأمين قد استيقظ مبكراً كعادته، فأخذ المشعل في يده، وتوجه إلى الجناح الذي يشغله سيده ففتح نوافذ الدهليز الخشبية تجديداً للهواء ولتستقبل درجات السلم المواجهة لهذه النوافذ أضواء الصباح.. ثم مضى في طريقه حتى بلغ باب حجرة النوم الخاصة بالارشيدوق فطرقه طرقتين خفيفتين هاتف بصوت هادئ رقيق:

– الساعة السادسة الآن يا صاحب السمو.. هل سموك معتزم الصيد اليوم، وهل أعد القهوة الآن؟

ورد عليه الارشيدوق من وراء الباب المغلق قائلاً في صوت أكثر رقة وعمتا:

– أجل يا لوشيك، أتخذ العدة للصيد، سأكون على استعداد للخروج في تمام الساعة السابعة!

واستدار لوشيك لينصرف إلى تنفيذ التعليمات قائلاً: "حسنا يا صاحب السمو". غير أن صوت الارشيدوق انساب مرة أخرى إلى سمعه من وراء الباب قائلاً:

– لوشيك.. أريد ألا يزعجني أحد منذ الآن حتى الساعة السابعة، أسامع أنت؟.. مهما تكن الأسباب يا لوشيك.. حتى إذا كان الأمر متعلقا بالإمبراطور نفسه!

ولم يزد لوشيك على أن قال وهو ينصرف: "سمعاً وطاعة يا صاحب السمو". ثم انطلق لتنفيذ التعليمات التي تلقاها، وقد ركز فيها كل تفكيره وعنايته. متجاهلاً كل ما عدا ذلك، حتى ماري التي تركها مع سيده في حجرته الخاصة في منتصف الساعة الثانية من صباح اليوم نفسه. وهذه إحدى مزايا لوشيك الوفي الذكي الأريب، فقد كانت ماري في نظره كأنها غير موجودة، ولم يجر ذكر اسمها قط على لسانه منذ وصولها إلى القصر!

ولم ينس لوشيك أن يستهل صفحة اليوم الجديد في مفكرته الخاصة بتلك التعليمات التي تلقاها من الارشيدوق، وقد كتبها وهو يسير في طريقه إلى الباب الخارجي لجناح سيده، وكان بالباب أحد الخدم يقوم بتنظيف الردهة على ضوء مصباح صغير فناداه وأمره أن يبلغ كبير الحوذية أمر سمو الارشيدوق بإعداد عربة الصيد. وفيما هو يهم باجتياز باب الجناح الخاص بعد انصراف ذلك الخادم، إذا به يسمع الارشيدوق يناديه قائلاً:

– كلا يا لوشيك!.. أذهب أنت لتنفيذ التعليمات الخاصة برحلة الصيد، لست أحب أن تضطرب الأمور ولا يتم كل شيء على ما يرام بسبب أي سهو أو نسيان!.. ثم بعد اطمئنانك التام على إعداد معنيات الصيد كلها لا تنس أن تعرج على جناح الضيفين الصديقين لإيقاظهما أن لم يكونا قد استيقظا بعد..

وأخيراً عد إلى هنا في الساعة السابعة!

وسكت الارشيدوق على أثر ذلك، أما لوشيك فاستأنف سيره ليلحق بالخدم ويتولى هو بنفسه تنفيذ التعليمات!

الساعة السادسة والدقيقة الخامسة صباحاً.

في الإسطبل والمطبخ.

لوشيك منهمك في أداء مهمته الدقيقة، وقد وزع نشاطه بين الإسطبل والمطبخ، فهو يشرف على أعمال الحوذية والسياس في تنظيف الجياد وتمشيط شعورها وإعداد أدوات الصيد وتلميعها، ويشرف هنا على الطهاة والخدم وهم يعدون ألوان طعام الإفطار على الطريقة الإنجليزية حسب تعليمات الارشيدوق.

لقد كان البرد شديداً في ذلك اليوم، ومن أجل ذلك كان لوشيك يوجه كل عنايته إلى أن تكون ألوان الطعام كثيرة متنوعة دسمة، وإلى أن تكون بنادق الصيد وأسلحته وكل أدواته على ما يرام، ويحدث نفسه أثناء ذلك قائلاً:

– ما دامت البطون مليئة بالطعام والشراب، وما دام الصيد كامل المعدات والأدوات، فكل ما عدا ذلك يهون!

الساعة السادسة والدقيقة **٢٥** صباحاً.

ضجة.. وسكون.

السكون التام يخيم على جناح الارشيدوق بقصر مايرلنج، فلا حركة ولا صوت ولا أي شيء يدل على وجود أحد هناك.. وعلى عكس ذلك كانت

الضوضاء الشديدة تنبعث من الأجنحة الأخرى بالقصر وملحقاته، وأشدها في الإسطبل حيث تختلط أصوات الخدم بصهيل الجياد وجعجعة العجلات، وفي المطبخ حيث تختلط أصوات الطهاة ومساعديهم بقعقعة الصحون والملاعق وغيرها من أدوات الطعام وآنيته.. ومن حين لآخر يبرز خلال الضوضاء والجلبة صوت لوشيك وهو يلقي التعليمات هنا وهناك، أو غناء الأمير دي كوبورج والكونت هويوس وهما يتسليان بترديد إحدى الأغاني المرحة بينما يتأهبان لأول رحلة للصيد في مايرلنج، يشترك فيها معهما صديقهما الارشيدوق الشاب بعد أن حالت ظروف طارئة دون اشتراكه معهما في الرحلات الماضية.

الساعة السادسة والدقيقة ٣٠ صباحاً.

في قاعة المائدة.

طعام الإفطار معد في قاعة المائدة المخصصة للضيوف بالقصر، وقد أخذ كل من الأمير دي كوبورج والكونت هويوس مكانه إلى المائدة، وبدا أن رائحة الطعام قد فتحت شهيتهما، فتعلقت عيونهما بباب القاعة في قلق واستعجال لحضور الارشيدوق مضيفهما الكريم.

وعيل صبرهما بعد أن مضت دقائق وهما في الانتظار، فأخذت أسئلتهما تنهال على لوشيك الواقف بالباب: "أواثق أنت من أنه استيقظ؟.. هل أمر بأن يكون كل شيء معداً لبدء رحلة الصيد في تمام الساعة السابعة.. أليس من الجائز أنه يريد تناول الإفطار ي حجرته الخاصة؟". وكان لوشيك يجيب عن هذه الأسئلة بلهجة الواثق قائلاً: "لقد نفذت تعليمات سمو الارشيدوق بكل دقة، ولابد أنه الآن في الطريق إلى هنا!"

الساعة السادسة والدقيقة ٥٠ صباحاً.

ساعة البطون.

لقد تعبت أخيراً عيون الضيفين الكبيرين في التطلع إلى باب قاعة المائدة، ومن مراقبة الساعة على الجدار المواجه لها في القاعة ومتابعة حركتها دقيقة دقيقة، حتى لم يبق إلا عشر دقائق على الساعة السابعة، الموعد الذي حدده الارشيدوق لبدء رحلة الصيد!

وهنا قطعا فترة الصمت الذي ساد القاعة وما حلوها، فتبادلا حديثاً قصيراً عن "البروتوكول" والوقت الذي يحدد للانتظار على المائدة، ثم استقر رأيهما على أنهما انتظرا أكثر مما يجب، وسرعان ما هجما على الطعام، وأخذا يتنافسان في القضاء على ألوانه الكثيرة المتعددة، ومن دقيقة لأخرى يقول أحدهما للآخر كالمعتذر: "لا بأس.. أن الارشيدوق رودلف لا يعني كثيراً بمثل تلك الرسميات!"

وكان من رأيهما معا أن رودلف سيكون في وسعه متى حضر أن يعوض ما فاته، لأنه جم النشاط ولديه القدرة على أن يتم في دقائق معدودات ما لا يقدر غيره على إتمامه في ساعات!

الساعة السادسة والدقيقة ٥٨ صباحاً.

حكمة وحذر.

فرغ الأمير دي كوبورج والكونت هويوس من طعام الإفطار قبل الموعد المحدد لبدء الرحلة بدقيقتين، وكان قد رجح عندهما أن الارشيدوق تناول إفطاره في حجرته الخاصة اقتصاداً في الوقت، فغادرا قاعة المائدة ووقفا ينتظرانه بباب القصر إلى جوار عربة الصيد. وكان الضباب كثيفاً، وأنفاسهما

تتحول إلى بخار من عدة البرد، وما زالت رقعة السماء تبدو فيها هنا وهناك بعض النجوم، في حين بدأ الأفق الشرقي تتحول زرقته الداكنة تدريجاً غلى حمرة يشوبها الاصفرار، ولم يعد هناك أثر للسحب، مما ينبئ بجو رائع بديع عما قريب!

ووقف الأمير والكونت هنيهة يتطلعان هنا وهناك وكأنهما قائدان يستعدان لبدء معركة فاصلة، وكان لوشيك بالقرب منهما فوجدا فيه خير من يتلقى تعليماتهما المرتجلة في إذعان وإجلال، ولم تكن هذه التعليمات تخرج عن وجوب الحذر والتحوط تفادياً لحدوث ما لا تحمد عقباه، فالأرض ما زالت مغطاة بالجليد الذي قد يزلق الجياد فتكبو فتنطلق البنادق المحملة عليها من تلقاء ذاتها!

الساعة السادسة والدقيقة ٥٩ صباحاً

احتمال غير بعيد

عربة الصيد على تمام الاستعداد لبدء الرحلة، ومن خلفها عربة أخرى تقل الحراس وكلاب الصيد وبعض الأدوات والمعدات، والضيفان ما زالا واقفين إلى جوار العربة الأولى وعيونهما معلقة بباب القصر في انتظار ظهور الأرشيدوق. وعلى مقربة منهما وقف لوشيك في حالة تشبه الذهول، وقد أخذ يحدث نفسه بصوت يكاد يكون مسموعاً "ماذا هناك؟.. أيمكن أن يكون الأرشيدوق قد أخذته سنة من النوم بعد أن أصدر إلى تعليماته منذ ساعة؟... أهذا ممكن!"

الساعة السابعة صباحاً

لا سميع ولا مجيب

ملت الخيل طول الوقوف، فتململت في موقفها وأخذت في الصهيل، وشاركتها كلاب الصيد فعلا نباحها، وعبثاً حاول السياس والخدم إسكات هذه وتلك، وهكذا اشتدت الضجة ورددت جوانب القصر والغابة أصداءها، في حين بدأت أضواء النهار تبدد ما بقي من فلول الظلام، وسادت الجو صفرة خفيفة هادئة أخذت تتحول في أنحاء شتى من رقعة السماء الصافية إلى لون البنفسج ممتزجاً بلون الكبريت!

كل هذا والجناح الخاص بالارشيدوق رودلف ما زال يلفه السكون والهدوء، وما زال ضوء المصابيح الخافت الضئيل يبدو من النوافذ المفتوحة مترنحاً متراقصاً كالطائر الذبيح!

ولم يجد الضيفان الصديقان بدا بعد ذلك من رفع صوتيهما إلى أقصى ما يستطيعان لينبها الارشيدوق في حجرته إلى أن موعد الصيد قد حان ولم يبق إلا أن يهبط مسرعاً لتبدأ الرحلة

وردت جوانب القصر نداءاتهما، ولكن ما من سميع ولا مجيب!

الساعة السابعة والدقيقة الخامسة

يا له من كسول؟

الأمير دي كوبورج والكونت هويوس لا يكفيان عن الحركة، ويدوران حول العربة وحول نفسيهما، وقد أخفى كل منهما وجهه حتى أنفه في فرو معطفه وتزاحمت الأفكار في رأسه. ولم يعلق أولهما صبراً على الصمت

فغمغم قائلاً: "يا للخسارة!.. لابد من دخولي عليه لكي أهزه هزاً حتى يستيقظ!. يا له من كسول!"

على أن لوشيك الذي كان أشد قلقاً وارتباكاً من صديقي سيده سارع إلى إغلاق الباب المؤدي إلى جناح الارشيدوق ووقف أمامه ناصباً قامته كتمثال وقد عقد ذراعيه فوق صدره، ثم قال للأمير دي كوبورج: "عفواً يا سيدي!.. إن سمو الارشيدوق لا يستقبل في جناحه الخاص أي أحد قبل أن يسمح له بذلك!"

ولم يكن لوشيك يجهل ما بين الأمير كوبورج وسيده الارشيدوق من صداقة متينة ترفع الكلفة بينهما، ولكنه كان لا يجهل أيضاً أن ماري هناك مع الارشيدوق في غرفة النوم، فكيف يسمح لأي أحد بالدخول عليهما؟.. ثم انحنى أمام الأمير وواصل كلامه قائلاً:

– إذا لم يكن بد من الدخول على الارشيدوق، فسأدخل أنا بوصفي خادم سموه الخاص! .. إن هذا على الأقل يجعل هناك احتمالاً لعدم غضب سموه وسخطه لمخالفة تعليماته!

ثم فتح الباب المؤدى إلى جناح سيده ودخل وأغلقه من خلفه بعد أن انحنى مرة أخرى أجلالاً واعتذاراً للضيف الكبير، فلم يسع هذا إلا أن ابتسم وذهب عنه الغضب الذي كان يتملكه لمنع لوشيك إياه من الدخول، ثم عاد إلى موقفه بجانب زميله الكونت هويوس وهو يحدث نفسه قائلاً:

– مخالفة للتعليمات؟!.. هل أبقت تلك الحسناء الصغيرة فتسيرا وقتاً لمراعاة البروتوكول أو غيره؟. إنها هي نفسها حديثة العهد بالبروتوكول، ولكنها أفلحت في شيء واحد بفضل الفن الدقيق الذي أتقنته.. علمته الكسل على الأقل!

الساعة السابعة والدقيقة ١٢ صباحاً

أبواب مغلقة من الداخل

وصل لوشيك إلى الباب الداخلي للجناح الخاص بيده، وعجب إذ وجده مغلقاً بعد أن تركه مفتوحاً، ثم هم بفتحه لينفد منه إلى الممر الذي به السلم المؤدى إلى غرفة النوم، فأشتد عجبه إذ وجد الباب مغلقاً من الداخل، ووقف حوالي دقيقة حائراً لا يدري ماذا يفعل، ثم أخذ يطرق الباب طرقات خفيفة أول الأمر مراعاة لشعور سيده وحرصاً على احترامه إياه. ثم اشتدت طرقاته تدريجياً تبعاً لاشتداد قلقه حتى سمعت في الخارج. ولكن أحداً لم يجب من الداخل!

يا للوشيك الوفي الأمين!.. إن قلقه الشديد على سيده هو الذي اضطره إلى هذه الطرقات الشديدة، لكنه مع هذا يحسب ألف حساب وحساب لما فيها من إقلاق لراحة الارشيدوق!

الساعة السابعة والدقيقة ١٤ صباحاً

دم يتدفق!

لوشيك يعجز عن فتح الباب بقوة ساعديه وكتفيه بعد تجربة كل ما وصلت إليه يده من مفاتيح.. وأخيراً لم يسعه إلا أن يعود إدراجه إلى الخارج حيث موكب الصيد في الانتظار. وكان المسكين قد بلغ حالة من الفزع والقلق يرثي لها. وابتدره الأمير كوبورج قائلاً: "ماذا هناك، ما دام الارشيدوق لم يجب بعد تلك الطرقات فلماذا لم تدخل عليه، هل الباب مغلق من الداخل؟.. هذا ما فهمناه. وعلى هذا يجب فتحته بأية وسيلة.. هيا يا لوشيك.. إن الأمر أخطر فيما يبدو من أن نحجم عن ذلك مراعاة البروتوكول

وتعليمات الارشيدوق.. من يدري؟. لابد أن المرض اشتدت وطأته عليه فجأة!.. ولكن كيف أمكنه إذن إغلاق الباب من الداخل، ولماذا فعل ذلك.. أين المطرقة؟ هات مطرقة أو فأساً.. يجب أن يفتح الباب فوراً للاطمئنان على سلامة الارشيدوق!"

وجرى لوشيك إلى الحديقة حيث تناول فأساً وجدها هناك واستأنف الجري عائداً إلى جناح سيده. ولم تمض دقيقة حتى كان قد حطم قفل الباب المؤدي إلى غرفة النوم ثم نفد منه إليها مسرعاً، ولحظ وهو يمر بقاعة المائدة أن شموعها قد انطفأ بعضها وأوشك بعضها أن ينطفئ، كما أن زجاجة النبيذ الموضوعة على المائدة بجانبها ثلاثة كئوس لا كأسان فقط، وأدهشه هذا لأنه في قلقه وفزعه نسي أن الحوذي العجوز جوهان كان هناك أيضاً حتى ساعة متأخرة من الليل!

ولم يكن باب حجرة النوم مغلقاً تماماً، ولكن لوشيك لم يشأ أن يدخل إلا بعد أن نقر على الباب ثلاث نقرات وهو ينادي بصوت مرتجف: "سيدي الارشيدوق.. سيدي الارشيدوق!"

وكانت النار في المدفأة توشك أن تخبو، وكذلك كانت الشموع المضاءة في الغرفة تلفظ أنفاسها الأخيرة. على أن لوشيك استطاع برغم هذا أن يلمح سيده ممدداً في الفراش، فلم يسعه إلا أن خفف من مشيته كأنما خشي أن يزعجه من نومه. لكنه ما لبث قليلاً حتى تبين على الضوء الخافت في الغرفة أن الارشيدوق ممدد على حافة السرير في وضع غريب بحيث يوشك جسمه أن يسقط على الأرض، كما تبين بجانبه على السرير كومة ضخمة من الزهور بدا تحتها جانب من جسم آخر ممد إلى جواره، لا شك أنه جسم صديقته البارونة الصغيرة الحسناء.

"وتراجع لوشيك قليلاً، وبقي هنيهة ولسانه معقود من الدهشة، ثم لم يجد بدا آخر الأمر من رفع صوته بقدر ما استطاع منادياً: "سيدي الارشيدوق.. سيدي الارشيدوق". فلما لم يجبه أحد، ولم ير أية حركة من لجسمين الممددين على السرير، حدث نفسه قائلاً: "ما عهدت نوم الارشيدوق عميقاً إلى هذا الحد!"

وحانت منه التفاتة إلى المنضدة الموضوعة بجانب الباب، فوجد عليها شمعة ما زالت ترسل ضوءها على الزهور التي حولها، فانتزعها بيده من موضعها واقترب بها من السرير في خطأ مضطربة متعثرة، وما كاد ضوء الشمعة الخافت يقع على وجه رودلف، حتى هتف لوشيك مذعوراً:

– يا إلهي!.. ما هذا؟.. إن الدم يسيل من فم الارشيدوق! أجل.. هذا دم ولا شك!

وفي هذه اللحظة سمع صوت الأمير دي كوبورج وهو يصيح عند الباب الخارجي للجناح:

– لوشيك.. لوشيك.. ماذا حدث؟!

ولم يستطع لوشيك المسكين أن يلبي ذلك النداء، إذ كان قد تحقق أن سيده صار جثة لا حراك فيها، وكذلك كانت ضيفته الراقدة إلى جواره على السرير!..

وبقي التابع الخاص الأمين هنيهة جامداً في مكانه كأنما استحال هو الآخر جثة هامدة، بينما صوت الأمير دي كوبورج يدوي مجلجلاً في أرجاء الجناح وهو يناديه سائلاً عما هناك. وأخيراً غادر لوشيك الغرفة وهو يعدو بكل ما بقي له من قوة والشمعة ما زالت في يده، فلما بلغ الباب الخارجي

حيث كان الأمير دي كوبورج والكونت هويوس ومن معهما ينتظرون وقد بلغ قلقهم منتهاه، لم يتمالك المسكين نفسه فارتمى على إحدى درجات السلم وقد أصفر وجهه حتى حاكى وجوه الموتى وغمره عرقه الغزير، وأخذ ينظر إلى القوم بعينين زائغتين وأنفاسه تتلاحق كأنفاس المحموم، وأطرافه كلها ترتعد، ولسانه لا يقوى على الكلام!

وصاح به الأمير دي كوبورج: "ماذا حدث؟.. مالك لا تتكلم؟!"

وهنا انفجر لوشيك منتحباً، وقال في صوت متهدج يقطعه البكاء: "سيدي.. الارشيدوق.. رودلف.. مات!"

وصاح الأمير قائلاً: "هذا مستحيل!".. بينما أخذ الكونت هويوس والحراس والخدم المتجمعون هناك يتساءلون مرددين في ذهول: "مات؟.. كيف كان ذلك؟. نعم هذا مستحيل!"

وبعد فترة ساد خلالها الهلع والفزع والوجوم، فهم الحاضرون من لوشيك أن ماري فتسيرا وجدت ميتة هي الأخرى وإن لم يذكر اسمها، ثم استقر رأى الأمير دي كوبورج والكونت هويوس على وجوب التحقق من الأمر فوراً، فإذا ثبت أنه صحيح فلابد من إبلا غ النبأ إلى فيينا في أقرب وقت ممكن بعد إغلاق الحجرة وإطفاء الشموع والنار التي في المدفأة حتى لا يحدث حريق يزيد في تعقيد الأمور. ثم قال الكونت هوبوس:

– يجب قبل كل شيء ألا يدخل الحجرة أحد غير لوشيك، ثم يجب استقدام طبيب ليفحص الارشيدوق، وليكن الدكتور فيدرهوف الطبيب الخاص للإمبراطور.. أن تقريره ولا شك سيكون موضع ثقة الإمبراطور، وبذلك وحده يبطل أي اتهام قد يوجه إلينا!

ولم يجد لوشيك بدا من العودة لحجرة الارشيدوق الخاصة وحده حيث أطفأ بقية الشموع وتحقق أن ما بقي من النار في المدفأة لا خوف منه، ثم غادر الحجرة من غير أن يجرؤ على النظر مرة أخرى إلى جثة سيده، وأغلق بابها بالمفتاح واحتفظ به معه!

الساعة السابعة والدقيقة ٥٠ صباحاً

برقية إلى طبيب الإمبراطور

لوشيك يستقل عربة الصيد إلى مكتب التلغراف ببلدة "هايلجنكرور" القريبة لكي يرسل باسمه إلى الدكتور فيدرهوف برقية يستقدمه فيها إلى قصر مايرلنج فوراً، لأن الارشيدوق أصيب فجأة بمرض خطير ألزمه الفراش. وقد امتنع التابع الأمين عن أن يشير في البرقية من قريب أو بعيد إلى موت الارشيدوق.. وذلك طبقاً لمشورة الأمير دي كوبورج والكونت هويوس!

الساعة السابعة والدقيقة ٥٨ صباحاً

الكونت هويوس يعود للعاصمة

الأمير دي كوبورج والكونت هويوس جالسان بباب قاعة المائدة ليحرسا الباب المغلق لغرفة نوم الارشيدوق.. إن هذه الحراسة لابد منها ضماناً لشرفهما وحريتهما، بل ضماناً لحياتهما، فلا شك أن التحقيق سيتناولهما بحكم نزولهما بالقصر مع الأرشيدوق، ولاشك أن الإمبراطور نفسه سيشرف على ذلك التحقيق.. وهناك كثيرون قد ينتهزون الفرصة للصيد في الماء العكر!

وبقيا دقائق صامتين ينظر كل منهما إلى الآخر في ذهول شديد واسى مرير، ثم لم يطيقا الاستمرار في ذلك الصمت الكئيب الرهيب فأخذا

يتحدثان همساً في انتظار عودة لوشيك من مكتب التلغراف، وتساءل الأمير دي كوبورج:

– أهو انتحار يا ترى؟ وما الباعث عليه؟.. وهل كان بالرصاص أو بالسم كما ذكر لوشيك؟

فأجابه الكونت هويوس: "من يدري.. لا شيء يحل هذا اللغز غير تقرير الطبيب، وستصل إليه البرقية قبل الظهر بساعة فإذا جاء في عربة فإنه يصل إلى هنا آخر النهار!"

وعاد الأمير دي كوبورج فقال: "إن الارشيدوق غني جداً فلا يمكن أن يكون قد انتحر بسبب خسارة في المقامرة، بل نحن نعلم أنه لم يكن يقامر.. وإذن لعله انتحر لأسباب نسائية. وأيا ما كان الأمر فنحن لم نسمع صوت أي طلق ناري، وهذا ما يرجح أن الانتحار كان بالسم!"

فهز الكونت هويوس رأسه وأطلق زفرة حرى تدل على حيرته ثم قال: "من الجائز إننا لم نسمع الطلقات لأن جدران الحجرة مكسوة بطبقة سميكة من المحمل تمتص الصوت، هذا إلى أن جدران القصر كلها من النوع القديم السميك جداً.. بالرودلف المسكين!.. لقد كان حاد الطبع شديد الاندفاع.. ومسكين كذلك والده الإمبراطور!. إن فرنسوا جوزيف سيء الحظ حقاً. أتذكر كيف مات نسيبه مكسيمليان أخيراً بطلق ناري في المكسيك؟"

فقال الأمير دي كوبورج: "نعم أذكر ذلك، على أني لا أظن أن موت رودلف ينطوي على جناية، فالأمر على الأرجح لا يخرج عن انتحار سوف تظهر أسبابه فيما بعد.. وكما قلت.. لن تظهر الحقيقة إلا بعد أن يحضر الطبيب!"

وسكت الكونت هويوس قليلاً وهو يعض على شفتيه لفرط قلقه ثم قال: "لابد أن يبلغ النبأ إلى الإمبراطور، أن حادثا كهذا سيهز الإمبراطورية هزاً، بل سيهز أوربا كلها ولاشك. وستكون مسئوليتنا خطيرة إن لم نسارع إلى إحاطة علم الإمبراطور بكل ما حدث!"

وقال الأمير دي كوبورج وقد اشتد فزعه: "هذا حق، ولكن ماذا نصنع، وماذا في أيدينا كي ندفع عنا الشبهات؟!"

وهنا نهض الكونت هويوس قائلاً: "إننا الآن في الساعة الثامنة ودقائق، وهناك قطار يقوم من بادن إلى فيينا في الساعة التاسعة والدقيقة ١٨. فيجب أن استقل هذا القطار لأصل إلى العاصمة في الساعة العاشرة وأبلغ النبأ إلى الإمبراطور، بينما تبقى أنت هنا في حراسة غرفة الارشيدوق حتى لا يدخلها أي إنسان قبل عودة لوشيك!"

وقال له الأمير دي كوبورج وهو يودعه شاكراً له أن اهتدى إلى هذه الفكرة: "حسناً يا عزيزي!.. أعانك الله على أداء هذه المهمة" ثم أردف قائلاً: "لعل من الخير أن تأخذ معك أدوات الصيد!"

الساعة الثامنة والدقيقة ٤٥ صباحاً

في محطة بادن

تعقدت الأمور في محطة بادن، فقد تبين الكونت هويوس أن القطار الذي اعتزم أن يستقله منها إلى فيينا مخصص للبريد ولا يسمح بركوبه لأحد من غير الموظفين المختصين. ولم يكن في استطاعة الكونت أن يصرح ناظر المحطة بحقيقة المهمة التي يريد السفر لإنجازها، وكان الناظر في الوقت نفسه دقيقاً في تنفيذ القانون فلم يسمح له بركوب ذلك القطار. على أن

الكونت استطاع في آخر لحظة أن يقنع الناظر العنيد بوجوب تركه يسافر في القطار لأنه من كبار النبلاء الموظفين بالقصر الإمبراطوري وعليه أن يقابل جلالة الإمبراطور لمهمة عاجلة لا تحتمل التأجيل.. وهكذا غادر القطار المحطة وفيه الكونت هويوس، بينما وقف ناظر المحطة على الرصيف يحدث نفسه بصوت مسموع واصابع يده تعبث بلحيته حيناً وبقبعته الرسمية حيناً آخر. ثم يضرب الأرض بقدمه لفرط تغيظه وحنقه وخشيته أن يفقد وظيفته التي يعيش منها هو وزوجته وأولاده بسبب تساهله في تنفيذ التعليمات!

الساعة التاسعة صباحاً

في مايرلنج

عاد لوشيك بعربة الصيد من مكتب التلغراف في هايلجنكرور إلى قصر مايرلنج، ولم يكن لديه ما يعمله بعد ذلك إلا الجلوس بباب قاعة المائدة ليشترك مع الأمير كوبورج في حراسة الغرفة المغلقة على الجثتين، وللمرة الأولى تنازل الأمير إلى الحديث معه أملاً في أن يجد لديه حلاً لذلك اللغز الغامض المحير، لغز الموت الفجائي الذي نزل بالارشيدوق الشاب وخليلته. لكنه لم يصل إلى شيء جديد، فعاد إلى صمته، ثم نهض فجأة وأخذ يذرع ردهة القصر وكأنه أسد هائج في قفص حديد، وما لبث قليلاً حتى حدث نفسه بصوت تدرج في العلو حتى صار يسمع خارج القصر في وضوح تام، وفي الوقت ذاته أخذ يأتي بإشارات وحركات شاذة وكأنه يخاطب جموعاً حاشدة أمامه.

لقد أفقده الحادث المروع رشده، وأشرف به على الجنون. أما لوشيك فبقي قابعاً في مكانه لدى الباب لا ينبس ببنت شفة، وقد تصدع قلبه من شدة

الحزن وهول الفاجعة. وكان المسكين يشعر برغبة قوية في البكاء، ولكن الدموع تحجرت في عينيه فاكتفى بالذهول والإطراق!

الساعة العاشرة والدقيقة ٣٠ صباحاً

في فيينا..!

"دكتور فيدرهوف الطبيب الخاص لجلالة الإمبراطور.. أرجو أن تكون هنا في مايرلنج في أقرب وقت ممكن.. لطارئ غاية في الخطر.. لوشيك"

وقال الدكتور هوف لنفسه بعد أن أطلع على هذه البرقية الخطيرة: "أن الإمبراطور ليس في مايرلنج، وإذن فالمريض المراد إسعافه بالعلاج هو الارشيدوق ولي العهد، وعلى هذا يكون الأمر خارجاً عن اختصاصي، ولا يليق أن أتعدى على اختصاص أحد، ولاسيما صديقنا الشاب "أوخنتالر" الطبيب الخاص للارشيدوق ولي العهد!"

ووضع البرقية في جيبه ومضى يقول لنفسه: "إن الدكتور "أوخنتالر" شاب طيب القلب حقاً.. وليس أمامي إلا أن أقابله الآن ونتفق على ما يجب عمله!"

الساعة العاشرة والدقيقة ٥٥ صباحاً

عند طبيب الارشيدوق

الدكتور فيدرهوف والدكتور أوخنتالر يتشاوران– والاهتمام مرتسم على وجهيهما في أمر البرقية الغريبة المزعجة، ثم يقول طبيب الارشيدوق: "إنني ملم بكل ما يشكو منه سمو ولي العهد: قصبته الهوائية شديدة الحساسية جداً، وقلبه كذلك متضخم جداً.. وهذا طبعاً نتيجة الإسراف في الرياضة البدنية، وإدمان التدخين!"

وسكت فجأة، ريثما وقف هنيهة جامداً وعيناه تختلسان النظر إلى وجه زميله الكبير، ثم استأنف الكلام فقال: "من المحتمل أن يكون قد أصيب ببرد شديد أثناء الصيد، ثم احتقنت الرئتان وانتابته حمى عنيفة. هذا ما يبدو لي!"

فنظر إليه الدكتور فيدرهوف ملياً وقال له في هدوء عميق: "إذن يا صديقي العزيز تسافر أنت الآن إلى مايرلنج!"

فقال الدكتور أوخنتالر بلهجة المعتذر: "لا.. لا.. يا سيدي الزميل!.. إنني لا يمكن إلا أن أدع لك أداء هذه المهمة الواجبة.. ثم هناك البرقية التي أرسلت إليك أنت من قصر مايرلنج.. ومن الجائز جداً أن يكون الإمبراطور هو الذي أمر باستقدامك.. فليصحبك التوفيق والسلامة يا سيدي الزميل!"

ومد إلى زميله يده مودعاً ووجهه يفيض بمزيج من الارتياح والأسف والكآبة والاحترام وقلة الاكتراث، فصافحه الدكتور فيدرهوف وقال وعلى فمه ابتسامة وقور: "شكراً لك يا صديقي العزيز!"

فقال الدكتور أوخنتالر: "إن صدر الارشيدوق قوي بزعم ما يشكو منه، وسيتحسن على يديك.. وأرجو أن تأخذ معك بعض اليود والكينا والقطن المعقم!"

وقال الدكتور فيدروهوف متمماً وهو يهم بالانصراف: "وسآخذ أيضاً شراب الكويدين!"

روايات وأقاويل

ما كاد يذاع نعي الارشيدوق رودلف ولي العهد، حتى بدأ كبار الكتاب والمؤلفين يتبارون في التعليق عليه وتحليل ظروفه وأسبابه وملابساته، في تفصيل يوهم بالإحاطة والدقة والبراعة..

وما أكثر الكتب والفصول والقصص والأخبار التي تعب أصحابها في جمعها وطبعها ونشرها عن مأساة مايرلنج!.. ولكنها كلها- فيما عدا مذكرات البارون دي خلومكي المستقاة بياناتها من المصادر الرسمية المطلعة- فيها قليل من الحقيقة وكثير من الخيال!

رواية البارون لافاوريه

عن وريث الأمير دي كوبورج

لم تذكر المصادر الرسمية على لسان الأمير فيليب دي كوبورج فيما يختص بمأساة مايرلنج، ما يمكن أن يعد كشفاً عن سر مجهول من سواه، ولكن البارون لافاوريه روى شيئاً كثيراً من هذا القبيل، استقاه من البارون ليوبولد.. ابن البارون فيليب دي كوبورج. وهذا ما رواه:

"في منتصف الليل، هب لوشيك رئيس الخدم من نومه، على صوت طلق ناري عنيف هز جوانب قصر مايرلنج، وتبين من فوره أن الطلق صادر من حجرة الارشيدوق الخاصة

"وسرعان ما خف إلى الحجرة وطرق بابها ثم حاول دخولها حين لم يجبه أحد، فوجد الباب مغلقاً من الداخل، واضطر إلى فتحه عنوة ليفاجأ لدى دخوله الحجرة برؤية الارشيدوق رودلف قتيلاً في سريره وجثته غارقة في بركة من الدماء المنبثقة من جرح في بطنه.. كبير عميق مخيف!

"وكانت جدران الحجرة كلها ملطخة بالدماء أيضاً. وفي ركن من أركان الحجرة كانت جثة ماري فتسيرا ملقاة على البساط، وحول حنقها حبل مشدود، وعلى وجهها تقلصات من أثر التشنج يرتد عنها البصر!

"وعلى مقربة من جثتها كانت هناك بندقية وموسى. هما السلاح الذي

استعمل في الحادث المروع الخطير!.. لقد استيقظ الارشيدوق فجأة وقفز من فراشه مذعوراً إذ وجد عشيقته شرعت في ذبحه وهو مستغرق في النوم، ورآها تتحفز للإجهاز عليه وقد استحالت إلى غمرة هائجة، فاستجمع ما بقي له من قوة وفاجأها بهجوم خاطف استهله بالأطباق على عنقها بيديه ثم ألقى جثتها بعد أن ماتت مختنقة في الركن الذي وجدها فيه البارون

"وأخيراً.. وجد الارشيدوق أن الجرح الذي أصابته به خليلته الحسناء ليس أكثر من جرح بسيط لا خطر منه على الحياة. ولما كانت حياته بعد ذلك لا معنى لها في نظره، فإنه سرعان ما تناول بندقية الصيد الخاصة به ووضع فوهتها في فمه ثم أطلق رصاصة منها، فقتل بها نفسه!"

رواية الجنرال الكونت دي مرجوتي

الباور الأول للإمبراطور

"كان الارشيدوق رودلف قد سئم في الواقع عشرة ماري حين أقسم أمام والده ليقطعن كل علاقة له بها. وما كان ذهابه إلى قصر مايرلنج بعد ذلك إلا ليمضي وقتاً ممتعاً مع عشيقة جديدة هي زوجة "باور" مفتش الغابات. وشاء سوء الحظ أن علم الزوج بالأمر فترصد للعاشقين حتى دهمهما في خلوتهما بالغابة، وحطم بفأس كانت معه رأس الارشيدوق فقضى عليه

"وقد عثر على جثة ولي العهد في اليوم التالي محطمة الرأس

"أما.. ماري فتسيرا خليلته فلم تطق الحياة بعد ما وقع من خيانة وجناية، فتجرعت سما زعافاً ألحقها من فورها بعشيقها الخائن المقتول!"

رواية أودلف أوديرير

مؤلف "في البيوت الملكية"

وجاء عن المأساة نفسها ما يلي في كتاب "في البيوت الملكية" طبعة باريس سنة ١٨٦٥:

"بين كئوس الراح وخدود الحسان وقعت حوادث هذه المأساة المزدوجة! فريق من زهرة الشباب في العاصمة النمسوية ملتفون حول مائدة حافلة بأجود الطعام والشراب. وقد شربوا حتى ثملوا وأخذوا في الرقص والغناء والعزف وأفحش المداعبات. وهؤلاء هم: الارشيدوق رودلف، والبارونة ماري فتسيرا، والكونت هويوس، والكونت فلدشتاين، وبرايفتش العازف البارع، والعم بلتانزي.. وسابهم هو الشاب ابن العم بلتانزي خطيب ماري رسمياً منذ حين!

"وإذ لعبت الخمر بالرءوس، لم يطق بلتانزي الصغير صبراً على مداعبات الارشيدوق المكشوفة المفضوحة لماري خطيبته، فنبهه متلطفاً إلى أن هذا لا يتفق مع الاحترام الواجب لعقد الخطبة. وما كان جواب الارشيدوق إلا أن أمعن في الاستسلام لسورة الخمر والهوى والشباب، فأنهال على ماري تقبيلاً وعناقاً وتدليلاً وكأنه يتحدى خطيبها الغيور

"وجن جنون بلتانزي الصغير فصاح بالارشيدوق: "كفى!. إنك ثمل جداً يا سيدي. كفى كفى!"

"وهنا صاحت ماري بخطيبها وهي تحاول التخلص من بين ذراعي الارشيدوق: "أنقذني.. لست قادرة على التخلص من قبضته.. إني أكاد أختنق!"

"وخيل إلى رودلف أن الفتى يهم بالهجوم عليه فقال له منذراً: "حذار.. إن لي حقا فيها أكثر مما لك.. إنها كانت خليلتي أعواماً متتالية!"

"وكان لهذه العبارة أثر الخنجر المسموم في قلب الشاب بلتانزي فترنح للسقوط وقد احتقنت عيناه بالدم بدلاً من الدمع. بينما سارع إليه أبوه لإسعافه وتخليص ماري من قبضة الارشيدوق ولي العهد

"ولكن الكونت هويوس تدخل في الأمر وتصدى لمنع بلتانزي الأب من الوصول إلى الارشيدوق وماري، وكانت هذه مازالت تصرخ وتستغيث، فاحتدم العراك بين بلتانزي الأب والكونت هويوس، واستل كل منهما حربة من حراب الصيد المعلقة في القاعة، وسرعان ما انتهت المبارزة الخاطفة بسقوط الأول قتيلاً بعد أن أصيب بطعنة نجلاء في بطنه. وحفز هذا بلتانزي الابن إلى أن يثأر لأبيه ونفسه فتناول زجاجة من زجاجات الشمبانيا وقذف بها رأس رودلف بكل قوته فشجه وأسال مخه!. وفي الوقت نفسه تناولت ماري مسدساً كانت تخفيه في ثيابها وأطلقت منه رصاصة صوب رأس رودلف أيضاً، لكنها أخطأت الهدف وأصابت الرصاصة زجاجة شمبانيا فارتدت إلى قلبها وصرعتها لساعتها، وهكذا انتهت حياتها وحياة رودلف في وقت واحد!"

فاجعة أبوين

الساعة ١١ صباحاً

في القصر الإمبراطوري

جلالة الإمبراطور فرنسوا جوزيف في مكتبه بالقصر الإمبراطوري، يبحث مع الكونت ستزتسن المارشال الأكبر للحرس، مسألة الرحلة التي سيقوم بها البلاط إلى هنغاريا لتمضية بعض الوقت هناك

وكان الإمبراطور يناقش كل كبيرة وصغيرة من شئون الرحلة، ويحدد في دقة بالغة عدد من ينبغي اصطحابهم من أفراد الحاشية والحرس والخدم والوصيفات، كما يحدد المعدات والأدوات التي تزود بها كل غرفة، عدداً ونوعاً وحجماً وشكلاً، بل بلغ من فرط دقته أن أخذ يحدد طول كل منشفة وعرضها، من المناشف المخصصة لكل رجل أو امرأة بحسب المراكز والرتب التي يشغلونها في البلاط!

وفي هذه اللحظة وصل الكونت هويوس إلى القصر، وطلب الإذن له في مقابلة الإمبراطور لمهمة خطيرة عاجلة، فأخذ رجال التشريفات يحيله كل منهم إلى الآخر تخلصاً من المسئولية وتفاديا لغضب الإمبراطور المنهمك في بحث مسألة الرحلة كل الانهماك.. وهكذا تنقل الكونت بين مكاتب: الكونت بومبل، فالبارون نويسا، فالكونت باور، وغيرهم من الأمناء ورجال الحاشية.. وأخيراً فرغ الإمبراطور من بحثه الدقيق وإصدار التعليمات الخاصة بالمفارش والمناشف التي تستعمل خلال الرحلة المنتظرة. وهنا دخل عليه الكونت بومبل وأبلغه أن الكونت هويوس يطلب الإذن في مقابلة عاجلة، فنظر إليه الإمبراطور شزرا وصاح به قائلاً في حدة: "ليس عندي اليوم متسع لأية مقابلة، وإذن.. فليأت غداً صباحاً في منتصف الساعة السابعة.. أنني مشغول إلى أقصى حد ببحث مسائل كثيرة مختلفة ولابد لي من البت فيها لأنها لا تحتمل أي تأجيل. حذار أن يزعجني أحد مرة أخرى!"

ووقع الكونت هويوس في حيرة شديدة ازاء هذا الرد القاطع، ثم استطاع أخيراً أن يصل إلى الجنرال فروينت الأمين الأول للإمبراطور، وأفضى إليه بالنبأ الخطير الذي جاء لإبلاغه، فقفز هذا من مقعده خلف مكتبه مرتاعاً وصاح في صوت متقطع: "ماذا تقول؟ الارشيدوق رودلف فارق الحياة.. هذا مستحيل!"

وهناك في مكتب الجنرال فرويت عقد بعد دقيقة واحدة اجتماع عاجل ضم كبار موظفي القصر مدنيين وعسكريين، وتباحثوا في الأمر، ثم استقر الرأي على أن ليس أمامهم سوى الرجوع إلى الإمبراطورة اليزابيث، ولم يجرؤ أحد منهم على أن يأخذ على عاتقه وحده مهمة إبلاغها ذلك النبأ الفاجع الأليم، فاتفقوا على أن يقوموا بالمهمة جماعة. وتوجهوا لهذا الغرض مسرعين إلى جناح جلالتها الخاص بالقصر.. وكانت حين وصولهم جالسة في حجرة المكتبة تتلقى درساً في اللغة الإغريقية على البروفسور كونستانتين، وتقرأ معه فصلاً من الياذة هوميروس!

ولم تعجب جلالتها كثيراً حين استأذنتها في مقابلة هذا الوفد الكبير وصيفتها الخاصة "عايده فرنتزي"، فأذنت لهم في المقابلة فوراً، ودعتهم إلى الجلوس في المكتبة مرحبة، ثم التفتت إلى البارون نويا التشريفاتي الأكبر لجلالتها وقالت له:

– لم يكن هناك أي داع إلى هذا التعب با عزيزي نويسا!.. إن مسألة ذلك الخطأ في قائمة الحساب الأخيرة لا أهمية لها مطلقاً، فهي تعد منتهية، وإني لائق بك ثقة كاملة لا تشوبها شائبة، لأننا جميعاً لسنا معصومين من الخطأ!

ولحظت الإمبراطورة أن البارون ما زال مضطرباً، فواصلت كلامها قائلة: "كلا يا عزيزي!.. هذه مسألة انتهت ولا أثر لها على الإطلاق!" ثم التفتت إلى البروفيسور كونستانتين كأنما تريد استئناف الدرس ولكن البارون نويسا تمتم قائلاً:

– عفواً يا صاحبة الجلالة!.. إننا جئنا الآن.. لكي نبلغ جلالتك مع الأسف الشديد أن..

وازداد تلعثمه حين التفتت إليه الإمبراطورة مصغية في دهشة واهتمام، فسكت وأخذ يجيل نظراته الزائغة في جواب القاعة، وفي وجوه زملائه الذين سادهم الوجوم. فقالت له:

– ماذا هناك، تكلم يا عزيزي نويسا.. أهناك شيء آخر لم أقف عليه بعد؟

فقال متلعثما: "يا مولاتي!.. إن سمو الارشيدوق رودلف.. مريض.. مريض جداً.. في مايرلنج!"

وعضت الإمبراطورة على شفتها ثم قالت محاولة إخفاء تأثرها الذي ارتسم على وجهها: "رودلف؟ هل مرضه خطر؟.. ماذا قال الطبيب عن مرضه؟ ألم يبرق إلى القصر بتقريره؟"

وأطرق البارون نويسا ولم يجب، وكذلك أطرق كل زملائه، فوضعت الإمبراطورة يدها على قلبها كأنما شعرت بانتقاله من موضعه، واشتد اصفرار وجهها، ثم عضت على شفتها مرة أخرى. وبقيت هنيهة جامدة ذاهلة والعرق يتصبب من جبينها، ثم زفرت زفرة حارة وغمغمت في صوت متهدج بعد أن أدارت لسانها مرات في حلقها الجاف:

– هيه؟.. كيف؟.. رودلف.. ولدي.. كيف مات؟!

وساد السكون الرهيب هنيهة، ثم قال البارون نويسا: "مولاتي صاحبة الجلالة.. تذرعي بالشجاعة والصبر.. إن سيدي سمو الارشيدوق ولي العهد.. انتحر!"

ولم تتمالك الإمبراطورة نفسها، فانطلقت من صدرها صرخة خافتة متقطعة تنم عن شدة روعها وفزعها، ثم قالت: "يا إلهي!.. أي حظ تعس هذا؟!"

وهنا تدخل الكونت فروينت قائلاً: هذه ضربة قاضية، تمس شرف الأسرة المالكة والإمبراطورية كلها". فأومأ الكونت بومبل التشريفاتي الأكبر للارشيدوق موافقاً وقال: "وهي مسألة جد خطيرة.. كيف نبلغ النبأ إلى جلالة الإمبراطور وإلى الشعب.. والعالم كله!!"

فقال التشريفاتي الأكبر للقصر: "إذا كان الموت قد وقع فجأة.. فالأفضل أن يذاع النبأ على أن الموت كان نتيجة لسكتة قلبية مثلاً، أو.."

ولكن الكونت باور الجنرال المساعد للإمبراطور قطع كلامه قائلاً: "هذا غير ممكن، لأن السكتة القلبية لا تقع إلا في حالات خاصة معلومة، كأن يكون الشخص بديناً، أو دموياً، أو متقدماً في السن!"

فقالت الإمبراطورة في صوت خافض حزين: "بل كان في عنفوان الصحة والشباب!"

ثم وقفت متحاملة على ساقيها المتخاذلتين، وأردفت قائلة:

– سنرى أيها السادة ما يحسن عمله!.. والآن يجب أولاً أن نبلغ الأمر إلى الإمبراطور.. وسألوني ذلك بنفسي!

الساعة الحادية عشرة والدقيقة ٢٢ صباحاً

في مكتب الإمبراطور

لم يبق في القصر من لم يعلم بنبأ الفاجعة الأليمة إلا الإمبراطور، وهذه هي الإمبراطورة تدخل عليه مكتبه فتجده جالساً وأمامه أكداس من الملفات الخاصة بمعدات الرحلة وبينها طبق فيه طعام خفيف، إذ كان جلالته قد قرر ألا يبرح المكتب حتى يوافيه مستشاره العسكري الذي بعث في طلبه ليصدر

إليه التعليمات اللازمة في ذلك الشأن أيضاً!

وكان الجنرال فروينت هو الذي أعلن الإمبراطور بقدوم الإمبراطورة، وقد حضر الحديث بينهما، وسجل ذلك في مذكراته الخاصة فيما بعد، فذكر أن جلالة الإمبراطورة لم تبد أكثر حزماً ورباطة جأش مما بدت وهي تحدث الإمبراطور مجيبة عن تساؤله الذي بدا في نظرته إليها حين دخولا مكتبه، فقد اقتربت منه في خطأ ثابتة متزنة ثم وقفت أمامه رافعة الرأس في مهابة ووقار، وقالت في صوت هادئ عميق: "لقد جئت أبلغ جلالتك أن الارشيدوق رودلف انتحر في مايرلنج!"

وبقى الإمبراطور هنيهة جامداً فاغرا فاه وهو واقف خلف مكتبه بقامته المديدة، ثم قال لها: "ماذا؟.. ماذا تقولين؟". ولم تقو ساقاه على حمله بعد ذلك فارتمى جالساً على مقعده خلف المكتب كما كان قبل دخولها، ثم مر على رأسه ولحيته بيده وهو يحاول إخفاء ارتجافه، والتفت إلى الجنرال فروينت قائلاً:

ماذا صنعتم؟!.. هيا أسرعوا.. يجب أن نحول دون أن يصير "فرديناند" وليا للعهد!.. أسامع أنت يا فروينت؟.. أين الدكتور فيدرهوف الآن، ألم يعهد إليه في فحص الجثمان؟.. لكن كيف جاء النبأ من مايرلنج. وعلى أية صورة وقع الحادث؟

وقال الجنرال فروينت: "لقد جاء بالنبأ الكونت هويوس، وهو في القصر هنا الآن.. أما الدكتور فيدرهوف فسافر إلى مايرلنج إجابة لبرقية تلقاها من هناك!"

فقال الإمبراطور: "إذن أحضروا هويوس!"

الساعة ١١ والدقيقة ٤٧ صباحاً

نقطة دم لا أكثر!

الكونت هويوس يدخل مكتب الإمبراطور ويقف مطرقاً ساهماً، فيسأله هذا بعد هنيهة: "ماذا حدث. إنك كنت هناك، وقد وقفت طبعاً على تفاصيل كل شيء في الأمر!"

ويقول الكونت هويوس: "لقد أدليت بكل ما أعرفه يا صاحب الجلالة.. الارشيدوق ولي العهد قد انتحر في غرفة نومه الخاصة بمايرلنج.. هذا كل ما أعرفه عن..."

وقطع الإمبراطور كلامه قائلاً في حدة وجفاء: "كلا!.. كلا!.. ليس هناك انتحار، أليس لوشيك قد ذكر أنه رأى نقطة دم على فم الارشيدوق؟ إذن.. فالموت حدث نتيجة لهذه النقطة من الدم، ولا شيء غير ذلك قط!"

فلم يسمع الكونت هويوس إلا أن يردد ما قاله الإمبراطور: "نعم.. إنها نقطة من الدم!"

وواصل الإمبراطور كلامه فقال: "هيا.. لا تنس يا فروينت، يجب أن يوقف كل شيء حتى يضع الدكتور فيدرهوف تقريره، لا أريد أن تضطرب الأمور وتعم الفوضى بسبب تدخل رجال البوليس، وإذاعة أي شيء عن الحادث قبل موافقتي.. هل سمعت يا فروينت؟.. ويجب أيضاً أن يأتي فيدرهوف لمقابلتي عقب عودته فوراً!"

وانحنى الكونت هويوس أمام الإمبراطور ثم غادر المكتب صامتاً، بينما قال الجنرال فروينت وهو يهم بمغادرة المكتب: "سمعاً وطاعة يا صاحب الجلالة.. ستنفذ بكل دقة تعليمات مولاي!"

الساعة ١٢ والدقيقة ١٥ ظهراً

في قاعة المائدة الكبرى

الإمبراطور يجلس وحده إلى المائدة في قاعة الطعام الكبرى بالقصر. فالإمبراطورة معتكفة في غرفتها الخاصة، والارشيدوقة استيفاني ألفت التعليمات التي كانت قد أصدرتها فيما يختص بألوان طعام الغداء، واعتكفت هي الأخرى في جناحها الخاص رافضة مقابلة أي أحد حتى البارون جان دي خلومكي المستشار الخاص الأول للإمبراطور!

وقد اضطر الإمبراطور إلى مخالفة عادته، فألغى الموعد الذي حدده من قبل لمقابلة مستشاره العسكري، وبدأ جلالته أول الأمر متبرماً بوحدته على المائدة، لكنه ما لبث أن أقبل على الطعام والشراب لعله بذلك يخفف من شدة وقع الصدمة على نفسه، ثم أخذ يحدث نفسه قائلاً: "كان علينا أن نتنبأ بمثل هذه النهاية السيئة لحماقة رودلف واندفاعه الخيالي واستهانته بالأوضاع والتقاليد!"

ودق جلالته الجرس، فدخل خادم ذو سروال قصير وشعر أبيض مستعار وانحنى أمامه حتى كاد أنفه يمس ركبته، فأمره أن يأتي إليه بورقة بيضاء، ثم كتب عليها كلمة واحدة وطواها. وأمر الخادم بإحضار ظرف وضعها فيه وأغلقه ثم ناوله إياه قائلاً: "هذه رسالة عاجلة جداً إلى الجنرال فروينت، فامض بها الآن إليه في مكتبه أو حيث يكون إذ يجب أن تسلم إليه فوراً". فانحنى الخادم وغادر القاعة لتنفيذ أمر مولاه. ونهض هذا عن المائدة عقب ذلك وقد بدا في وجهه الارتياح وعاد يحدث نفسه قائلاً: "كلمة واحدة فيها الكفاية، ولكيلا يكون هناك مجال لسوء الفهم!.. نقطة دم.. نعم نقطة دم..

هذا ما يجب أن يقال وأن يستقر في أذهان الجميع. على أن نجاح هذه الخطة مرهون إلى حد كبير بعودة الطبيب من مايرلنج وإعداد تقريره طبقاً لخطتنا.. كما يجب ألا يرتكب وزير البوليس حماقة من حماقاته المعروفة، وألا يتدخل الصحفيون الملاعين كالعهد بهم فيما لا يعنيهم.. ثم هناك ذلك الأحمق الأرعن الآخر هويوس فمن الجائز أن يقلبه على أمره لسانه الطويل فيمضي في سرد الحادث كما يشاء بلا تردد ولا تفكير!"

الساعة الواحدة والدقيقة ٣٥ مساء

في محطة ميدي بفيينا

لم يجد الدكتور فيدرهوف بدا من إنجاز بعض أعماله الضرورية في العاصمة قبل أن يذهب إلى مايرلنج، فقد كان بين المرضى الذين يعالجهم من هم في حاجة إلى أن يتفقدهم بنفسه. وقد رأى بعد ذلك إلا داعي للعجلة، فعرج على منزله حيث تناول غداءه على مهل، ثم دخن سيجاراً، وارتدى معطفاً من الفرو السميك عملاً بمشورة قرينته!.

وأخيراً تواجه إلى المحطة حيث دفع الرسوم المقررة، وصعد إلى إحدى عربات القطار الواقف بها في انتظار حلول الموعد المحدد لقيامه منها في الساعة الواحدة والدقيقة ٤٧ بعد الظهر!

وكان الدخان الكثيف المتصاعد من القاطرة يثير ثائرته فيتأفف ويلعن السكك الحديدية والمشرفين عليها لأنهم لا يراعون التعليمات الصحية ويؤذون المسافرين بمثل ذلك الدخان المليء بالكربون الخانق، وخيل إليه أن الدقائق الباقية على موعد قيام القطار لا تريد أن تنتهي أبداً، فأخذ يحاول قطعها بالنظر فيما معه من الصحف والكتب، ثم بالتطلع إلى وجوه المسافرين

وموظفي المحطة، ومحاولة عزف لحن البولكا صافراً بغمه، على أن هذا كله لم يستغرق سوى دقيقتين اثنتين لا غير، وإذن.. لا يزال أمامه دقيقتان أخريان حتى يتحرك القطار للمسير؟ فلم يجد خيراً من أن يقطعهما متراخياً في مقعده المختار بالعربة حيث ألقى برأسه إلى ظهر المقعد وأغمض جفونه وراح يفكر في زوجته والإمبراطور وولي عهده، وفي طبيب ولي العهد، وفي المرضى الذين عادهم منذ قليل.. وبقى كذلك حتى دوى صفير القطار إيذانا بمغادرته المحطة، فاعتدل في مقعده وعلى فمه ابتسامة تنم على الارتياح، وكان في اللحظة التي تحرك فيها القطار قد استطاع أن يقنع نفسه بأن تغيبه عن عيادته الخاصة لعيادة ولي العهد المريض سيكون دعاية طيبة له بين المرضى الذين يقصدون إليه أثناء ذلك، عدا ما كان يعتقده من أن مرض الارشيدوق لا أهمية له وقد يكون وهماً لا أصل له، وعلى هذا يكون علاجه العاجل دعاية أخرى لفنه العظيم لا تقدر بمال!

ومع ذلك بقي الدكتور دقائق وهو يحلق بأجنحة خياله في جو الثروة الطائلة التي يملكها الارشيدوق ولي العهد، وما عرف عنه من الإسراف في العطاء، عادا ما عرف عن مائدته الحافلة دائماً بأجود ألوان الطعام وأنواع الشراب!

الساعة الثالثة مساء

في قصر فتسيرا

كان الإمبراطور فرنسوا جوزيف على حق حين أبدى خشيته من أن يتسرب نبأ مأساة مايرلنج من القصر قبل الانتهاء من إعداد الخطة التي رسمها لما يجب أن يكون عليه النبأ حين يذاع رسمياً!

أن العاصمة الكبيرة المتسعة الأرجاء لتبدو كأصغر قرية من قرى الأقاليم النائية، إذا قيس اتساعها بمدى السرعة الكبرى التي انتشر بها نبأ انتحار الارشيدوق رودلف وخليلته ماري فتسيرا حتى لم يبق في فيينا من لم يسمع به ويعلق عليه، قبل مضي ساعتين على وصول الكونت هويوس لإبلاغه إلى الإمبراطور!

كان انتشار هذا النبأ المثير في فيينا أشبه بانتشار النار في غابة من أشجار الصنوبر الجافة في الصيف، إذا اشتدت الريح فجأة بعد اشتعال النار في أول شجرة بالغابة بسبب شرارة ضئيلة، إذ سرعان ما تنتقل إلى بقية الأشجار!

ولا أحد يدري كيف تسرب النبأ من القصر الإمبراطوري إلى كل مكان في العاصمة حتى بلغ قصر فتسيرا، فعلمت به البارونة هيلانة– أم ماري– من بعض جيرانها، وكاد عقلها يذهب فزعاً وجزعاً من هول المصاب، ثم أخذت تصيح: "وا أسفاه!. وا حسرتاه!.. وابنتاه!"

وفي هذه اللحظة وصلت الكونتيسة دي لاريش لزيارتها، ولم تكن قد علمت بالنبأ، فما كادت تقف عليه حتى تملكها الذهول وتمتمت ببعض عبارات قصدت بها تعزية صديقتها العجوز، ثم سارعت إلى الخروج عائدة من حيث أتت، وهي تردد في دهشة وفزع: "لقد انتحرا معاً!.. هذا ما كان منتظراً!.."

الساعة الثالثة مساء

في قصر مايرلنج

الأمير دي كوبورج، ولوشيك تابع الارشيدوق رودلف، مازالا يقومان

بحراسة جناحه الخاص، وقد أرسلا إلى محطة بادن عربة الصيد السريعة لانتظار القطار القادم من العاصمة، وفيه الدكتور فيدرهوف الطبيب الخاص للإمبراطور، ثم العودة به في أسرع وقت ممكن إلى قصر مايرلنج!

إنهما في حالة يرثى لها من الفزع والاضطراب وطول الانتظار، ولكن.. ها هي ذي العربة قد وصلت أخيراً، فانطلقا لاستقبال الطبيب في لهفة شديدة. وما كاد هذا يراهما حتى ارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة وابتدرهما سائلاً وهو يهبط من العربة: "كيف حال سمو الارشيدوق الآن؟"

وسرعان ما اختفت الابتسامة من وجهه، وأخذ الفزع يحل محلها ويشتد شيئاً فشيئاً حتى بلغ منتهاه بانتهائها من رواية الحادث له بالتفصيل.. وكانوا حينئذ قد بلغوا باب الغرفة الخاصة بالارشيدوق!

الساعة الرابعة مساء

في برلمان فيينا

الجنرال دي خلومكي المستشار الأول الخاص لجلالة الإمبراطور جالس في معقد الرئيس "سمولسكا" رئيس البرلمان في فيينا، وقد أخذ يتصفح بعض الأوراق، بينما القاعة ما زالت خالية من الأعضاء، وقد وقف القليلون الذين وصلوا منهم قبل موعد الجلسة في البهو الداخلي يتبادلون الأحاديث، وبينهم الرئيس سمولسكا نفسه بقامته الفارعة وجسمه الضخم ولحيته الطويلة المدببة

وانتهز بعض الصحفيين فرصة وجود الجنرال دي خلومكي وحده في القاعة، فسارعوا غليه متسائلين عن حقيقة ما يقال في الخارج من أن سمو ولي العهد أصيب في حادث صيد. وكان جوابه أن شيئاً رسمياً لم يصل بعد إلى الجهات المختصة

وهناك في البهو، كان الأعضاء يتبادلون مختلف التعليقات على تلك الإشاعة أيضاً، كل منهم على طريقته الخاصة، ثم بدأت الأخبار ترد تباعاً من القصر الإمبراطوري ومن مراكز البوليس ودور الصحف، وكانت أول الأمر مختلفة يناقض بعضها بعضاً، ثم اتفقت بعد قليل على أن الحادث خطير، وعلى أنه سيهز الأسرة المالكة والإمبراطورية كلها هزاً عنيفاً. وأخيراً وصل النبأ الرسمي في الوقت الذي استقر الأعضاء فيه على مقاعدهم في قاعة الاجتماع، فأعلنه الرئيس سمولسكا من فوق منصة الرياسة، كما أعلن رفع الجلسة وتأجيلها إلى أجل غير مسمى، حداداً على وفاة سمو ولي العهد الارشيدوق رودلف اثر إصابته بنزيف في المخ!

وهكذا غادر الأعضاء دار البرلمان يسودهم الوجوم، وأن تساءل كثيرون منهم فيما بينهم عن سر عدم استقدام القصر لهذه المناسبة ممثله في البرلمان الأمير الشاب الويز دي ليختنشتاين، في حين دعى بدلا منه الكونت تافييه وزير الأمن!

جثتان في سرير!

الساعة الرابعة والدقيقة ١٥ مساء

في غرفة نوم الارشيدوق

أصر الدكتور فيدرهوف على أن يصحبه الأمير دي كوبورج ولوشيك عند فحص الجثتين. وفتحت نوافذ الغرفة أولاً، فعم جوانبها ضوء النهار الباهت وانعكاس بريق الثلوج المتراكمة فوق أشجار الغابة. وبدأ هواؤها يتجدد وتخف فيه رائحة التبغ والزهور الذابلة ورماد المدفأة. وما كادت عينا الأمير دي كوبورج تقعان على الجثتين الممددتين في السرير حتى صرخ مذعوراً فالتفت

إليه الدكتور وهمس إليه قائلاً: "كلا!.. أمام الموت يجب السكون التام!". ثم اقترب من جثة الارشيدوق وسأل: "واثقان أنتما من أن هذه جثة الارشيدوق رودلف ولي العهد؟". فأومأ كل منهما موافقا. كما أكدا أن الجثة الأخرى للبارونة ماري فتسيرا. ولفت الأمير نظر الطبيب إلى الخاتم الذي في خنصر يدها وإلى الشعار المنقوش عليه وأوضح له معناه قبل أن يقرأه: "معاً.. في الحب.. حتى الموت!"

وكان البرد شديداً، فرفع الدكتور فيدرهوف ياقة معطفه لتغطي أذنيه. ثم استأنف الفحص قائلاً: "لا يوجد أي أثر لوقوع صراع أو مقاومة. وهذا نظام الحجرة يبدو غاية في الترتيب والتنسيق، وليس هنا أو هناك نقطة دم واحدة". ثم التفت إلى المائدة المجاورة وتأملها قليلاً وواصل كلامه فقال: "هذه بقايا الوجبة الأخيرة من الطعام والحلوى والفاكهة والشراب. ولكن أكواب النبيذ الموضوعة عليها ثلاثة أكواب لا اثنان فكيف كان ذلك؟"

وأجاب لوشيك قائلاً: "كان هنا حتى منتصف الساعة الثانية صباحاً، جوهان ترنكليني الحوذى العجوز، والارشيدوق نفسه هو الذي كلفني أن آتي به. وقد أمضى معهما ساعات في الغناء والضحك والشراب. وبعد انصرافه كان الارشيدوق وضيفته على أتم ما يكون من العافية والابتهاج. وفي الساعة السادسة تماماً أي بعد حوالي أربع ساعات كلمني سمو الارشيدوق من وراء الباب وكلفني أن أعد العدة لخروجه للصيد مع ضيفيه سمو الأمير دي كوبورج وجناب الكونت هويوس في تمام الساعة السابعة!"

وكان الطبيب يستمع لما يقوله لوشيك، بينما عيناه ويداه تفحصان بدقة محتويات المائدة وأرض الحجرة. فوجد على المائدة ثلاث رسائل مغلقة أحداها باسم جلالة الإمبراطورة اليزابث، وأخرى باسم الارشيدوقة استيفاني،

والثالثة باسم لوشيك. كما عثر بجانب السرير على مسدس تبين أنه خاص بالارشيدوق، وتبين من فحصه أنه تنقصه رصاصتان، وهنا عاد الدكتور إلى فحص الجثتين، واستمر في ذلك حوالي دقيقتين، ثم غطى الجثتين بملاءة السرير وهز رأسه قائلاً: "الآن وضح الأمر!.. رصاصتان أطلقتا من المسدس، والجثتان خاليتان من الجروح والخدوش فيما هذا الجرح الذي تجمد فوقه الدم فوق فمه وفمها.. وإذن كانت رصاصة واحدة هي القاضية على حياة كل منهما، ولا شيء غير ذلك، إذ ليس في الحجرة أو جسمي القتيلين أي أثر لاستعمال سلاح آخر أو سم. ولا شك في أنه قتلها أولاً بإحدى الرصاصتين بدليل أن جثتها مغطاة بالزهور والرياحين. ثم لا شك في أن كلا من الرصاصتين أطلقت في الفم أثناء التمدد على السرير فنفذت إلى الجمجمة واخترقتها من الخلف، ويؤيد هذا وجود دم تحت الرأس على الوسادة.. والمسألة على هذا مسألة انتحار متفق عليه ولا يمكن أن تكون إلا كذلك!"

ثم أخرج الرسائل الثلاث التي وجدها على المائدة من جيب معطفه وأخذ من بينها الرسالة المعنوية باسم لوشيك وناوله إياها قائلاً: "هذه الرسالة لك.. أليست بخط الارشيدوق؟"

وتناول لوشيك الرسالة بيد مرتجفة واغرورقت عيناه بالدمع وهو يتأمل الخط الذي كتب به اسمه، ثم قال للدكتور: "نعم إن هذا خط سيدي الارشيدوق". ثم أخذ في تلاوة ما تضمنته من عبارات الشكر والثناء والوصية الخاصة بأسلحة الصيد وأدواته وهو لا يستطيع مغالبة البكاء. وكان الدكتور قد انتهى من إعادة فحص الجثتين للتحقق من صحة استنتاجه بعد الفحص الأول، فلما أطلعه لوشيك على ما كتبه إليه سيده الارشيدوق، أومأ برأسه موافقاً كأنه كان ينتظر ذلك، ثم أعاد الرسالة إلى جيب معطفه مع الرسالتين الأخريين

الساعة الخامسة والدقيقة ٤٠ مساء

أسرار الدولة

لحظ الدكتور فيدرهوف أن الأمير دي كوبرج يأتي بحركات وإشارات تدل على شدة اضطرابه وتنذر بالخطر على عقله وبدنه، فقال له وهما يغادران الغرة الخاصة بالارشيدوق ليعيد لوشيك إغلاق بابها:

– يحسن أن تعجل يا سيدي بالعودة للعاصمة، حيث تعتكف في الفراش وتأخذ منوماً.. إنك لفي حاجة شديدة إلى الاسترخاء التام لتريح بذلك أعصابك!

ورد عليه الأمير في حدة عصبية ملحوظة قائلاً: "كيف يمكن هذا؟.. أبعد كل ما حدث أستطيع النوم أو الراحة ما بقيت على قيد الحياة؟!"

وكان واضحاً إلا فائدة ترجي من مجادلة الأمير دي كوبورج في مثل حالته هذه، ولكن الدكتور مضى يحدثه في الطريق إلى خارج القصر قائلاً: "نعم يا سيدي.. متى وصلت إلى العاصمة وابتعدت عن المناظر المثيرة التي تتابعت على مسرح المأساة الواقعة هنا، فسيكون في استطاعتك أن تسترخي وتستريح!"

وبعد قليل، كان الأمير دي كوبورج يجلس في العربة التي أعدت لتقله إلى فيينا، بينما وقف الدكتور فيدرهوف ولوشيك لتوديعه، وقبل أن تتحرك العربة لبدء الرحلة قال الدكتور فيدرهوف: "أنها لمهمة جد خطيرة تلك التي شاءت الأقدار أن تضعها على كواهلنا نحن الثلاثة، ولاشك أن مصلحة الإمبراطورية تفرض علينا أن نلتزم جانب الحذر الشديد والكتمان التام. وإذن.. لنقسم جميعاً معاهدين الله على أداء هذا الواجب المقدس!"

ثم بدأ هو فأقسم بشرفه ليحرص على كتمان كل ما وقف عليه من أسرار، وتبعه الأمير، ثم لوشيك!

الساعة الخامسة والدقيقة ٥٠ مساء

وثيقة خطيرة

الدكتور ولوشيك منهمكان في تنظيف آثار الرصاصتين في الجثتين، وقد بدت الدهشة الممزوجة بالأسف في وجه الطبيب، إذ تبين وهو يعيد فحص جثة ماري أنها حامل في الشهر الثالث أو الرابع. وبعد أن اطمأن إلى أن كل شيء في مظهر الجثتين صار على ما يرام، انتقل إلى قاعة المائدة وجلس يكتب تقريره في تؤدة وعناية وتفكير

إن تقريره ولاشك سيكون وثيقة خطيرة من وثائق الإمبراطورية، ومن هنا لم يكن يكتب كلمة إلا بعد التروي ومراعاة الدقة التامة في اختيارها، وحينما انتهى من هذه المهمة أخيراً نادى لوشيك وقال له:

– ما دام النبأ قد أبلغ إلى جلالة الإمبراطور وعلم بأنني هنا فلا شك أن جلالته الآن في انتظار عودتي، وعلى هذا أرجو أن تعد عربة سريعة تحملني إلى القصر الإمبراطوري بالعاصمة في أقرب وقت مستطاع!

ولم تمض دقائق حتى كان لوشيك قد أعد العربة المطلوبة، ثم انطلقت إلى فيينا بالطبيب الخاص للإمبراطور وكأنها في سباق مع الريح!

الساعة السادسة مساء

في شوارع فيينا

هواء فيينا بارد جاف، وقد حفلت طرقاتها ومتنزهاتها ونواديها ومتاجرها بجماعات وأفراد من الجنسين. خرجوا للترويح عن أنفسهم وشراء ما يحتاجون إليه من مأكل ومشرب وملبس وزينة. أو لتمضية بعض الوقت في

تفقد معروضات المحال التجارية والصناعية واستعراض الوجوه والأزياء والعربات والثريات المتلألئة والاستماع إلى الألحان المنبعثة من هنا وهناك

وكانت محال الحلوى كعادتها كل مساء مزدحمة بالغيد الحسان ذوات الأناقة والرشاقة، وبأفراد الطبقة الارستقراطية ذوي الشوارب المفتولة والخطوات المتزنة والأحاديث المنمقة، وبجانب هؤلاء وهؤلاء ضباط الجيش بملابسهم الرائعة المتعددة الأنواع والألوان والأشكال.

وقد أقبل الجميع على مختلف أنواع الحلوى والفطائر والمشروبات الساخنة. بينما امتلأت المقاهي الكثيرة بروادها من طلاب القهوة المتوجة بطبقة كثيفة من القشدة، أو طلاب بيرة بلسن الشهيرة يشربونها مثلجة في أكواب مخروطية الشكل. ونغمات الفالس تنطلق فتملأ الجو مرحاً وحبورا وتزيد في نشوة القوم ذكوراً وإناثاً وفي إرهاف مشاعرهم وترقيق عواطفهم حتى ليحسبهم الرائي جميعاً لم يخلقوا إلا للشعر والفن والحب وتقديس الجمال واغتنام الملذات

وعلى حين فجأة تعالت أصوات باعة الصحف والمجلات وهم يعدون على أرصفة الشوارع ويقفون بأبواب المقاهي والمطاعم والمتاجر معلنين ظهور ملحق من جريدة (فسنز تزيتونج) أي (أخبار المساء). وسرعان ما تنفد نسخ الصحيفة من أيدي الباعة إذ يتخاطفها الجميع من الجالسين والجالسات في تلك المحال، ومن المارة بين مشاة على الأرصفة ومتنقلين في عرباتهم الفخمة المزركشة تجرها الجياد الأصيلة ذات السروج المذهبة ويسوقها حوذيون يرتدون ثياباً من الحرير المحمل والفراء غاية في الفخامة والأناقة.

وكان النبأ المثير الذي دعا إلى هذا الإقبال الشديد على الصحيفة المسائية هو النبأ الذي اتخذه رئيس تحريرها عنواناً لصفحتها الأولى كلها:

"وفاة الارشيدوق رودلف فجأة. وجوده في فراشه مصاباً بطلق ناري!"

وكل ما ذكرته الصحيفة بعد ذلك عن هذا النبأ العظيم الخطير، إنها استقته من مصادر موثوق بها وأنه كان يدور على الألسن في البورصة قبل أن تغلق بلحظات!

ولم تمض دقائق آخر حتى سرت في المدينة أنباء جديدة زادت الأمر غرابة وغموضاً.. لقد صدرت الأوامر المشددة بمصادرة كل نسخ الصحيفة الجريئة التي نشرت نبأ وفاة الارشيدوق بتلك الصيغة المثيرة، ولكن رجال البوليس النشطين الأذكياء وصلوا إلى مطبعة الصحيفة في الوقت الذي نفدت فيه جميع نسخها من أيدي الباعة!. وهكذا وجد أهل العاصمة ما يضيفونه إلى تعليقاتهم على النبأ المقتضب العجيب الذي قرأوه، وتساءل الناس في كل مكان: "لماذا صودرت الصحيفة؟ لابد أن يكون النبأ صحيحاً وإلا ما جرؤت على نشره حتى لا تضيع ثقة الجمهور بها.. ثم لماذا أصر رجال الحاشية الإمبراطورية على أن تتم تلك المصادرة في الخفاء؟.. ما الذي يخشونه من وقوف الناس على هذا الأمر؟!.. وأخيراً: لماذا لم يصدر بلاغ رسمي بحقيقة ما هناك؟.. أيمكن أن يكون هناك نبأ أهم من موت ولي العهد وموته مقتولاً في فراشه بالرصاص؟!"

مساعى البارونة هيلانة فتسيرا

والثرى الوجيه جورج شتوكاو

أخذت البارونة هيلانة فتسيرا تطوف بالوزارات ومراكز البوليس ودور الصحف، منذ علمت بالنبأ في الصباح حتى أوشك المساء أن يحين.. ولكن الجهات المختصة كلها أكدت أن ليس لديها أي نبأ رسمي في هذا الشأن!

ولم يسعها أخيراً إلا أن تلجأ إلى القصر الإمبراطوري نفسه، لتستقى منه الخبر اليقين. ولكن كبار موظفيه كانوا في شغل عن أية مقابلة. أما صغارهم فلم يكن لديهم عن ذلك النبأ أي بيان جديد!

ووقعت المسكينة في حيرة شديدة، ولم تدر ماذا تصنع، وحدثها قلبها بصحة ما سمعته من انتحار ماري ابنتها الجميلة العزيزة والارشيدوق ولي العهد المحبوب!

ولاح لها أخيراً أن تلجأ إلى السيد جورج شتوكاو.. إنه ثري بالغ الثراء، وذو نفوذ قوى لدى جميع الجهات.. ثم هو يعطف على ماري ويحبها كثيراً ويعد نفسه بمثابة عمها

وكان تأثره شديداً بتوسلات البارونة الحزينة الحائرة العجوز فتوجه من فوره إلى القصر الإمبراطوري واعدا بأن يتصل بها قبل مضي ساعة ليصارحها بجلية الأمر.. وهل ابنتها انتحرت حقاً، وكيف كان ذلك أن صح النبأ؟.. أو أنها مازالت على قيد الحياة؟!

وللمرة الأولى في حياة السيد شتوكاو، وجد الأبواب كلها تغلق في وجه أسئلته وتحرياته، فلا موظفي القصر، ولا الوزراء وكبار الضباط وأعضاء البرلمان، ولا أي أحد ممن يعرفهم ويعرفونه ويخدمهم ويخدمونه.. لا أحد من هؤلاء جميعاً استطاع أن يسعفه بالجواب المطلوب. وكأنما اتفقوا على جواب واحد هو أنهم لا يعلمون شيئاً مؤكداً عن هذا الموضوع وما زالوا في انتظار البيانات الرسمية الصحيحة!

ولكن شتوكاو لا يعرف اليأس، وهذا هو أخيراً قد أفلح في إقناع صديق قديم له من كبار موظفي القصر بأن يكون معه أكثر صراحة، فقد أجابه هذا قائلاً:

– على كل حال يا صديقي– هذه مسألة تتعلق بسلامة الدولة وشرف الإمبراطورية كلها. ولا عجب بعد هذا إذا اتخذت الإجراءات الحازمة لمنع انتشار الإشاعات والأقاويل.. وبناء على ذلك إذا صح أن الآنسة فتسيرا لقيت حتفها في مايرلنج، فالقانون لا يسمح بنقل الموتى لدفنهم بالعاصمة. ولكن قد يمكن في حالة خاصة كهذه أن يتم الدفن في إحدى القرى القريبة من هناك، بشرط المحافظة على السرية التامة، كأن يكون الدفن عند منتصف الليل مثلاً، ومن غير احتفال جنائزي وقصر الصلاة على رجال الكنيسة الرسميين!

واشتد الغيظ والغضب بالسيد شتوكاو، وقال لصاحبه موظف القصر الكبير:

– من الجائز طبعاً أن يكون الموت جنائياً.. بطلق ناري مثلاً!.. أفلا تظن أن تشريح الجثتين أمر يفيد العدالة و...!

فقطع موظف القصر الكبير كلامه وقال له في غلظة وجفاء لم يعهدهما فيه من قبل: "حذار يا سيدي!.. إن جلالة الإمبراطور لا يرى أن الأمر يدعو إلى إجراء كهذا.. على الإطلاق!"

فنظر إليه شتوكاو متعجباً ثم قال له في هدوء ينم عن دهاء كبير:

– ما دام جلالة الإمبراطور لا يريد تشريح جثة الارشيدوق ولي العهد، فنحن جميعاً نتفانى طائعين راضين في سبيل تحقيق إرادته الحكيمة ورغبته السامية.. وكل ما هناك أننا نخشى أن تكون الفتاة قتلت هي الأخرى بالرصاص.. ومن حقنا أن نطالب بتشريح جثتها استكمالاً للتحقيق، ولمعرفة هل هناك جناية قتل. أو هناك انتحار؟

ومرة أخرى، قطع موظف القصر كلام شتوكاو قائلاً له: "اسمع يا عزيزي،

لا تجمع المتاعب بيدك لتجعلها فوق رأسك!.. ليس هناك ما يرجح هذا الظن أو ينفي صحته. ومصلحتكم الخاصة نفسها لا تتفق وإياها فكرة الانتحار، ولاسيما أن الكنيسة كما تعلم لا تسمح بدفن المنتحرين في أرض مباركة!"

وقبل أن يفتح شتوكاو فمه ويتهيأ للرد على ذلك واصل موظف القصر كلامه فقال: "وجلالة الإمبراطور– كما قلت لك منذ هنيهة– لا يحب أن يفتح أي سبيل للمعلقين والمعلقات، وهكذا يقضي على الإشاعات والاراجيف في مهدها، بدلاً من تركها حتى تشب وتدب هنا وهناك!"

ونهض موظف القصر الكبير على أثر ذلك إيذانا بانتهاء المقابلة، فنهض السيد شتوكاو متثاقلاً وقال لصاحبه في يأس ومرارة: "ما العمل إذن؟"

فأجابه هذا قائلاً:

– قد تسمح الكنيسة بالدفن إذا ثبت أن الانتحار كان نتيجة اضطراب عقلي، ومتى سمحت بذلك ففي الإمكان تسلم الجثة عند منتصف الليل في مايرلنج، ومن حسن حظك يا عزيزي أني سأكون هناك منذ الساعة السادسة مساء اليوم، فأيسر لك أمر ذلك التسليم. على أن يكون الحضور والانصراف في عربة أجرة عادية، وإلا تأخذ معك أي شيء يشير إلى الموت كتابوت أو كفن أو اتخاذ شعار لإعلان الحداد. ومتى شئت ففي الإمكان تعيين ضابط لبق حصيف من ضباط البوليس ليصحبك في هذه الرحلة لمعاونتك على تجنب الأخطار!

وهكذا أدرك شتوكاو أن هذا أقصى ما يمكن الوصول إليه، فتردد قليلاً ثم قال:

– اتفقنا يا سيدي.. سأكون هناك هذه الليلة!

الساعة السادسة والدقيقة ٥٠ مساء

في محطة بادن

الدكتور فيدهوف يعدل عن السفر بالعربة إلى فيينا!.. إن المسافة بعيدة لا تقل عن أربعين كيلو مترا، وهناك قطار يغادر بلدة بادن القريبة في الساعة التاسعة. وهو يصل إلى العاصمة في الوقت المقدر للعربة أن تصل فيه. وإذن فالي هناك.. إلى محطة بادن للاستراحة بها حتى يحين موعد سفر القطار، ثم إن السفر بوساطته أسرع وأسلم ولاسيما بالليل!

الساعة الثامنة مساء

مذكرة من الإمبراطور

شوارع فيينا أرضها مغطاة بالجليد، وقد ضايق هذا طبيب الإمبراطور الخاص، لأن جياد العربة التي أستقلها من محطة العاصمة إلى القصر الإمبراطوري كانت مضطرة إلى السير على مهل خشية الانزلاق!

وهذا هو أخيراً يصل إلى القصر فيهبط من العربة ويدخل مسرعاً حيث يطلب من فوره الإذن في مقابلة جلالة الإمبراطور، ولكن التشريفاتي المختص يستقبله مرحبا في أدب واحترام، ثم يقول له: "إن صاحب الجلالة أوي مبكراً إلى فراشه، وقد..."

ويقاطعه الدكتور قائلاً: "كلا!.. أن جلالته ينتظر وصولي، ولدي أنباء عاجلة يهم جلالته الوقوف عليها فوراً.. غني قادم من!"

ويتطلف الموظف المختص في تهدئة الطبيب الكبير فيقول متمماً عبارته: "نعم يا سيدي.. جلالته يعلم انك ستصل من مايرلنج الآن.. وأنك

أعددت تقريراً مفصلاً عن وفاة سمو الارشيدوق بالسكتة.. أقصد وفاته بنزيف دموي في المخ.. وهذه مذكرة بخط جلالته يقول فيها: (أبلغوا الدكتور فيدرهوف حين وصوله أني سأستقبله في الساعة السادسة صباح غد)... وهذه هي المذكرة يا سيدي!"

وتناول الدكتور فيدرهوف من يد الضابط المختص مذكرة الإمبراطور، لكنه لم ينظر فيها بل وقف يحملق في محدثه متعجباً ذاهلاً، ثم قال له "سكتة؟ نزيف؟ مخ؟ من قال هذا؟!"

فقال التشريفاتي المختص في هدوء: "نعم يا سيدي.. لقد صرح لي بذلك المستشار العسكري الأول الخاص عقب إبلاغه إلى جلالة الإمبراطور مباشرة!"

أرض السلام..!

يوم الخميس ٣١ يناير.

الساعة ١٢ والدقيقة ١٠ صباحاً.

الكونت بومبل يصل إلى قصر مايرلنج في عربة حربية طويلة بها تابوت فارغ. ثم يحمل التابوت بمعونة لوشيك ويدخلان الغرفة التي بها الجثتان ولا يتمالك لوشيك الأمين عواطفه فتنهمر الدموع من عينيه اللتين قرحهما السهر حينما يرى جثة سيده مرة أخرى. وكان الدكتور فيدرهوف قد ربط رأس الارشيدوق الميت بشريط سميك وغطاه بقلنسوة صغيرة سوداء حتى لا يظهر الجرح الذي خلفته الرصاصة القاتلة!

ولم يستطع لوشيك أن يشارك في حمل جثمان سيده وإيداعه التابوت، لكنه لحظ من خلال دموعه التي بللت شاربيه أن رأس سيده قد يصطدم

بجوانب التابوت أثناء ارتجاج العربة في طريقها إلى العاصمة، فسارع إلى إحضار وسادة لوضعها تحت الرأي وحوله تفاديا للاصطدام المتوقع!.. وبقى واقفاً بباب القصر وعيناه ترقبان العربة المنطلقة بسيده إلى غير رجعة إلى أن اختفت عن ناظريه. فتهالك على مقعد هناك عند مدخل القصر حيث أطلق لعينيه عنان البكاء بعد أن دفن وجهه بين كفيه، وأخذت كتفاه تنتفضان كأنه محموم!

الساعة ١٢ والدقيقة ٤٩ صباحاً.

حديث مع جثة هامدة.

عجب لوشيك إذ سمع قعقعة عربة أخرى قادمة إلى القصر في هذا الوقت المتأخر من الليل. وما لبثت العربة قليلاً حتى وصلت إلى مجلسه عند مدخل القصر فوقفت وهبط منها السيد هابردا مفتش البوليس والسيد جورج شتوكاو، وقدما له نفسيهما والأمر الرسمي بتسليمهما الجثة الأخرى، فأخذ ينقل نظرات زائغة ذاهلة بين الورقة التي أبقاها في يده ووجهي الرجلين والعربة المنتظرة على بعد خطوات منه. وكانت عربة مغلقة عالية دقيقة العجلات زودت بمصابيح كروية من النحاس المفضض المصقول، ومن هذه المصابيح كان ينبعث ضوء صارخ ضارب للحمرة لا تطيق العيون مرآه!

وهناك إلى جانب السرير الذي يحمل الجثة الباقية، ركع السيد شتوكاو وأخذ يصلي في خشوع، بينما أخذت الدهشة مفتش البوليس لأن الموت لم ينقص شيئاً من روعة البارونة الصغيرة الحسناء، فبدا وجهها طلقاً مشرقاً بالابتسام كأنها في نوم عميق لذيذ، كما بدا شعرها مسترسلا تغطي خصلاته الغزيرة جانباً كبيراً من جسمها وما زال شذي العطر ينبعث منها!.. أما لوشيك

فتركز بصره على الموضع الذي كانت به جثة سيده منذ قليل، وهو لا يكاد يرى شيئاً لامتلاء عينيه بالدموع!

وأخيراً، نهض السيد شتو كاو فانحنى على جثة قريبته وأراد أن يحملها بين ذراعيه كما يحمل الطفل النائم، لكنه لم يستطع ذلك إذ كانت الجثة قد تخشبت، فاضطر إلى حملها هكذا على علاتها. وبعد دقائق استطاع بمعونة مفتش البوليس أن يتفادى تمايل الرأس إلى الأمام والخلف بعد أن بدأ يفقد تخشبه، وأن يتفادى في الوقت ذاته ظهور الجرح الذي تجمد الدم حوله خلف الرأس. وكان تيبس الذراعين قد حال دون إدخالهما في كمي المعطف الذي أراد شتو كاو أن يلبس الجثة إياه، فرئي الاستعانة بعصا قصيرة كانت مع مفتش البوليس، وذلك يجعلها عمودية خلف الرأس والظهر، وشد الرأس إليها برباط طويل عريض.

وكانت مهمة لوشيك أن يشغل حوذي العربة ريثما يصل الرجلان بحملهما إليها، ويضعانها بينهما فيها وكأنها مريضة يسندانها، وقد نجح لوشيك في مهمته. ولكي يبعد شتو كاو أي شك أو ارتياب من ١هن الحوذي القروي الساذج الذي اختاره لهذه المهمة، أخذ هو ومفتش البوليس يتظاهران بأنهما يتحدثان مع الفتاة المريضة الجالسة بينهما فيقول الأول موجها خطابه إليها: "هيا.. هيا.. تشجعي يا آنسة.. أن المسافة ليست طويلة كما تتوهمين!". ثم يعقب مفتش البوليس قائلاً لها أيضاً: "بعد ربع ساعة تكونين في سريرك.. ويكون كل شيء على ما يرام!"

وكان الحوذي يعرف الطريق إذ حرص شتو كاو على أن يأتي منه إلى قصر مايرلنج بعد أن مر على بيت الكاهن في قرية (بلجنكروز) واتفق معه على ما يجب اتخاذه من الإجراءات والاستعدادات. على أن الحوذي اضطر

إلى تسيير العربة في بطء وحذر شديدين، نظراً إلى أن الأرض كانت مغطاة بالجليد، والريح عاصفة، وقد كسا الضباب زجاج العربة بطبقة كثيفة من البخار كادت تحول دون تبين معالم الطريق!

وتوقف سير هذا الركب الجنائزي غير مرة ريثما يقوم الحوذي بتثبيت حدوة لأحد الجوادين أو إصلاح خلل في إحدى العجلات وكان هذا التوقف أشد مضايقة للرجلين الجالسين بجانب الجثة، لخشيتهما أن يكشف الأمر أثناء هذا الوقوف. أما مضايقاتهما بسبب الجهد الشديد الدائم لحفظ توازن الجثة فقد تحملاها في صبر لا مثيل له!

ليلة في بلجنكروز

إلى عالم السلام.

أخيراً وصلت العربة بمن فيها، ووقفت أمام بيت الكاهن المنعزل في سفح الجبل وقد غطته الثلوج حتى تعذر على الأبصار تمييزه من الصخور البيضاء القائمة إلى جواره. وسرعان ما فتح الكاهن الباب، وكان الحوذي قد هبط من العربة وتأهب برغم تعبه الشديد لمعاونة عميليه على إنزال مريضتهما، ولكن الكاهن الذكي الدقيق سارع إلى إبعاده طبقا لخطة موضوعة من قبل، بأن قاده إلى المدفأة الموقدة في إحدى الحجرات بحجة أنه أشد حاجة إلى الدفء لكبر سنه ولأنه في مقعده فوق العربة كان أكثر تعرضاً للبرد الشديد!

وما أن اختفى الحوذي داخل تلك الحجرة حتى تعاون الكاهن مع شتو كاو ومفتش البوليس على نقل الجثة إلى القبر الذي أعد لدفنها فيه، فحملها مفتش البوليس وشتو كاو على نقالة جاء بها الكاهن، ثم تقديمهما هذا حاملا في إحدى يديه مصباحاً، وفي الأخرى مجرفين لإهالة التراب على الجثة بعد

وضعها في اللحد الذي أعد لهذا الغرض!

وهناك بين الأجداث المتناثرة، وقف الكاهن عند لحد مفتوح تراكمت من حوله الثلوج والأحجار الصغيرة، ثم همس بزميليه قائلاً: "هنا أيها الصديقان!". ثم تناول أحد المجرفين وأخذ يسوى به فتحة اللحد. ولم يملك شتو كاو نفسه وهو يوسد ماري مقرها الأخير ثم يرى الكاهن القروي المتقشف العجوز يسارع إلى إهالة التراب والحجارة فوقها في نشاط الشباب!.. وترك دمعة تنحدر على خده وهو يتأمل هذا المشهد المؤثر ويحدث نفسه قائلاً: "أفي مثل هذه الحفرة المغطاة أرضها بالجليد، وبين هذه الحجارة والأتربة المبللة ترقد إلى الأبد صاحبة هذا الوجه الفتان وهذا الجسم الساحر وهذا الشباب الرائع.. يا لسخرية الأقدار!"

وفي دقائق معدودات كان الكاهن قد انتهى من مهمته وسويت الأرض كما كانت فوق الحفرة التي استقرت فيها البارونة الصغيرة الحسناء.. ولم يجد مفتش البوليس وشتوكاو بدأ من مساعدته في إتمام هذه المهمة بعد أن غطى هو اللحد بالطبقة الأولى من الحجارة والتراب. ثم حمل مفتش البوليس المصباح في يده ريثما أخرج الكاهن كتاب الصلاة على الموتى من جيبه وأخذ يتلو بعض الصلوات في ضوء المصباح بصوت خافت عميق. في حين جثا شتو كاو على ركبتيه وراح هو الآخر يصلي فوق الأرض المغطاة بالجليد.

وهكذا ختمت حياة ماري فتسيرا، تلك الشابة الرائعة الحسن، المكتملة الأناقة، المشتعلة ذكاء والمعية وإخلاصاً وخفة روح!.. وكانت التعزية الجميلة فيما انتهت إليه من مصير أليم. أنها انتقلت إلى عالم السلام والسكون والراحة الأبدية، وأن مقرها الأخير على قيد خطوات من بيت من بيوت الله!

وقد أبدع في وصف هذا المشهد فيما بعد: السيد هابردا مفتش البوليس

الذي اشترك مع شتو كاو في نقل جثمان ماري فتسيرا من مهد حبها وسعادتها وآمالها في قصر مايرلنج، إلى تلك الحفرة التي اختيرت لتكون مقرها الأخير!

ونشر ذلك في مذكراته التي ضمنها تقريره عن قيامه بهذه المهمة ونشرته "المطبعة الجديدة الحرة" في فيينا سنة ١٩٢٢.

بين الحقيقة والخيال!

الخميس ٣١ من يناير.

الساعة الثالثة صباحاً بكنيسة كابوتشاين.

أخيراً صدرت الأوامر بنقل جثمان الارشيدوق رودلف إلى دير كابوتشاين حيث مدافن آل هابسبورج، وسمح لأفراد الشعب بالمرور أمام تابوته هناك، بعد أن كان هذا ممنوعاً خلال وجوده بكنيسة القصر.

وكان الشعب كله يتساءل في حيرة: "هل يحتفل رسمياً بتشييع جنازة ولي العهد؟. وهل يوافق قداسة البابا ليون الثالث عشر على منحه الغفران وإجراء الدفن وفقا للمراسيم الكاثوليكية؟!.. صحيح أن الانتحار يمنع ذلك.. ولكن أليس جائزاً أن انتحار الارشيدوق كان نتيجة اختلال في قواه العقلية.. وأذن يمكن أن يغفر له؟!"

الساعة الخامسة صباحاً.

في القصر الإمبراطوري.

الدكتور فيدرهوف يصل مبكراً إلى القصر استعداداً لمقابلة جلالة الإمبراطور في الساعة السادسة التي حددها جلالته. وفي هذا الموعد تتم المقابلة ويبتدره الإمبراطور قائلاً: "أرأيته؟.. أما أنا فلا أستطيع أن أراه مسجى في تابوته!. يا له من مسكين.. ولدي رودلف!". ثم غير الإمبراطور لهجة الحنان والتأثر العميق التي كان يتكلم بها وقال في صوت حازم جاف: "أنت طبعا لم تتحدث مع أحد هنا عما رأيت هناك!.. وهذا تصرف محمود منك

ولاشك!.. أنك تدرك طبعا ما يتطلبه الموقف للمحافظة على مكانة التاج وشرف آل هابسبورج والإمبراطورية، فضلا عن المحافظة على التوازن الدولي في أوروبا كلها.. وعلى هذا أريد أن تقسم الآن بشرفك متعهداً بألا تصرح بأي شيء لأي أحد عما وقفت عليه في مايرلنج. ولابد من أخذ مثل هذا التعهد على حارس مايرلنج الذي صحبك عند الفحص.. ما اسمه؟.. لوشيك؟.. حسنا!.. أن وفاة الارشيدوق ولي العهد يجب ألا يكون سببها غير نقطة من الدم!.. نزيف فجائي بالمخ!.. أليس هذا الذي في يدك هو التقرير الذي أعددته؟ حسنا سأطلع عليه فيما بعد.. أما الآن فحدثني بكل ما رأيت هناك!".

وأصغى الإمبراطور هادئًا أول الأمر للتفصيلات الدقيقة التي راح يرويها طبيبه الخاص، ثم أخذ الهدوء يزايله شيئاً فشيئاً، حتى لم يطق الجلوس ولا الوقوف فأخذ يدور حول المكتب مزمجراً وقد تقلصت عضلات وجهه وقست نظراته واضطربت حركاته وإشاراته، ثم اقترب فجأة من الطبيب وأمسك ياقة سترته بقوة وصرخ في وجهه قائلاً: "انتحار؟!.. أتؤكد أنه انتحار؟!.. هذا مستحيل!.. أن مثل هذا الأمر لا يمكن أن يكون أبداً!. أسامع أنت؟.. أي عار يلصق بشرف التاج والإمبراطورية أن صح أن ولي العهد ووارث العرش مات منتحراً؟. يا للحماقة!. يا للخيانة!. أتريد أذن أن يواري ولي العهد مقره الأخير منبوذاً من الكنيسة فلا يحتفل رسمياً بجنازته، ولا تقام المراسم الدينية من أجله؟.. كلا كلا!.. أني لأوثر فقد ولايتين من إمبراطوريتي على أن يكون آل هابسبورج مضغة في الأفواه بسبب ذلك الانتحار المزعوم!"

ويسكت الإمبراطور قليلاً، ثم يدق المكتب بقبضة يده ويقول: "لن

أسمح لأي مخلوق بأن يردد كلمة الانتحار هذه!.. والويل لمن يخالف أمري!.. وكذلك لن أسمح أبداً بذكر ذلك الاسم الوضيع الحقير.. اسم الشيطانة الملعونة التي كانت سبب كل هذا البلاء!"

وهنا يدخل أحد ضباط الحرس وينحني أمام الإمبراطور، ثم يضع على المكتب مجموعة من قصاصات الصحف، فيلقي الإمبراطور عليها نظرة خاطفة ثم يقول في صوت أشبه بالزئير:

– هؤلاء الأنذال الأوغاد!.. ألم يكف ما اختلقوه أمس؟.. ماذا؟.. من قال للأحمق الذي كتب هذا العنوان أن ولي العهد انتحر بطلقة من مسدسه؟!.. هذا كذب وبهتان!.. ولابد من مصادرة كل صحيفة قذرة تجرؤ على مثل هذا الإدعاء!

ثم يلتف إلى الدكتور فيدرهوف ويقول له: "أنك تعرف كل شيء، وقد وقفت بنفسك على الحقيقة.. فهيا خذ هذه الأقاصيص وانظر كيف تفند ما احتوته من افتراء واختلاق!".

وينحني الدكتور أمام الإمبراطور في إجلال ثم يقول له في صوت هادئ رزين: "لقد كان يشرفني يا مولاي أن أقوم بهذا الواجب الخطير.. ولكن القسم الذي أديته الآن أمام جلالتك لا يجعلني في حل من التحدث في هذا الأمر!".

ولا يجد الإمبراطور ما يقوله، فيقف هنيهة صامتاً يصر بأسنانه تغيظاً، ثم يعود إلى الجلوس خلف مكتبه، ويعتمد ذقنه بيده، ويستغرق في تفكير عميق كئيب!

الساعة التاسعة صباحاً.

في طرقات العاصمة.

لقد وقف دولاب الحركة بالمدينة، فعربات الترام قطعت سيرها ووقفت متلاحقة في جميع الشوارع، ولا أثر هناك لعربات بائعات اللبن التي تجرها الكلاب الضخمة. والأرصفة مزدحمة بالعاملات الشقراوات يتبادلن الثرثرة والتعليق على الأنباء. والمطاعم المقاهي والمحال التجارية لا بيع فيها ولا شراء، لأن جميع من فيها كجميع من تضمهم الدور والنوادي والحدائق والمتنزهات.. كلهم مشغولون حائرون، يتساءلون عن النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون!

حتى رجال البوليس الذين انتشروا هنا وهناك لحراسة الأمن والنظام، كان مظهرهم يدل على القلق والاضطراب، ولم يعجبوا لنظرات السخط والازدراء الموجهة إليهم من أفراد الشعب. فالواقع أن الحكومة بات مركزها مزعزعاً وفقدت هيبتها إلى حد بعيد حتى لدى المتسكعين في الطرقات، والخدم المسرعين بما يحملون من رسائل يتبادل فيها أسيادهم ما يزعم كل منهم أنه الخبر اليقين عن الحادث العجيب.. حادث مصرع الارشيدوق رودلف وخليلته الحسناء!

الساعة التاسعة والدقيقة ٢٥ صباحاً.

عند بائعة قبعات نسوية.

لم يكن هناك عمل أمام البائعتين العاملتين في متجر القبعات النسوية، فوقفتا تثرثران حول النبأ الخطير الذي صار حديث الجميع. ولم تجد صاحبة المتجر نفسها بدا من المشاركة في هذه الثرثرة. وأخيراً هذه إحدى السيدات

الوجيهات تدخل المتجر فيسارعن إلى استقبالها مرحبات.. لكنها لا تلقى بالا إلى شيء من القبعات الحديثة المعروضة بل تنساق في تيار الثرثرة الشاملة وتتساءل في دهشة: "ما هي الحقيقة في كل هذا..؟ ألم تسمعن النبأ الأخير.. أن الارشيدوق وخليلته قتلا برصاصتين من يد قروي في مايرلنج، اقتحم عليهما غرفة النوم بالقصر متسلقاً إحدى النوافذ. وقد انتحر المسكين برصاصة أخرى بعد أن انتقم لنفسه من الارشيدوق الذي أغوى زوجته. أما جثته فدفنت خفية في بادن!"..

الساعة التاسعة والدقيقة ٥٠ صباحاً.

عند القصاب.

القصاب العجوز منهمك في إعداد شرائح اللحم للسيدة الوحيدة الواقفة أمامه، لكنه سرعان ما تتراخى ذراعاه، ويرهف سمعه لحديثها الطريف.. أنها زوجة أحد الصحفيين، وهذا ما جعلها تقف على الحقيقة كاملة.. أن ولي العهد قتل خلال رحلة للصيد في الغابة، وقد أطلق عليه الرصاصة القاتلة حارس هناك كان الارشيدوق قد أهانه قبل أيام بأن ضربه بالسوط على وجهه. وقد اضطر هذا الحارس إلى قتل خليلة الارشيدوق برصاصة أخرى، لأنها كانت الشاهدة الوحيدة على جريمته الأولى!

الساعة العاشرة والدقيقة العاشرة صباحاً.

المصادر المسئولة.

أحد الصحفيين الأجانب ينوب عن زملائه المجتمعين في القصر الإمبراطوري في توجيه بعض الأسئلة إلى رئيس قسم الاستعلامات هناك، وكانت الأسئلة كثيرة تدور كلها حول الأقاويل والشائعات التي تملأ العاصمة

في شأن وفاة ولي العهد الغامضة.. ولكن رئيس قسم الاستعلامات بالقصر لا يجيب عن ذلك كله بأكثر من أن التحقيق يأخذ مجراه ولم ينته بعد.

الساعة الثانية بعد الظهر.

في بودابست.

في مجلس النواب الهنغاري: الرئيس يفتتح الجلسة ببيان رسمي يعلن فيه أنه تلقى من الكونت كارولي بفيينا برقية ضمنها أن سمو الارشيدوق رودلف ولي العهد توفى فجأة متأثراً بنزيف في المخ!

الساعة الرابعة والدقيقة ٣٠ مساء.

في دير كابوتشاين.

جثمان الارشيدوق رودلف مسجى في تابوت خاص فخم وضع في البهو الخارجي للدير، تحيط به باقات لا يحصى عددها من الزهور والرياحين، ورجال الحرس والبوليس واقفون خلف التابوت في خشوع كأنهم التماثيل. والجماهير الحاشدة خارج الدير تتقدم في صف طويل، واحداً خلف واحد، ليتزود كل منهم بالنظرة الأخيرة إلى ولي العهد الراحل وعلى جانبي الممر صفان من الجند في بذلاتهم المزركشة وقبعاتهم التي تعلوها الريشات المذهبة وسيوفهم المسلولة المكنسة. والبهو كله حافل بالشموع الموقدة، ولكن التابوت نفسه ليس حوله منها سوى عدد قليل، لكيلا تصل النظرة العابرة من المودعين والمودعات إلى إدراك شيء من التفصيل غير المرغوب فيه عن حقيقة إصابة الارشيدوق!

وكان الصمت التام يخيم على جميع المارة بالتابوت والمنتظرين دورهم في المرور.. أما الذين انتهى دورهم وغادروا الدير عائدين من حيث جاءوا

فكانوا يعوضون ذلك الصمت الرهيب بتبادل مختلف التعليقات، كل بحسب ما رآه!

وهكذا، استمرت الأقاويل والشائعات يأخذ بعضها برقاب بعض، ويناقض بعضها بعضا، ولم يفد شيئاً صدور البلاغ الرسمي معلناً وفاة الارشيدوق بالسكتة أثر نزيف بالمخ، ولا عرض الجثمان على الجمهور!

الساعة الخامسة مساء.

في قصر كونتيسة.

الأمير الويز دي ليختنشتاين يحتج بشدة على الإشاعة التي يرددها أحد المدعوين مثله إلى حفلة الاستقبال التي أقامتها إحدى الكونتيسات المعروفات في فيينا. وهذه الإشاعة هي أن الارشيدوق رودلف وخليلته ماتا مسمومين. وقد أكدت الإشاعة أن هذه الخليلة من راقصات الأوبرا، وأنها شوهدت عقب نزولها من القطار الذي أقلها يوم الحادث من فيينا إلى بادن تستقل عربة أخرى في طريقها إلى مايرلنج!

ويختم الأمير الويز دي ليختنشتاين احتجاجه قائلاً: "لقد صدر البلاغ الرسمي وفيه سبب الوفاة. فلا صحة لكل ما عداه!".

الساعة السابعة مساء.

في شارع فيلدر.

مطعم راتهاوس كيلر (حانة البلدية) مزدحم برواده من الطبقة الارستقراطية، وزجاجات الشمبانيا تغطي الموائد في آنيتها الفضية المثلجة. والأحاديث تتناثر هنا وهناك عن مؤامرة سياسية فاشلة، كان الارشيدوق

رودلف ولي العهد قد دبرها لقلب نظام الحكم، بالاشتراك مع الارشيدوق جان دي توسكاني وبعض النبلاء الهنغاريين والدلماتيين والكرواتيين. وقد فشلت المؤامرة بفضل الارشيدوق شارل لويس وابنه فرنسوا فرديناند، فقد استطاعا في الوقت المناسب أن يوجها إلى الارشيدوق رودلف تلك الضربة التي قضت على حياته. ولم يكن في ذلك ما يغضب الإمبراطور فرنسوا جوزيف، بل الواقع أنه أعرب عن ارتياحه إلى هذه النهاية التي حالت دون مشاركة أحد آل هابسبورج في التاج الإمبراطوري!

وسرعان ما تنتقل الأحاديث عن تلك المؤامرة، من المطعم إلى المحال المجاورة له، ثم إلى أرجاء العاصمة النمسوية كلها!..

الساعة السابعة والدقيقة ٣٥ مساء.

في مطعم ساركر.

الأنظار والأسماع كلها متجهة إلى المائدة التي يجلس إليها البارون الجنرال البير دي مرجوتي ياور الإمبراطور.

وبلغ الفضول أقصاه ببعض رواد المطعم من الكبراء والأشراف ومن إليهم فغادروا موائدهم، وأخذوا يتعمدون المرور بالقرب من مائدة البارون ملتمسين مختلف المعاذير، لكي يسمعوا بوضوح ما يفضى به إلى خاصة جلسائه من أحدث الأنباء عن مأساة مايرلنج!

وكان الجديد فيما رواه البارون دي مرجوتي أن الآنسة ماري دي فتسيرا خليلة الارشيدوق رودلف، لم تكد تسمع نعيه حتى تجرعت مقداراً كبيراً من سم زعاف قضى عليها لساعتها!

الساعة التاسعة والدقيقة ٢٥ مساء.

في محطة الشمال بفيينا.

مسافر قادم من برلين يصغى في اهتمام إلى الحمال الذي أعطاه حقائبه، وهذا يروى له ما يعرفه عن مصرع الارشيدوق ولي العهد في مايرلنج.. لقد كان المسكين مع خليلته هناك في حالة سكر شديد، وأثناء ذلك صرحت له بأنها حملت منه، وأن الجنين في شهره الثالث. وهنا تبينت أنه يعتزم التخلص منها ومن جنينها، وقامت بينهما مشادة عنيفة انتهت بأن قذفته بشمعدان ثقيل من البرونز فشج رأسه وتناثر مخه.. وحينما وصل خادمه العجوز ليرى ما هناك كان الارشيدوق جثة هامدة، فلم يسع الخادم إلا أن أنتقم له بإطلاق رصاصة من مسدسه على رأس الفتاة!

الساعة العاشرة والدقيقة العاشرة مساء.

في دير الراهبات.

من كان يصدق أن الجدل والنقاش حول مأساة مايرلنج يمتدان إلى كل مكان.. حتى دير الراهبات المنقطعات للعبادة!..

ولكن النبأ تسرب إلى الدير النائي عن العمران، وهذه إحدى الراهبات تختم حديثها عنه إلى زميلاتها قائلة: "مسكين ولي العهد!.. تولاه الله برحمته وعطفه!.. لقد استيقظ ضميره أخيراً فأدرك هو وشريكته في الإثم مدى هاوية الخطيئة التي انحدرا إليها.. وهكذا كفرا عن خطيئتهما بذلك المصير الذي ختما به حياتهما".

الساعة العاشرة والدقيقة ٣٠ مساء.

بين كواليس الأوبرا.

النظارة في دار الأوبرا يقطعون فترات الاستراحة بالحديث عن مأساة مايرلنج، وهناك وراء الكواليس يجلس الممثلون والممثلات والراقصون والراقصات يتبادلون آخر الأنباء عن المأساة.. أن ماري فتسيرا هي التي قتلت الارشيدوق عشيقها رمياً بالرصاص، لأنه صرح لها باعتزامه قطع علاقته بها. ولم يسعها بعد ذلك إلا أن انتحرت.

الساعة الحادية عشرة والدقيقة ٥٠ مساء.

في فندق بريستول.

رواد الفندق ملتفون حول الموظف المختص باستقبال رواده في مكتب المدير.. أنه بحكم وظيفته يعرف الكثير من أسرار المأساة الغامضة. وهذا هو يروي لهم في كثير من المباهاة أن حقيقة الأمر لا تخرج عما وقف عليه من مصدر سري خاص، وهو أن الإمبراطور فرنسوا جوزيف نفسه كان منذ ربع قرن يتخذ البارونة هيلانة فتسيرا عشيقة له، ثم شاءت الأقدار أن تصبح ابنتها ماري عشيقة للارشيدوق رودلف ابن الإمبراطور.. وأخيراً عثرت ماري المسكينة على أوراق خاصة بأمها وقفت منها على صلتها القديمة تلك بالإمبراطور، وعلى أنها هي نفسها كانت نتيجة تلك الصلة، أي أنها ابنة غير شرعية للإمبراطور. وكان طبيعياً أن أفضت المسكينة بهذا الاستكشاف الخطير إلى الارشيدوق ولي العهد عشيقها وأخيها في الوقت نفسه.. وهكذا قررا الانتحار ليضعها حدا لتلك المأساة!

حياة بلا أمل

الجمعة أول فبراير سنة ١٨٨٩.

تصحيح خبر.

صدرت صحيفة فيينا (فينر تزايتونج) وفي صدرها حبر بحروف بارزة جعلت عنوانه: "هذه هي الحقيقة".

كان صاحب السمو الارشيدوق رودلف ولي العهد قد دعا بعض اخصائه إلى الصيد معه في مايرلنج، ومن بينهم الأمير فيليب دي كوبورج، والكونت هويوس. ثم شعر سموه بانحراف في صحته فاعتذر لتخلفه عن حفلة العشاء التي أقامتها الأسرة المالكة مساء ذلك اليوم بالقصر الإمبراطوري. وفي صباح اليوم التالي أعدت العدة لبدء رحلة الصيد، وطال انتظار المدعوين لسموه، ثم فوجئوا أخيراً بنبأ الفاجعة الأليمة. فاجعة وفاة سموه متأثراً بنزيف في المخ.. وهذه هي الحقيقة التي لاشك فيها عن وفاة سمو الارشيدوق المحبوب!

وهكذا ظفرت الصحيفة النمسوية الكبرى برضا القصر الإمبراطوري، بعد أن تعرضت للمصادرة ومختلف ألوان التهديد على أثر نشرها النبأ الأول عن وفاة الارشيدوق!

الساعة الثامنة صباحاً.

في قصر فتسيرا.

البارونة هيلانة فتسيرا جالسة تبكي، وبجانبها السيد (شتوكاو) الذي وصل أخيراً ليخبرها بما تم من أمر دفن ابنتها العزيزة المتوفاة في مقبرة

الدير!.. وعلى مقربة منهما جلس (فرانز) و(أهاني) شقيقاً ماري يبكيان في صمت مرير رهيب!

وأخيراً يستعيد السيد شتوكاو بعض نشاطه على أثر احتسائه كأساً من الخمر الساخنة، ثم يلتفت إلى البارونة العجوز ويهمس لها قائلاً: "لا جدوى من البكاء يا سيدتي.. لقد انتهى كل شيء، وأنهار إلى الأبد كل ما كان هناك من صروح الآمال المشيدة في المستقبل!.. على أن هذا لا يمنع من التذرع بالشجاعة والصبر وطرق آخر باب من أبواب العمل المفيد.. وفي استطاعتك أن تعتمدي علي في هذا أيضاً!

الساعة العاشرة صباحاً.

في مكتب الإمبراطور.

الإمبراطور العجوز ثائر ساخط يصرخ في وجه الجنرال فروينت ويقول في حدة شديدة: "ماذا تريد هذه الأفاقة العجوز.. ألم يكف أنها جاءت إلى العالم بتلك الشيطانة اللعينة التي جرت علينا كل ذلك البلاء؟!.. كلا كلا!.. لا أريد أن أرى وجهها أبداً!.. فلترحل إلى الجحيم، أو فلتقض ما بقى من عمرها الشقي في ظلمات السجون!"

ومرة أخرى ينحني الجنرال أمام مولاه الغاضب الثائر ثم يقول في هدوء عميق: "مولاي.. أن ابنتها ماتت قتيلة.. كما أن الارشيدوق..".

ولكن الإمبراطور يقطع كلامه قائلاً وهو يدق المكتب بيده في قوة وعنف: "كلا!. أن رودلف مات بالسكتة. وهذا كل ما هناك.. وكل ما عداه ليس سوى كذب وبهتان!"

وسكت الجنرال فروينت قليلاً، ثم استأنف كلامه باللهجة الهادئة نفسها

فقال: "كل هذا حق لاشك فيه يا ملاوي، وقد أكده البلاغ الرسمي، والشعب كله يؤمن به الآن.. ولكن من الخير أن نرضي تلك العجوز الشكلة لكي نضمن سكوتها، ولاسيما أن جثة ابنتها دفنت بغير تشريح ولم يعلم بدفنها أحد غير مفتش البوليس وقريبها المدعو شتوكاو ورئيس الدير!"

وهدأت قليلاً ثائرة الإمبراطور وأطرق هنيهة مفكراً، ثم قال لكبير مساعديه: "حسنا!.. ماذا تريد تلك الشريرة العجوز؟"

فقال الجنرال فروينت: "أنها لا تريد أكثر من إعانة بسيطة، لأن شئونها المالية مضطربة. وليس في استطاعتها أن تستمر في معيشتها بالعاصمة بعد أن..".

فقطع الإمبراطور كلامه مرة أخرى قائلاً: "وماذا يبقيها في فيينا هذه الخبيثة؟. كلا!.. لست أريد بقاءها هنا بأية حال. ويجب أن تغادر البلاد في أقرب وقت!"

فقال الجنرال: "إذن.. يحسن أن نغريها بتلك الإعانة البسيطة لنتخلص من وجودها هنا!.. وإذا تفضل مولاي بالموافقة، فإلى أخذها إلى مكتبي لأعرض عليها مبلغ..؟"

فقال الإمبراطور: "٥٠ ألف فلورين بل مائة ألف فلورين (حوالي عشرة آلاف جنية).. على أن تغادر النمسا كلها فوراً..!"

وانحنى الجنرال فروينت وغادر مكتب الإمبراطور، حيث اجتمع مع البارونة هيلانة فتسيرا في مكتبه بضع دقائق، ثم عاد للإمبراطور وقال له: "أنها قبلت المبدأ يا مولاي، ولكن..".

فسأله الإمبراطور متعجلاً: "ولكن ماذا؟.. هل هذه المرأة تريد أن تملي شروطها علينا؟!"

فقال الجنرال: "أنها تصر على تشريح جثة ابنتها، وتزعم بل تؤكد أن ابنتها كانت حاملاً في شهرها الرابع!".

وهنا قفز الإمبراطور من مقعده ووضع يده على صدره كأنما أصيب بطعنة من خنجر مسموم! ثم قال في صوت أشبه بالحشرجة: "يا للشيطانة اللعينة!.. يا للفضيحة والعار!.. ما هذه المشكلات والمصاعب.. كلا كلا!.. يجب أن يقطع لسان هذه العجوز الماكرة!.. ماذا يقولون وماذا يقول قداسة البابا عن مثل هذا الأمر الفظيع، وماذا يكون موقف أوروبا؟.. أنها لفرصة كبرى سرعان ما يغتنمها إمبراطور ألمانيا ليشبعنا تعييراً وتقريعاً، كما تنتهزها حكومة لندن لإثارة احتجاج جديد!.. ثم هناك الشعب الهنغاري و..".

ويسكت الإمبراطور قليلاً، ويدور حول المكتب مزمجراً مغمغماً وقد أصفر وجهه وتوترت أعصابه وتخاذلت أعضاؤه وشعر بأن هوة عميقة مملوءة بالأشواك توشك أن تبتلعه!.. ثم التفت أخيراً إلى الجنرال فروينت وقال له: "هيا يا فروينت.. هذا وقتك.. اعرض عليها.. نصف مليون فلورين (حوالي ٥٠ ألف جنية في ذلك الحين).. أنني أريد التخلص من هذه المرأة بأي ثمن!.. أسامع أنت؟.. هيا.. يجب أن تغادر الحدود خلال ٢٤ ساعة.. وليصحبها ضابط كبير. ولن تعود إلى النمسا والمجر بعد ذاك!"

توبة متأخرة

في صحيفة الإمبراطور.

بعد أشهر من وقوع المأساة.

وأخيراً.. نشرت صحيفة الإمبراطور فرنسوا جوزيف العبارة المؤثرة التالية، وأكد المتصلون بجلالته أنه هو نفسه الذي أنشأها وأوصى بنشرها:

"لقد رغب كلاهما في الموت..

"لأنهما قطعا الأمل في الحياة معا..

"ولقد كان حبهما صادقاً.. عظيماً!"

وفي الوقت نفسه نقش اسم ماري فتسيرا على قبرها وتحته العبارة التالية:

"ولدت في ١٩ مارس سنة ١٨٧١.

"وتوفيت في ٣٠ من يناير سنة ١٨٨٩.

ومنذ ذلك الحين صار ذلك القبر المتواضع مزاراً يحج إليه العشاق الذين لم يسعدهم الحظ، لينثروا عليه الزهور.. والدموع!.

الفهرس